ليس الآن!

رواية

هالة البدري

حلمي التوني 87

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هالة البدرى

رواية

ليس الآن



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٨

مسَّني .... فاكتملت

إليه

هالة البدري

فركت وديدة "أم عبد الله" عينيها ، فاصطدمت بضـوء خـافت تسـربه النافذة . صكت أذنيها أصوات استغاثة انفجـرت متنـاثرة فى سقف الحجرة . ألقى الصحو بجسمه عليها فجأة ، فقامت إلى خشـب الأرضية ، ثم إلى نعالها راكضة :

ـ يا شيخ طه .. يا حاج عبد القادر .. الحقونـا .. الغـرق.. الغرق.. الفيضان .

جفل باب الغرفة وهى تعبره إلى السُّباط ،[1] والبناء يئـن تحـت عنف لا تعرف مصدره . أذهلها الضجيج الذى وصلت إلى قلبه فى ثوان. انغرست عيناها كالنصل المرسل فى المشهد أمامها . فاجأهـا عشـرات الراكضين فى ممرات الدوّار وطرقاته فى الأدوار الثلاثة . سمعـت صـوت تمزُّع شرايين الخشب تحت وطأة ضربات المياه التى تعـوى فى الحـوش . رأت العائلة كلها : عصبها وفروعها ، والناس كالنمل يهرولون بـدأب ليس أخرس ، وكأن النبات النامى فى الدوار لم يُحصد ولم يُستبدل . عاد

---

1) **السُّباط** : هو شرفة داخلية تطل على حوش البيت .

الأبناء بالأحفاد فى صحبة الأجداد أيضاً ، ولهم رعب العيون الفاغرة فوق الخطر . ارتعشت .. لاكت غبار الدهشة دون أن تفيق وتدرك ما يحدث . ترنحت الشرفات تحت قدميها ، التفتت إلى صوت نعيمة، وهى تسأل رشدى :

ــ هل يحتمل الدرج النزول عليه ؟ أم أنه سينهار تحتنا ؟

ثم رأتها تقفز من فوق الدرابزين ، قبل أن تسمع إجابة رشدى الذى قفز وراءها ، وغاصا فى الماء الذى يعلو بسرعة حتى وصل إلى منتصف المسافة بين الطابقين ، فارت الموجة وابتلعتهما . ركضت وديدة عائدة إلى صالة الشقة الصغيرة ، فتحت المشربية ، لم تجد الشارع، رأت النهر يتلوى ضارباً الحوائط المنيعة بغضب ، ويندفع من الأبواب بقوة. تحول مبنى السلاحليك والجراج إلى جزيرة فى منتصف التيار ، جارفاً أمامه تعريشة العنب، وانقلبت الكرويتات إلى لعب صغيرة طافية على السطح ، ومن فوقها أحفادها الأطفال متشبثون بأخشابها . لم تجد السيارات أو الحيوانات ، بل مراكب الصيادين الفقيرة، وأبناءها عبد الله ومحمود وعاطف وإسماعيل وعبد الحميد يجدفون . أعادت بصرها إلى عبد الحميد الذى استشهد فى ١٩٦٧، وتحققت من وجوده بين الرجال الذين يحملون البنات ، قمر وكوثر ونازلى وبنورة ، والجدات والشيوخ . تعجبت أكثر حين رأت بينهم نعيمة ، رفعت رأسها نحو السماء الشاحبة ، حاولت أن تحدد زمناً فلم تستطع . شقت قوارب ترقُّبها بحر المعرفة ، تاركة خلفها

دوامات عنيفة من القلق ، وطوابير من الذكريات تلـهث فى فؤادهـا ، وفراشات تموت فى الدم ، وأضواء تنز الخوف . رقصت الجدران ، ففرت عائدة إلى السُّباط وهى تصرخ دون صوت .

لماذا تجمعت العائلة ؟ فرح أم عزاء ؟ كيف اجتمع جدنا الحـاج على المصيلحى وإسلام آخر أحفادى ؟

سمعت أمها تنوح :

ــ العمود سينكسر يا وديدة ، العمود ..

انتفض الدرج تحت وطأة تمزُّعات أخشابه . ركضت نحو العمود الذى يرتفع بالشرفات الداخلية وسط الدار ، واحتضنـت أمـها الـتى انزرعت أمامها شابَّةً تنضح بالعافية ، متوردة الوجه رغـم الاضطـراب والخوف . ازداد ارتباك وديدة التى لم تر أمها منذ وفاتهـا ، أثنـاء ولادة أخيها جابر . تسربت الأم من بين يديها ، وراحت تهذى وهـى تخبـط رأسها بيديها ، وتتطوح بلا وعى :

ــ العمود .. العمود يا وديدة .

خفق قلب الأرض بقوة ، وسرى فى البناء نبـض عنيـف ينـذر بانفجاره . شحذت الماء شفرة غضبها ، واقتربت موجاتها تشق أحـرف الدرابزين أمام وديدة . جفلت وهى ترى المواشى ، والخيـل خائفـة ، تجرفها المياه بسرعة لتلحق بأسراب البـط والإوز الهاربـة ، والأرانـب المذعورة تصرخ ممتطيةً سطح أقفاصها الخشبية العائمة ، والحمام يتخبـط فى الجـدران حائراً . انفتح باب كبير لم تعرف بوجوده من قبل ، اتجـه

الجميع ناحيته متدفقين عكس التيار ، واستمر عـواء المـاء ، وتنـاثرت بلوراته تشق السماء ، والناس ما زالوا يقفزون ، ووديدة حائرة مشفقـة على البناء، ورحلة العمر أن تذوى . تدور حول نفسها تارة ، وحـول الدرابزين أخرى . تركت السـباط إلى شقتها ، وأطلت مـن المشربيـة على الشـارع الذى جرفه النهر . وجدت كل أهلها هناك ، ثم عـادت راكضة إلى الداخل لتجدهم فيه أيضاً ، وكأن الكون قد تركز فى دوامـة كبيرة هى مركزها ، شـاهدةً على دوران الماء والزمن والحياة . لم تعرف أنها مصـدر الأزيز الذى يعلو حولها، ويهش الاستغاثات مـن سمعـها، طنَّت مثل خلية نحل لا تهدأ حين تهاجم بالغريزة شيئاً ما مجهولاً ، ثم فجأة انسحب الضجيج تدريجياً، وعاد الناس من حيـث جـاءوا . وراحـت المخلوقات تتلاشى ، تاركةً السـيادة لسكون بلا معنى . ووجـد المـاء طـريقا ناعما تسرب منه ملبياً نداء النهر ، ولملمت العاصفة أطراف ثوبها الذى اشتبك فى الدرابزين ، ووديدة حائرة تراقب الأرض التى جفـت ، والجدران الشامخة ، والدرج الذى اسـتعاد عافيته ، حائرة !

حين بحثت مناقير الديكة عن الفجر ، جلست الريح فوق أعـالى الشجر تتنهد وتتهيأ للنوم ، ومسحت الشمس دمـوع السـحابة الـتى سكنت السماء ليلاً ، ونزلت وديدة تستقبل الحلاّب، تعيـد فى ذهنـها ترتيب حلمها الذى ترك آثاره فى قلبها ، وكأنه لحن يريد أن ينفلت دون رغـبة صاحبه . بدت فى ملابسها السوداء كائناً صغيراً دقيقاً خفيفـاً ، ملأ بحركته التى شـابها انحناء بسـيط أرجاء الحوش . بعثت الحيـاة فى الأركـان المظلمة التى لم تزرها الشمس بعد . فتحـت لهـا الأبـواب والنوافذ . دخل متولى ساحباً الجاموسة الأولى ، وربطها فى الوتـد ، ثم

نقل تحتها المتارد الدافئة التى باتت ليلتها فى الفرن ، وسرعان ما رنت دقات اللبن تش تش تش، وضحكت الرغاوى البيضاء فوق السطح ، وسرت الحرارة فى قش الوقود معلنة مولد صباح جديد مشبع بصفاء ما بعد المطر. دهست خطوات العمال أرض الدهليز ، وسمعت فى الرواق همهمة وصولهم واستلام أدوات العمل ، وانشغلت ستيتة بتلقيم الفرن ، وخبز الفطائر التى تعجنها أم عبد الله بنفسها ، وأمينة بترتيب الإفطار . وانتشرت الطيور الصغيرة ، بعضها يلقط الحب حول الرحاية المنكفئة فوق الجدار قرب غرفة الزلع ، وبعضها يلقط بقايا العجين حول الطشتية التى قلبتها وديدة.. وفح ذكر البط حول أنثاه ، ثم هدأت الحركة فجأة ، وكأن لم تكن فى الطابق الأرضى، وانتقلت إلى الطابق الأول ، وسمعت أصوات العاملات وهن يكافحن الفناء ، ويعدن ترتيب المكان الوحيد المفتوح الاستعمال فى القصر الكبير ، بعذ أن أغلقت معظم أجنحته ، وأنَّت الجدران من أمراض الرطوبة .

سنوات كثيرة مرت بعد رحيل أم طه التى كانت تحرص على الزينة والتغيير ، فلم يتبدل فى الأثاث والمفروشات شئ واحد وضعته بيديها . بهتت ألوان الستائر ، وزحف القدم ، وسكن أرحام الجدران التى طُلى بعضها بالجير عند زواج الصبيان . ترك فحيح الأفران بصماته تتسرب من الطابق الأرضى إلى الطوابق الأخرى . نزلت صبحية إلى وديدة ، تاركةً الشغيلات الصغيرات لأعمالهن ، وأخبرتها بضرورة الترميم، بعد أن لاحظت كسر أحد عروق الخشب فى سطح مقعد الصبيان . تذكرت وديدة حلمها ، وقالت لنفسها " الحمد لله ، فسر الحلم نفسه بالصلاة على النبى" . انشغلت مع أمينة فى ترتيب أعمال النهار الجديد . دخل ابنها إسماعيل إلى غرفة العيش طالباً غداءً مبكراً ،

قامت إليه وجهزته له، ثم جلست أمامه تسأله بهدوء :

ـــ أنهيت تحميل عربات البطاطس ؟

لم تكمل كلماتها ، هب واقفاً مشوحاً بيديه ، زاعقا :

ـــ حتى اللقمة لا تريدون أن نطفحها ؟!

فرت العاملات من أمام باب المطبخ ، والتصقن بالجدار ليتجنبن هرولته ، وزعقت دجاجة طيرتها ركلة من قدمه ، وترددت فى الفضاء أصوات طيور أفزعتها الحركة المفاجئة ، قبل أن يعبر الحوش ويختفى فى الدهليز ، ووديدة تركض من ورائه :

ـــ تعال أكمل طعامك يا إسماعيل ، حرام عليك !

قالت أمينة : اتركيه ، أهوج ، والغضب يعمى عينه ، حالاً يرجع لعقله .

وأشارت للعاملات أن يعدن إلى هز الأرز .

قالت ستيتة : الصبيان ياما يعملوا ، هونى عليك ياستى ، والنبى لا تجيبى سيرة لحضرة العمدة !!

أجابت وديدة ، التى جلست حزينة فوق المصطبة :

ـــ من دون أولادى كلهم .. من دون أولادى . ماذا فعلت كى يعاقبنى الله آخر العمر . كلمة واحدة لا يريد أن يسمعها من أحد .

قالت أمينة : البطن قلاّبة .

خرج إسماعيل لا يلوى على شئ ، طويل ، عريض فى غير تناسق، رغم صغر السن ، تنفرط على جانبيه كتل الشحم ، منتفخ

الأوداج ، له بشــرة سمراء تعكس لوناً أحمر من فرط الصحة. الشراهــة هى مــفتاح شخصيته ، تتضح حين يضحك بوحشية لا تناسب الطبقة ، أو حين يزعق بغضب لا يناسب الحدث .

عانت وديدة معه فوران النمو المبكر ، إذ انتقل فجأة إلى شــاب ضخم الجثة ، وبقى عقله فى طور النمو الطبيعى لصبى . ماكينة تزحــف تلتهم كل ما حــولها ، لا تفرق بين الأنواع ولا تختار ، وربما لا تجــرؤ على التذوق أيضاً . كان فى صباه المبكر لا يُرى إلا وفى يده شئ يمضغه . لا يدخل إلى الحرملك إلا لطلب ، ولا يعود إلا ليبحث عــن طعــام . اكتسب من وديدة عينيها العسليتين ، وأهدابها الطويلة ، وأخذ عن طــه أنفه الحاد وشعره الأسود الغزير . لم تفلح أمه أبداً فى هندمته ، وكــأن قــميصه فى عراك دائم مع بنطلونه ، لا يستقر داخله أبداً ، وقد ظل على خصام مع ملابسه المفتوقة حتى تخلص منها دفعــة واحــدة ، وارتــدى الجلباب مثل أبيه مدى الحياة . تعب طه فى إقناعه ببذل جهد فى التعليــم تارة ، والتوعد بالحرمان من الخروج إلى الأصدقاء تــارة أخــرى دون جدوى . تعلم فى المنتهى بعد افتتاح مدرستها الثانويــة، ولم يخــرج إلى عواصم المدن كما فعل أخوته قبله . ومع هذا لم يحلــم أبــداً بالعــالم الخارجى، ولم يحلم بمهنة أو مستقبل خاص ، حلمه الوحيد هو الثراء ، أما كيف يصل إليه فلم يشغل باله ، ولم يعرف من مظاهره أبعد من ذبــح أوزى على شاطئ النهر ، والسهر مع الشباب حتى الفجــر ، ولم تشــق عقله يوماً شرارة حماس لرغد من نوع آخر . اكتســب قناعةً داخليةً ما، إن أرض أبيه هى ملك خاص له من دون أخوتــه ، لمــاذا ؟ لم يتعــب نفســه فى التفســير ، وربما يكون قد رمى الأمر كله على أنهم تعلموا ،

يخرجـــوا من البلدة ، ولن يعودوا إليها إلا زائرين ، كما فعل أعمامـــه من قبل ، وأنه هو سيكون سيدها ..

خرج من الدوار غاضباً ، لكنه سرعان ما نسى السبب حين رأى فطوم قادمة على مهل . وقف قبالتها :

ـــ ابعد عنى ياسى إسماعيل "الله لا يسيئك" !

ـــ يابت .. يابت تعالى . طيب تعالى اعملى الشاى .

ـــ عدى .. وأنا وراءك . أحمّل الحمار وارجع لك .

أدخل كف يده فى فتحة جلبابه المفتوحة دائماً صيفـــا وشتـــاء، وتحسس صدره المشعر ، وهو يتابع فطوم تتبختر أمامه ، وتعبر القنايـــة . لاحظ اهتزاز ردفيها المكتنزين ، وهى تتحسس طريقـــها فـــوق الأرض الترابية تحت ثقل حِمْل البرسيم : "الأرض كاشفة نفســها ، لو كـــانت ذُرَة والله ما كنت عتقتها . صحيح الثقل صنعة، أنا إسماعيل المصيلحـــى تعصانى فطوم ، بعد ما طابت واستوت ونادت الأكال ؟"

قذف فرع الشجرة الذى كان يتكئ عليه ، وركض فوق قوالب الطمى الجافة متحاشياً الحُفَر . اخترق الحقل ، ولحق بها ، وهى تســحب الحمار قبل أن يبتلعها الطريق أمام النهر ، وأمسك بكتفها قائلا :

ـــ قلت لك اعملى الشاى .

ـــ أبى يستعوقنى . آذان الظهر قرب . حالاً أرجع لك ، راجعـــة لك ، والله .

مد يده إلى العقد الذى يزين رقبتها ، فجفلت إلى الوراء وتـــورد

خداها ، وتسللت من جبهتها إلى عينيها قطرات عرق ، رغم أنف شهر أمشير :

ـــ عيب ياسى إسماعيل !

ـــ فرع خرز بلاستيك ، أنت تستاهلى عقداً من الكهرمان. "كرما" من الأصلى ، خلاص ، أشتريه لك يوم الجمعة.

ـــ عشت والنبى ، حلفتك بالمصطفى تبتعد عن سكتى .

ـــ نسيتى ؟ زمن آخذك تحتى فى الجرن ، شفتى واحد غيرى أحسن منى ؟

أخفت نصف وجهها الأسفل بطرحتها السوداء ، وأرخت رموشها الطويلة فوق عينيها ، فظهر جمالها أشد صراخا مع الخجل ، قالت :

ـــ كنا عيال !

ـــ توافقينى واحنا عيال ، وتعصينى بعد ما تكبرى ؟

زغدت الحمار فى فخذه حتى يتحرك ، والتفتت إلى إسماعيل بعد أن انهدلت الطرحة ، وكشفت وجهها :

ـــ أنا من طينة ، وأنت من طينة .

اعترض بكتفه حركة الحمار ، ومال عليها مقربا وجهه من وجهها الذى تصاعدت أنفاسه كبخار علق فى الجو .

ـــ لكن طينتك عاجبانى ، وخبلانى ، وإذا ما طاوعتينى سأزعق

بالصوت الحيانى ، واخلع الهدمة ، واقف ملط فى السوق ، وألطم على وجهى مثل النسوان ، واقول باحبها ياناس ، فطوم بنت شاكر .

ــ يا نهار أغبر !!

ــ خائفة من الفضيحة ؟

ــ عيب ، أنا حرمة ، وانت تحمينى .. ما تفضحنى .

ــ هو الحب عيب يا ناس ؟ أنا أحميك من الدنيا كلها .

تحسس ساعدها بلطف وسألها :

ــ من يطفئ النار الوالعة فى حشايا ؟

ثم تغيرت نبرة صوته اللينة المستعطفة فجأة ، واكتسبت عنفاً آمراً وهو يهصر يدها :

ــ هى كلمة ، منتظرك فى الجرن بعد المغرب .

ــ أبى يكشفنى ، يقتلنى ، اعمل معروف .

ــ تحججى بحجة والسلام .. أنت حرة ، عارفة لو تأخرت ؟ على راسك وراسى .

ــ اختشى ياسى إسماعيل ، فى عرضك !!

ــ اللى يختشى من بنت عمه ..

ابتلع ريقه ، وهو يتابع حركتها قائلاً ، بصوت عال لم يخش أن

يسمعه أحد :

ـــ رقبة تسجِّد الجدع .. وأنا ذائب والله !!

انقضى النهار ، وسكنت وديدة إلى غرفة نومها . لاحظت أن طه مهموم ، فلم تسأله كما اعتادت طوال حياتها . انتظرت أن يبوح لها بما يشغله فى الوقت المناسب ، إذ لم يتصور طه وهو يدفع بأبنائه جميعاً إلى التعليم – البنات قبل الصبيان – أنه سيعيش ليوم يرفض فيه أحدهم إكمال تعليمه الجامعى ، ويختار بإرادته أن يصبح فلاحاً ، ويستقل بمساعدة أخوته : "إسماعيل يرفس النعمة ." حدث نفسه وهو يخلع ملابسه، ووديدة تمسك له جلباب النوم ، تفهم كلماته التى لا تسمعها بقلبها بعد أن خفتت قدرتها على السمع . التفت إليها ، ورفع يديه بصعوبة كى تحكم ربط حزامه الصوفى فوق ضلوعه ، وزفر آهةً حزينة .

قالت هامسة : ارحم نفسك يا طه .

قال بصوت عال : تعبت يا وديدة . اتفق أولادك كلهم معه، قالوا لى اتركه يختار ، لا تفرض إرادتك عليه . أنا أفرض إرادتى ؟ أنا ؟ ماذا يريد من الأرض ؟ وماذا ستعطيه الآن ؟ يتصورون أننى لا أستطيع إدارتها منفرداً ، وأنها تحتاج لشاب عفى ، طوال العمر وأنا أديرها ، المسألة ليست سنا .

نظر إليها نظرة طويلة تعرف معناها ، ثم غرق فى ذاته . انتظرته صامتة ، وعكس وجهها هدوءاً واثقاً من حسن تصرفه .

قال : ليست الكبرياء .. أنت تعرفين .. ليست الكبرياء . الأرض ركبتها الجمعية والسوق السوداء ، وبلطجية السماد والبذور ، غير تحديد حصص التوريد والسعر .. ولولا التجارة وتربية المواشى ما كنا، الأسهل أن أتركه يساعدنى ، لكننا لا نحتاج إلى خولى .

رفع رأسه نحو لمبة الكهرباء التي يتلاعب ضوؤها بفعل ريح هبت، ثم استدار إلى الأفق خارج النافذة المطلة على النهر . انتابه شعور بأن الظلام شديد الحلكة ، وأن الضوء الصغير على الطريق مهزوم .

قال : أنا أعرف السبب ، شئ أشعر به ، وسيأتى أوان كشفه ، المسألة أكبر كثيراً من إسماعيل يا أم عبد الله .

ـــ سُقت عليك النبى ألا تغضب عليهم ، هذا نصيب يا أبو عبدالله، وأنت لم تفرط فى تعليمهم ، كانت أمك الله يرحمها تدافع عن اختيارك طوال اليوم ، رغم أنها ما اقتنعت يوماً واحداً بطريقتك ، اتركه ربما ينجح كما نجحت .

ـــ اخترت الفلاحة بعد منعي من التعليم ، كانت العمدية أهم عندهم منى ، كان من حقى الاختيار بين التعليم فى أوروبا مثل أخوتى، وبين الأزهر .

ظهرت عروق تنبض فى رقبته ، وانتفخت أوداجه ، وامتقع لونه الأسمر ، أسرعت وديدة تقدم له الماء . نظرت إليه طويلاً ، واحتلت عقلها صورة الحاج عبد القادر المصيلحى حين الغضب ، قالت بصوت

ضاحك تمازحه :

ـــ صرت تشبه أباك كثيراً يا طه ، أنت أنجح من الجميع وربنـــــا كرملك .

لم يضحك ، استمر يفتت المناقشات الـــتى دارت مـــع أولاده فى عقله:

ـــ قالوا الدنيا تغيرت ، نعم تغيرت ، أنا اشتغلت على ذراعى كى أكفيهم مشقة الطريق .. ما يفعلونه طيش شباب سيدفع إسماعيل ثمنـــه ، لكن بعد فوات الأوان ، لن أكتب له قيراطاً واحداً ، يتحمـــــل نتيجـــة تصرفاته ، ويعمل لديهم أجيراً ، هذه آخرة مخالفة شورتى .

ـــ الرزق من عند الله يا طه . بدأنا ، وانت سيد العارفين ، بـــلا مساعدة من أحد .

وخزته كلماتها ، خاف أن يغلبها حنانها فتساعد إسمـــاعيل علـــى الاستقلال ، قال والكلمات تتراوح بين الغضب والمحايلة ، بعد أن هـــدأ صوته قليلاً :

ـــ إنه لا يستطيع تشغيل عامل واحد فى المزرعة ! لا يمتلك هيبـــة الإدارة ، صدقينى ، العمال يشتكونه طوال اليوم .

ـــ هو عين شابة لا تغفل ، تكشف كسل العمـــال وتلاعبـــهم عليك، لهذا يشتكونه حتى يبتعد ، وتترك لهم السائب فى السائب .

ـــ فاكر أنه يقدر يقف أمام جنينة مـــانجو ، ويبيعـــها قطـــاعى

ويكسب أكثر . ابنى ــ أنا طه المصيلحى ــ ينط فوق عربة نقل ؟ هى الدنيا انقلب حالها ؟

٧

جلس على حافة السرير ضخم الجثة غير مترهل ، رغم ثقل بطنه التى ترتفع أمامه :

ــ عبد الله يريد أن يبنى مزرعة فراخ يديرها إسماعيل ، اكتب الأرض وغداً يبدأ مشروعه .

ــ عبد الله ما كسر لك كلمة ، ولا أغضبك ، سكت من يوم ما رفضت طلبه .

ــ لا ، يلح علىّ كل يوم والثانى ، أنا عارف أنه يقدر يشترى أرضا ويبنى عليها ، لكن أنا لن أبيع فراخ على آخر الزمن . جمع أخوته وضغطوا يوم لأجل أكتب الأرض لإسماعيل ، ويوم لأجل أوافق على المزرعة ، وأنا أرفض لسببين : أولا لن أبعزق فلوسى ، ثانيا هو المهندس البك وأخوه الفلاح بائع الفراخ ، لن أجعله أجيرا عندهم أبداً .

ــ وغربة كوثر ، اكتب الأرض يا طه ، لأجل يحس إسماعيل بنفسه ، أحسن ما عينه تكون مكسورة وسط أخوته .

فى الصباح رباح .

هزم طه المصيلحى أمام ضغط وديدة . لم يهزمـه إلحـاح أولاده عليه، لم يستطع أن يقف فى مواجهة حنانها على إسماعيل . استكثر أن تكتب له الأرض من ميراثها ، خاف من حيرتها الصامتـة بينـهما ، فرضخ حتى يجنبها الصراع . لم يعشق فى حياته قط قدر عشقه لاثنـين : هـى ، والأرض . هى بهدوئها وبحبحة مشاعرها التى تشع حولها مثـل نـور ثريا نقى ، والأرض المفتونة بعرقه ، المفتوحة لرزقه . ساهته وديدة، وجرحت رغبته فى الثبات على المبدأ الذى أبلغه لإسمـاعيل يـوم تـرك دراسته، أن يتحمل قراره دون مميزات . قالت وهى تساومه :

ــ صرفنا على أخوته فى التعليم دم قلبنا ، احسبها واعطيه. لـو كان شغّيلا عندك منذ ترك الدراسة لكان لديه مال الآن .

رضخ ، وكتب خمسة أفدنة ، لكنه لم يسلم الصك له . ولم يمـر يوم بعدها دون أن يهدده بأنه ممزق الورقة إن عاجلاً أو آجـلاً ، إذا لم يرضخ لتعليماته ، ويبق فى كنفه وتحت طوعه .

جلس فى الشكمة يراود شيخوخته على مهل ، ويمضـغ أيامـه. يقلب أوردة الزمن لا الحكمة ، يوغل فيه فلا تطول قدماه سوى حـزن

عميق عمــق الحقيقه . رأى حياته اشبه بعمــود دخان يتراقص تحــت سفح الريح ، يتلون بألوان فاقعة التضاد ، يمسك بأذنــاب الأحــداث ، ويلــف بها السماء ، ثم يطلقها إلى فضائها : "النصيب ، وعمــل بــنى آدم". ارتعشت يده بالمسبحة ، وهو يردد فوق حباتها أسماء الله الحسنى ، ويسجل بها الساعات . وقعت أيامه فى متاهة الحنين ، فتذكر جده تمــام الذى ما ابتسم لطفل قط ، ولا التفت لصبى أو فتاة من أحفاده إلا لــه ، وحمله بين ساعديه ذات يوم قائلاً : "كن كبيرنا حتى نطيعك" .

لم يقبل أن يطلع أولاده أبداً على حساباته فى السنوات الأخيرة ، ولا أن يتنــازل عن عرشه وسلطان إدارته لأرضه وتجارته، لقاء شيخوخة تخزها آلاء الشفقة . قام متعكزاً على عصاه المملوصة من جذع خوخة إلى الصالة ، وشرب بعض ماء من إحدى الجرار التى لم يتغير مكانهــا فــوق الطاولة العالية فى الركن ، منذ بنى الدوار ، ثم دخل إلى غرفة مكتبــه ، وتمدد فوق الكنبة وغفا. صحا على هيصة وزيطة عمال ، صــاح علــى بسيونى أن يعلمه بالخبر ، جاء مهرولاً وقال له :

ـــ العمال يشتكون من سيدى إسماعيل ، ويريدون الكــلام مــع جنابك ، قلت لهم سيدى نائم .

وصل إسماعيل ، ونهر العمال المتجمهرين أما سلم الشكمة، فعــلا صوتهم رافضين مغادرة المكان إلا إذا قابلوا العمدة . قام طــه غاضبــاً ، يتكئ على فرع الخوخة ، فاصطدم بهرجلة إسماعيل وزيطته ، ورآه يشوح بيده ماداً رقبته مثل أوزة غاضبة ، سأله :

ـــ خير .

أجاب : ناس مالها إلا الحرق . نصب ، وخراب ذمة . البكــوات

كانوا نائمين فى الظل ، والعربات متعطلة على الجسر تنتظــــر ، والبـــك رئيس العمال عاملها سهراية ، وقاعد يتدفأ ويشرب شايا وسطهم .

قال العمال فى نفس واحد : تعبنا ، ريحنا ، أجلنا ســـاعة الغـــذاء لأجل نكمل تحميل العربة ، وجاء سيدى إسماعيل افتكر إننا مبلطجـــين ، دائماً ظالمنا ، كل يوم مرمطة ، مرمطة .

أردف واحد بعد أن سكت الجميع :

ـــ تحملناه لأجل خاطرك يا حضرة العمدة .

قال طه بصوت ظهر فيه اختناق الصحو المفاجئ :

ـــ روحوا ، وابعتوا لى سعفان .

قال إسماعيل وكأنه يفح : خصمت لهم نصـــف يوميـــة ، وإذا لم يعرفوا أن الله حق ، لن أبقى على نفر منهم .

تدافع الفلاحون : حرام عليك يا سيدى إسماعيل ، عشنا ندب فى أرضك ، ولنا عيال نصرف عليهم .

قال طه بغضب : قلت اذهبوا .

استداروا إلى الخارج يهمهمون بحنق انكسرت حدتـــه ، ووقـــف إسماعيل فى مواجهة أبيه :

ـــ تكسر كلمتى يا أبى ؟ تركبهم علينا ؟

ـــ نافش ريشك وسطهم ، صاحب المال يشغلهم بالحسنى.

ـــ لا بيشـــتغلوا ولا يحزنون ، متلطعين طول النهار ، لا شغلـــة

ولا مشغلة ، ولا أحد يحاسبهم .

ـــ مائة مرة قلت لك صبرى نفد ، سأقطع حتة الورقة ، وأريح الناس من شرك .

ـــ ورقة ؟ الورقة من حقى ، هى مذلة ؟ كل يوم تصبحنى وتمسينى بتقطيعها ، أنا داخل آخذها من الخزنة ويحصل ما يحصل .

قام طه فزعاً وراءه ، أمسك بقماش جلبابه :

ـــ تعصانى يا إسماعيل ؟ هى حصلت ؟

اندفع إسماعيل إلى درج المكتب ، وفسخه ، وأخرج المفتاح، واستدار إلى الخزنة . رفع طه عصاه وهوى بها مرتعشاً فوق جسم إسماعيل :

ـــ تحتاج إلى ربابة !!

تفاداها إسماعيل فسقطت بعيدةً عنه ، واختنق طه بالغضب، فجلس فوق الكنبة مستسلماً . تراجع إسماعيل وركض إلى الصالة، ثم عاد بكوب ماء رفضه أبوه ، وأشار إلى جيبه قائلاً :

ـــ اعطنى الدواء .

بحث إسماعيل مضطرباً عن الأنبوب حتى عثر عليه ، وأخرجه ممسكاً به كطوق نجاة . همَّ بفتح الغطاء ، ثم تردد ، وقبضت كفه عليه، وتجمد أمام العمدة الشاخص ببصره إلى السقف البعيد . ضربات قلبيهما سريعة وواضحة ، الحبوب بين أصابع إسماعيل المتسمر فى مكانه . أدرك طه ما يحدث ، فاستدار إلى ابنه مسدداً بصره إليه فى تركيز سرى

إلى جسد إسماعيل كتيار صاعق . ارتجفت يده ، فأغمض عينيه على خاطر زلزل كيانه ، دهس بأسنانه شفتيه حتى شلب منهما الدم ، غسز روحه شقرف حاد فتلوى مصدراً أزيزاً مكتوماً مسحوقاً تحت ثقل الرغبة التى اصطدمت بحب جارف للرجل الذى أراد أن يقلده فضَلَّ الطريق ، تاه فى دهاليز وهم القوة والإعجاب بنفسه . انفجرت فوق جبينه فجأة قطرات عرق ، ونبضت عروقه بسرعة فانتفخت أوداجه ، وطقطق جسده مثل ديك رومى مستفز أمام ثوب أحمر ، فسقط فوق أبيه الممدد ، وحمل رأسه فوق ساعده ، ولصق الحبة تحت لسانه . ثوان فرت تخب ، أدرك فيها طه حجم الصراع الذى حسم لصالحه . خرج صوته معانداً عافيته وقدرته :

ـــ أريدك رجلاً .

وقع إسماعيل فوق يده المرتعشة ، وأغرقها بقبلاته ، ماسحاً بجبينه تهوره وطيشه ، بجهشاً كطفل نزق ، ربت طه فوق ظهره :

ـــ أريد أن أرتاح ، سأنام حتى يأتى ميعاد العشاء . اذهب لأشغالك .

احتاس إسماعيل والتاث ، ولم يعرف ماذا يفعل كى يطمر إلى الأبد فعلته . حثه طه على الخروج ، وخزه بالعصا فى جنبه حتى ابتعد فى لهوجة عرف بها مدى الحياة ، ولم ير دموع الشيخ التى صارعها ، حتى لا تنفجر كشلال انهمر لحظة أن عبر ابنه عتبة الباب . لم يرغب طه للمرة الأولى فى حياته أن يتمالك نفسه ، تركها تبكى فساد الزمن ، مشققة دموع الكبر ، وأحزانه . نازعه احتقار لكل ما يمثله إسماعيل من قيم مهترئة ، ورهانه على بصيص ضوء رآه فى تراجعه عن فعلته ، ضوء مطموس بطلسم

الرغبات الجشعة . جفف عبراته ، وصاح على بسيونى ليأتيه بمنشفة ، وكوز ماء لغسل وجهه ، ثم خرج نحو غروب يرهص بالشارات إلى حديقة جافة لم يصمد فيها إلا الجهنمية ، بأشواكها الصلدة ، وجذعها المقدد الذى يحايل وردات صغيرة على البقاء . يعب مثل جمل عجوز لا تقوى قدماه الطويلتان على حمله ، مختال رغم أنفه بطلعته التى يهابها الصغير والكبير ، مركزاً النظر إلى البعيد ، رغم العصا التى تسنده ، عبر الدهليز الذى لم يكف فيه صوت مدشة الفول عن جلد الصمت . انتبه إلى تراكم الزمن الذى عشش فى الأمكنة ، رغم محاولات التجميل ، ولاحظ الكلبة الوالدة فى بئر سلم الفيلا الصغيرة التى كان يستدرج فيها الضباط الفلاحين ، لكى يجبروهم على الاعتراف بضرب قوة البوليس أيام الحادث الكبير . تذكر تحديه للحكمدار رأفت قاسم ، الذى نتج عنه وقفه سنة عن العمدية ، ودخول الهجانة البلدة . غمغمت الجراء العمياء، وهى تفلفص متزاحمة على أثداء أمها الراقدة على جنبها تمتص حلماتها بشراهة ، والكلبة ساهمة تقطر عيناها رقةً وصفاءً أباحا للحنين أن يعبث فى عقله على مهل . تجنب المناطق العالية المقلقة فى الطريق الذى دهسه آلاف المرات ، عبر الباب الخشبى الكبير ، وتمهل فى الساحة المربعة التى تفتح على الزريبة يميناً والحرملك يساراً ، وألقى بنظرة طويلة إلى الجاموس المسترخى أمام الطوالة ، يهش الساعات والذباب بذيله ، وسمع صوت حفيده علاء ، وحيد ابنه عبد الحميد شهيد ١٩٦٧ ، يغنى فى زريبة الغنم:

سح يابا دح .. . يا خروف نطاح

وقف يلتقط أنفاسه ، ويتأمل علاء الذى انتبه لجده فجاء يركض ، واحتضنه من ساقيه ، دافناً رأسه فى جسده الكبير . دمعت عينا طه ،

جففهما بمنديله بسرعة . سبع سنوات منذ رحل عبد الحميد ، وولد علاء له بعد شهور من استشهاده . أخرج من جيبه نقوداً معدنيـــة كثـيرة ، ووضعها فى كفه ، وفتحها ليأخذ منها علاء ما يشاء . فـــرح الطفـــل ، وكـــبش بأصابعه الرفيعة ما يستطيع ، ثم ركـــض إلى خـــارج الـــدوار ليشترى كراملة . واستدار طه مع الطريق ، وعبر الباب الأوسط الـــذى كان بشير القهوجى يعلق فى فتحته العلوية الحبل ، ويربطـــه فى الهـــلال ويتسلقه حتى يفتح السقاطة، ويدخل إلى روايح خادمتهم ، منتهكاً حرمة الدار وهم نائمون . بشير الذى لم يظهر له أثر منذ هدنة ١٩٤٨ حـــتى الآن ، و لم يعرف لماذا يتذكره الآن ، شحذت حواسه الخمســـة للرؤيـــة فقفزت إلى ذهنه ومضات من العمر . خف إلى حوش الدار متتبعاً رائحة الشياط التى تفوح من رأسه ، وعبر الفناء ، فلم ير وديدة ، جلس فـــوق المصطبة بجوار باب المطبخ . رآها ، خارجةً من غرفة اللبن ، حاملة صحن قشدة :

ــ مرحباً ، العشاء جاهز ، شهلى يا صبحية ، حضـــرة العمـــدة وصل .

ــ لا ، أريد فنجان القهوة أولاً .

ارتكن على الجدار الخشن المدهوك بطمى النيل . استدارت لتعد له القهوة بنفسها ، مدد ساقيه للأمام ، شعر برأسه يتثـــاقل ، عـــدل مـــن جلسته، ليريح الفقرة المتعبة فى منتصف عموده الفقرى ، والتى كثيراً مـــا يفشل الحزام الصوفى فى كتم وخزاتها . تذكر الثور الهائج الـــذى أوقفـــه يوماً، وتسبب له فى الألم مدى الحياة . لم يندم، عبره واتكأ فوق حاشية صغيرة من وبر الجمل . تطايرت أمام عينيـــه نجـــوم صغـــيرة مضيئـــة ،

وفراشـــات بيضاء ، رفت مع رموشه بسرعة ، ورقصت مهفهفة . سرى سائل ساخن اتخذ طريقه من رأسه إلى أعضاء الجسم ، دثره بهدوء لذيـــذ وممتع ، استسلم له ، فلم يسمع قرقعة وقوع الإبريق و"الطشتية" [2] مـــن يد صبحية ، حين جاءت تقدمه إليه مع الصابون ليغسل يديه قبل العشاء، ولا نداءها :

ــ الحقيني ياستي !!

ولم يشعر بدفء صدر وديدة وهى تحتضنه ، بل مـــال معـــها، واستقر كما أرادت له فوق المصطبة الطينية التى يغطيها كليـــم صـــوف عتيق، حتى حمله الرجال إلى غرفة راحته فى الشكمة ، على بعد أمتار قليلة من مجلسه اليومى ، ومن مكتب أبيه حيث استشهد عبد الحكيم . ولمـــا جـــاء الطبيب ، قال إنها جلطة سريعة فى المخ ، أنهت حياته فور تكونها . دخل عبد الله إلى أمه فى الحرملك حائراً ، لا يعرف كيف يخبرها ، باغتته قائلة :

ــ راحت دولتنا يا عبد الله .

انكفأ على آلامه .

خرجت القرية كلها تودع طه . لم تبك وديـــــدة ألم الفـــراق ، أرجأت الحزن حتى يمر الحفل كما يليق به . تذكرت أم طـــه ورحيـــل زوجها ، طلبت نحر أكبر ثور فى الزريبة ليكون رفيقه فى ليلـــة وحدتـــه الأولى . ذبح لحظة اجتيازه لباب الدوار للمرة الأخيرة، ووقـــف أهـــل المنتهى صفين على جانبى الشارع ، ليفسحوا الطريق للأغراب لوداعـــه .

---

[2]) الطشتية : تصغير الطست بالعامية .

طار النعش ، ورفرفت أجنحة الملائكة صانعةً موجات من الريح المعطر بالياسمين ، وانشغل أهل الدوار باستعادة حلم وديدة الذى حمل النذر ، واكتشفوا أنها ليست الوحيدة التى تنبأت به هذه المرة ؛ إذ تكرر الحلم مع أربع غيرها ، اثنتان من بناتها قمر ونازلى ، ولبنى ابنة رشدى وخطيبة عاطف ، وأخته نعيمة أيضاً . وانشغلت القرية تستعرض حياته ، مآثره وانكساراته، تذكروا والده الحاج عبد القادر المصيلحى ، وكيف كان منعماً وكريماً ، وكيف اختار طه العمل والتجارة طريقاً مغايراً لرغبة أبيه . تذكروا حادث أبو مندور ، ووقْف طه عن "العُمُدية" . تذكروا جلسته فوق الحجر بجوار حائط الدوار فى الهواء الطلق . تذكروا رفضه لكل المشروعات الجديدة التى جاء بها عبد الله ، وتساءلوا إن كان عبد الله سيبدأ فى بناء المزارع بعد أن أصبح الأمر كله فى يده . وسرت همسات خافتة تحسب ثروة طه.

وقبل أن يطلع النهار ، كان الفلاحون يقسمون أنه يمتلك جراراً من الذهب الخالص مدفونةً فى سرداب تحت الدوار ، وأن الأيام القادمة ستكشف حجم هذه الأموال ، فلن يصبر أولاده على تخزينها طويلاً . وعرفوا أن عصراً جديداً قد بدأ برحيله ، وناموا وهم يتمتمون : الكبير كبير ..

وسهرت العاملات أمام الفرن ، يخبزن العيش الخاص وأقراص الرحمة التى احتاجت إلى ثلاثة أرادب من القمح ، ولم تتوقف الأبقار والجاموس عن الحلابة ، حتى انتهى العجين ، ثم عجزت عن إدرار اللبن أسبوعاً كاملاً بعد ذلك .

صحت عصراً بعد أن نامت ساعتين كاملتين فوق قبة الفرن الـــتى حمتها لتبدد البرودة قبل أن تصعد إليها . اعتادت أن تحميها ليلاً ، لكنـــه الفراغ . لم تجد ما تفعله بعد أن أذابت حبوب العدس الأصفر ، وهرستها وعصرتها وحمَّرت لها بصلةً فى الزيت ، ثم دشدشت الخـــبز اليـــابس فى الماعون قبل أن تغرفه عليها . لم يبق لها سوى أن تأكل خليطها الساخن ، لكنها نقلتـــه من فوق وابور الجاز ووضعته أمامها دون أن تمتد يدها إليه، ثم أقنعــــت نفسها أنها لابد آكلةً ، فأكلته . لم تكـــن فى حاجـــة إلى مضغه ، فالعدس أذاب الخبز ، وسهل زلطه ، ومع هذا تلكأ فى ســـقف حلقها ، وبين شدقيها الخاليين من الأسنان . فككت الحـــرارة تشددهـــا ومللها من الحياة . استراحت فعـــرف الطعـــام طريقـــه إلى بلعومـــها ، وانفتـــحت معدتها الصائمة لتتلقفه ، بلعت ريقها ، والنحلـــة تـــزن فى رأسها : وماذا يتبقى لى فى نهارى ؟ هشت النحلة بيدها من أمام عينيـــها اللتين فقدتا قدرتهما الأولى ، ومدت يدها بالملعقة إلى الصحن تنقل مـــن "الفتة" إلى فمها ، توالت الدفعات حتى استراحت فنعست .

بدد النوم ساعتى القيلولة ، فماذا عن باقى النـــهار ؟ قـــررت أن تذهب إلى الغيط لتحضر حزمة بقدونس . مشت على مهل فـــوق أرض

زلقة تفوح منها رائحة التراب ، حيت كل من قابلته فى طريقها بهزة من رأسها ، وكلمة واحدة : "العواف" . كانت قد اعتادت الصمت ، فتغضنت حواف فمها وظهرت حوله "الكشكشة" كأنها تزمه عامدة ، حتى لا يُصدر صوتاً . لفت الخضرة بطرف طرحتها السوداء الطويلة طوال الطريق ، فلما وصلت دارها تحت المكبة مع قطعتى الجبن القريش ، وبقايا العدس والبصل ، وبركت أمام باب الدار فى الهواء الطلق فوق حصير صغير متآكل الحواف . حصرت أيام وحدتها بعد أن سافرت وديدة أم عبد الله لتعاود جرّاحاً فى القاهرة ، لم تتعد الأيام إصبعها الأوسط ، لكنها كانت أقوى من أن تحتملها . اعتادت فى هذا الوقت بعد أن تصحو من القيلولة أن تذهب إليها فى الدوار ، وأن تجلس معها ساعات العصرية وأن تسامرها ، بعد أن اختفى زمن الضجيج ، وفرغ الدوار من أهله . تزوج الصبيان والبنات ، وأصبح الدوار "ينش" طوال الأسبوع إلا من زائر يمر كل حين إلى أن يأتى يوم الخميس وتتجمع العائلة .

كانت مثل وديدة لا تعرف الاختلاط بالغير ، والزيارة هى للواجب فحسب . لم تجلس فى المغارب أمام الدور مع الفلاحات، ولم تذهب إلى النهر لتغسل الأوانى معهن ، ولم يكن لها غيط لتُفلحه . انقضى العمر وهى مشغولة بعائلة المصيلحى ، ومع الوقت التزمت بعاداتهم ، وكادت أن تنسلخ عن عاداتها . حتى عندما كانت تستحم عند الفجر فى النهر قرب أعواد الغاب ، اختارت مكاناً محدداً يعرفنه جميعاً ، فلم تحتله إحداهن يوماً ، ولم تنتظرها جارة أو صديقة لتحمل عنها ملابسها حتى تنتهى . كانت تحمل صرة الثياب النظيفة ملفوفةً بدثار أسود ،

تعلقها فى طرف بوصة قوية ، ثم تنزلق إلى الماء ، وتخرج منه متطهرةً قبل أن تهتز الفروع المجاورة ، أو تعلن الريح عن وجودها . اعتادت جاراتها صمتها ، وعزلتها ، وكن يحيينها فى ود دون اقتحام ، إذ كانت لا ترد لإحداهن طلباً ، وتوصل رغباتهن ، واحتياجاتهن لأم عبد الله ، فكن يقصدنها إذا ما أردن شيئاً من الدوار .

ولدت أمينة لأب غريب ، والمنتهى لا ترحب كثيراً بالغرباء، حتى لو جاء أحدهم ، وعاش فوق ترابها سنوات طويلة . والزمن لا ينفى اغترابه ، ولا يعطيه حق الانتماء ، حتى وإن تزوج من بناتها ، فهى تنظر بعين الريبة لهذه الزيجة ، ويتساءل أهلها فى لياليهم الطويلة تحت ضوء فوانيس الجاز بدهشة : لماذا وافق الأب، ألف كانوا يتمنون ابنته ، حتى لو كانت زرقاء ومقشفة ، وكشف الزمن عراقيبها ، وكل فولة ولها كيال . عمل أبوها عبد العال القناوى شاويشا فى مركز البوليس ، واستقر سنوات تزوج فيها أمها ، ثم رحل إلى عمله فى مركز آخر ، وتباعدت بالتدريج زياراته للقرية ، وأشيع أنه متزوج فى بلدته من أعمال الصعيد. وفى إحدى زياراته لزوجته فى المنتهى توفى ، واشتعلت المناقشات ، هل يدفن فى القرية أم لا . وارتاح أهل المنتهى لقرار الرجل الذى كان قد أبلغه لزوجته بأن تعيده إلى موطنه ، فمن غير المقبول أن يدفن وسط عائلة المرأة . وهناك اكتشفت الأسرة أنها لن تستطيع الحصول من ميراثه ـــ مع كثرة عياله ـــ على ما يسد رمق الزوجة وابنتها ، فعادت ولسان حالها يقول إن الرزق على الله . وانكفأت الفتاة الصغيرة تربى ابنتها بمساعدة أبويها حتى صارت الطفلة صبيةً يميزها هدوء وعزوف عن لهو نظيراتها من

البنات . ورغم اليتم وصفاتها الحميدة التى شاعت فى القرية ، إلا أن إقبال الخُطَّاب عليها كان قليلاً ، فلما بلغت الثامنة عشرة دون زواج ، وأصبحت فى العرف عانساً ، زوجتها أمها من مراكبى عجوز يمر فوق النهر أمام المنتهى لنقل الفول والحبوب من المنيا . ماتت زوجته ، وتزوج أبناؤه ، ولم يختلف حظها كثيراً عن حظ أمها ، إذ ترك لها صبيّاً لم يكمل الثانية من عمره ، والمركب هى كل ما يملك ، والأولاد يعملون فوقها . ذهبت إلى العمدة تسأله كيف تحصل على حقها ، فتحدث طه إليهم ، وبعد مفاوضات، حكم لها بثلاثين قرشاً عن كل نقلة، وثلاثين أخرى لابنها ، والنقلة تستغرق شهراً كاملاً .

احتارت أمينة ، كان هذا أقصى ما يمكن أن تقدمه لها أسرة زوجها ، ولم تكن تستطيع العمل فى البيوت ، ولم تعتد نساء المنتهى العمل فى الترحيلة ، والموسم ليس موسماً لجنى أى ثمار ، فماذا تفعل ؟ عادت إلى بيتها ساهمةً غارقةً فى الحزن . تفتحت أمام عينيها صور للفقر كثيراً ما تكررت حين يموت العائل ، وتنحدر الأسرة إلى متاهة الحاجة. مرت الساعات ثقيلةً حتى سمعت طرقات فوق بابها ، وفوجئت بالعمدة يدخل إلى دارها المقابلة لدواره ، ووراءه فطوم تحمل قفة فوق رأسها وطفلاً يلف ساقيه حول وسطها ، بوغتت ، قال لها وهو يجلس فوق المصطبة ويعطيها ابنه :

ــ أم عبد الله بين يومها وليلتها ، ولا تستطيع رعايته ، وأنتِ خير أم له .. أريد أن يقضى ابنى نماره لديك حتى تشد أمه حيلها ، وتعيديه لها

بعد آذان المغرب .

قالت أمينة باكية : رهن إشارتك يا حضرة العمدة .

قال : أنتِ ابنتنا ، وكان أبوك صالحاً يرحمه الله .

ثم قفز واقفاً وغادر الدار ، تاركاً الطفل معها .

عاشت أمينة فى كنف الدوار وحماية أهله . تـــأتى فى الصبـــاح لتحمل الطفل ، حتى تربى أبناء العمدة جميعاً بين يديها . وبعد وقتٍ قصير أمسكت مفاتيح البيت ، وعرفت أســراره ، وأدارت حركة الخـــدم ، كما أشرفت على كل المناسبات الســعيدة والحزينة. وكـــانت رفيقـــة الأبنـــاء فى زيجاتهم ، وميلاد أبنائهم ، ولعبت دور عسكرى المراسلة لدى كل فتاة تغادر الدوار إلى أهل زوجها حتى تستقر الأسرة الجديدة . وتربى ابنها فى مدرسة الصنائع ، وتخرج وترك القرية إلى مدينة المحلـــة حيـــث مصانع النسيج ، وكون أسرة بجوار عمله إلى أن جاءه عقـــد عمـــل فى العراق فسافر ، وتركها ترعى أيام الوحدة .

انقضى العصر سريعاً ، ودخل المغرب يفتح الباب لليـــل طويـــل حالك ، لا تضربه رياح لكن تســكنه برودة شديدة . دخلـــت أمينـــة لتلحق بالصلاة ، ثم تكومت فوق المصطبة تبحلق فى الســـقف . نـــامت طيورها وسكنت إلا من حركة ناعمة لطير ما زال قلقا يرتـــب مكانـــاً لراحته . أسندت رأسها للحائط ، وقعت عيناها على الطاقـــة ، زمـــت جفونها تستطلع الجدار الخشن ، منذ زمن نسيت أن تملّسه بالطين حـــتى تشقق ، وخرجت منه أعواد القش ، وبانت عراقيبـــه ، وآثـــار الريـــح والحرارة ، وتساقط المطر ، وجفاف البرودة . رحل شبابه مع شبابهـــا ،

فكانا أشـــبه بكائنين خرجا من طينة واحدة ، ونضجـــا معـــاً فى فـــرن واحد، من ينظر إليهما فى هذه اللحظة يعرف حقيقة أن الله خلق الإنسان من صلصال . صلصال ثابت ، واقـــف ، لم تنفخ فيه الروح ، وصلصال حى فى الفراغ . دققت النظر إلى الطاقة فرأت شيئاً يتحـــرك . تـــردد فى عقلـــها سؤال إن كان هناك فأر يختبئ ! لكن الفأر لا يســـكن جحـــراً عالياً كهذا ! ربما يكون ثعباناً ! لكن الثعبان يتدلى من القـــش ، فـــهل يسكـــن الطاقة ؟ ومتى حفر جحره دون أن ألاحظـــه ؟! زادت زمـــة جفنيهـــا ، مرقت ســـحابة غطت بصرها ، تضاربت الجفون بســـرعة حتى أزاحتهـــا ، اتسعت الرؤيا ، وتحركت خطوط توســـع لنفســـها مكاناً فى الجدار الطينى ، تخلقت حتى صارت طفلاً صغـــيراً فى حجـــم الكف، طفلاً غير منفصلة أعضاؤه ، ملتصق ببعضه ! جنـــين !! تعـــالت ضربات قلبها ، وانفرطت دموع ناعمة على الوجه المتغضـــن . قـــالت بصوت سمعته كل الكائنات حبيسة الدار : لقد دفنتك منذ زمن نســـيت عـــدد سنينه !! بكى الجنين ، ورغم لهفتها ، والحب الذى سال يفتـــح كل شرايينها ، ويتدفق فى أوصالها، لم تستطع القيام لتحتضنه ، ولم يخرج الطفـــل من مكانه ، مســـحت أنفها السيال بطرف كمـــها ، وهـــى تجهش حتى شـــعرت بحركة فى جدار آخر ، سرى داخلها بهدوء الخوف الموجع ، التفتت نحوه، كان جنيناً آخر يفسح لنفسه مكانـــاً ليـــبزغ . تذكرته على الفور ، كان حملها الذى نامت على ظهرها كـــل لياليـــه ، لكنه لم يقاوم ، وخرج من جسدها مندفعاً كبركان منفجـــر . صـــامت بعده عن الطعام أياماً ثلاثة حتى كادت أن تـــذوى ، وأجبرتهـــا أمـــها بمســـاعدة الشيخ عيسى أن تفك صيامها لأنه تصرف ضـــد إرادة الله ، يومها أعطاها حكيم الصحـــة برشاماً بلعته حـــتى لا يطـــرد جســـمها

الأجنة، لكن الجسد اللعين لم يقبل الاحتفاظ بالطفل حتى يكتمل. وأعطاها العطار أعشاباً كانت تسلقها وتبتلع منقوعها المغلى المر على الريق دون جدوى، والأجنة تتساقط مثل أوراق الخريف. لكن خريفها يأتى كل فصول السنة، والجدار كل شهور ثلاثة أو أربعة يحمل قطعة لحم بشرية جديدة. والسنوات تمر، وهى تعرف الأماكن، وترتبها، ولا تنسى أبداً وتفتح حفرة على جنين، بل تمتد يدها إلى مكان نظيف لم يسكنه أخ أو أخت من قبل، وتحفر لتخبئه.

تحركت الأجنة كلها دفعةً واحدةً، تحول الجدار إلى بيت حى للنمل كشف عنه الغطاء الترابى فجأة، اقشعر بدنها، ونمت البثور عليه بسرعة. باتت أشبه بمريض خارج لتوه من معركة مع الجدرى، شعرت بحركة فى جسدها. دبت الحياة فى كل قطعة من بدنها على حدة، وتحركت كل واحدة فى اتجاه منفصل كدوائر الزئبق، ثم عادت واتصلت كهلاميات المستنقعات فى البرارى المتوحشة البعيدة. الكل أطراف، والكل جسم، اتصال وانفصال، اتصال وانفصال دائب. لم تعد تدرى الفرقَ بينها وأجنتها. خافت والتصقت بالمصطبة، حفرت قطرات العرق خطوطاً فى تغضنات بشرتها، تحولت الحوائط إلى عيون، عيون ترتعش وتبرق بالحياة.

قالت: دفنتكم فى الحائط حتى لا تتخطاكم والدة أو مطاهر وتنكبس وتيبس فيها الحياة، والإخصاب، أو أكون سبباً فى قطع لبن الإرضاع عن وليد فى شهوره الأولى، وتتألم أم أو تدعو إحداهن علىّ بضياع صحتى. شلت همى فوق كتفى، وحملته للحائط فى دارى وأمام عينى. لم أنسكم أبداً، تعبت من العد، فكففت عنه، ولم أعد

أعرف كم مرة تساقط منى لحمى !!

ابتسمت الوجوه حولها فى كل الأركان ، وتحركت الجدران الأربعة نحوها فى خطوات واثقة . احتضنها الجميع بدفء لم تشعر به أبداً طوال حياتها ، حتى فى وجود ابنها الوحيد سالم ، الذى رزقت به بعد طول عناء، وعندما كان أطفال المصيلحى عمدة المنتهى يملئون الدار .

انتعشت الحركة في الدوار صباح الخميس . مسحت صبحية الغبار من فوق الأثاث في الغرف المفتوحة للاستعمال ، بعد أن أغلقت معظم أجنحة الدوار ، وأبدلت ملاءات الأسرَّة ، وتأكدت من وجود أغطية كافية لها انتظاراً لوصول العائلة .. ثم نزلت إلى الحرملك . اصطدمت بأكوام التراب الجافة التي يلقيها متولى فوق أرض الحوش الزلقة لتمتص الماء ، وتغلق الحفر التي ولدها المطر . اختبرت اختمار العجين الذي أعدته مع وديدة في الصباح الباكر ، فلما تأكدت من فورانه أشعلت الفرن . خرجت ستيتة من غرفة اللبن حاملة فوق رأسها "طشتية" الخضراوات التي اشترتها من سوق الأربعاء ، تمشى كالبطة تضغط على قدمها اليسرى فتميل كتفها ناحيته ثم تنقل الحركة إلى القدم الأخرى ، وتسحب معها الجسم إلى اليمين . بدت للجالسين مثل مخرطة ملوخية تتكتك برتابة محببة. منتفخة باللحم و الشحم مثل جوال قطن طرى ، تلهث مقطوعة النفس من المشى خطوات قليلة حتى وضعت حملها أمام وديدة على المصطبة ، و بركت على الأرض بصعوبة ممسكة بركبتيها و هي تتألم . ضحكت صبحية زوجة ابنها قائلة :

ــ شحَّرتى ؟! قومى يا ولية اعملى حاجة نافعة فى نهارك ، قرصى

لنا الرغيفين ، الشاروقة حميت ..

ابتسمت فظهرت السنتان الأماميتان الباقيتان فى فكـــها الأعلـى تضغطان على نظيرتيها فى الاسفل ، و انكمش وجهها مثل ياى ليزيد من بروز أنفها الذى يشبه ثمرة الكمثرى ، وقالت وهى تفرز الخضروات :

ــ اعملوا أنتم .. شبعت الأرض من دوى حركتنـــا .. شـــهلى وهاتى لنا طبق عاشوراء من يدك الناشفة هذه .

قالت وديدة لصبحية :

ــ قلبى القمح على النار وانتبهى لرائحته ، ودسى محـــاشر الأرز وراء العيش . فضوها قبل ما يضحك علينا النهار .. اسم الله الأولاد على السكة الآن .

تأملت ستيتة المكان حولها ، وضغطت الكلمات ضاحكةً وهـــى تتأوه :

ــ أين الشغل ؟! انتهى الشغل و انتهينا معه .

قالت أمينة ، وهى تضع الطيور فى قزان كبير فوق الكانون:

ــ يوم صحة .. ربنا يبارك ، ويداوموا على الزيارة بدلاً مـــن أن تتكومى فى ركن ، ولا من يسأل عن صحة سلامتنا .. ناوليني يا صبحية العجين ..

تأملت وديدة السُّباط فى الطوابق الثلاثة التى تفتح علـــى الحـــوش وســـط الحرملك ، لاحظت تكسر عدد من القلل الخشبيـــــة فى ســـور الشـــرفة العلوية التى تستخدم أحياناً لنشر الغسيل ــ أثناء الأفراح والعزاء

ــ رأت الباب الموارب المنكفئ فوق الأحجار ، وقد تآكلت مفصلاته ــ تذكرت أنها تريد أن ترسل للنجار ــ مسحت بعينيها البناء ، الفطر يلتهم الجير من فوق الجدران التى لم تطل منذ سنين بعيدة . شعرت بخشونة الأخشاب وبهتان لونها . اختفت بعض قوالب القرميد ، فبدا سور السطح الداخلى من وراء الشرفة مثل عجوز سقطت أسنانه . تناثر القش واحتل المساحة كلها ، وعششت أزواج العصافير واليمام بين فتحات الدرابزين . سكن الصمت السطح الذى كان يعج بقنانى الطيور على أشكالها، وكان ظهور وديدة فيه للحظات كفيلاً بإحداث ضجة يسمع صداها كل من فى الدوار ، تحيط بها الطيور من كل ناحية، وتزعق طالبةً الحب من يديها ..

لم تعد قادرةً هى أو خادماتها على الصعود إلى الطابق الثالث ، نقلت العشش إلى الفناء ، واحتل بعضها غرفة أم طه التى كانت ترتاح فيها أثناء النهار .

اختفت شجرة الجهنمية المتسللة من الحوش عبر الطوابق كلها ، واختفت معها أصص الزهور التى كان يجلب الجناينى شتلاتها أيام أم طه ، وكانت وديدة تحرص على استنبات بذور الريحان فيها وتزين به غرفتها .

تنهدت أمام شرفة الطابق الثانى المغلقة ، تركت بصرها يبث الحياة فى ذكرياتها . منذ استشهد عبد الحكيم الأخ الأصغر لطه زوجها ، ورحلت زوجته الفرنسية مارى إلى بلدها مصطحبة طفلتهما الوحيدة ، عديلة ، التى لم تأت لزيارة المنتهى إلا مرة بعد أكثر من عشرين عاماً من الحادث ، فتحت فيها بيت أبيها ، ومرت به بسرعة لا تكفى كى تبنى معه أواصر محبة ، وخرجت إلى أحضان عمها طه لا ترغب فى

البقاء فى المكان المعبق بذكرى الدم والرحيل والاغتراب .

ما زال الطابق مغلقاً من ناحية الحوش ، رغم أن إسماعيل تـــزوج فيه، إذ سعت زوجته سوسن إلى العزلة مـــن اليـــوم الأول لوصولهـــا ، وظلـــت وديدة تقاوم الانقسام حتى استسلمت فى النهاية، بعد أن جاءها إسماعيل يطلب فتح باب جانبى فى ردهة السلم ، كى تستعمله عائلته دون المرور بوسط الدوار ، قائلاً لها :

ـــ اشتريت دماغى يا أمى ، وبلا مشاكل .

لم تفهم وديدة أبداً غيرة سوسن من اهتمام العائلة بليلى أرملة عبد الحميد ، تصورت أن استشهاد ابنها ، تاركاً جنيناً فى بطن عروسه ، لابد أن يحنن القلوب على الأرملة المكلومة التى وهبـــت حياتهـــا لطفلـــها ، ورفضت الزواج . لكن سوسن لم تكف عن المشاكل فى كـــل زيـــارة لليـــلى، ثم مدت هذه المشاكل إلى باقى العائلـــة ، حـــتى نجحـــت فى إجبارهم على مقاطعتها .

قالت وديدة لنفسها : "يكون الجمال أحياناً نقمةً ، لا نعمةً!"

استعادت وديدة بصرها الذى يتلطـــع فـــوق الجـــدران الملتهبـــة بذكريات موجعة ، لكنه ساهاها وسرح إلى الطابق الأول المحتفظ بنصف حياة خافتة ، بعد أن أغلق جناحه الأيمن الذى سكنه حماها الحاج عبـــد القادر وعائلته لسنوات طويلة ، ثم زوجوا فيه حيدر . تذكـــرت إقبـــال زوجته التى رحلت أثناء ولادة ابنته بيللا ، وحيرة حيدر حتى زوجته أخته نعيمـــة لكريمان ، ورحيل العائلة كلها إلى القاهرة بعد ذلك . اعتصـــر قلبها ألم يأتيها كلما وقع بصرها على الشقة المغلقة التى شهدت فيها أجمل

ذكرياتها مع أهل زوجها .

رحل الصبيان والبنات ، وتفرقوا وراء الرزق . اكتفت وديدة بشقتها الصغيرة . لم تعد فى حاجة لأكثر من غرفة نوم واحدة لها ، والثانية لمن يأتى لزيارتها من الأبناء ، وصالة بسيطة للمعيشة . أغلقت المقاعد المطلة على السُّباط ، تفتحها للنظافة صباح يوم الخميس إستعداداً لوصول أبنائها وعائلاتهم ، ونعيمة أخت زوجها التى تحرص رغم وهن عافيتها على الزيارة كلما استطاعت .

حاربت وديدة الفناء الذى يسكن الجدران ويعيش فى الأمتعة قدر ما تستطيع ، هى ومساعداتها اللاتى وهَنّ معها ، حتى عجزت عن إدارة الدوار ، فأغلقت معظم أجزائه تدريجياً ، ولم تسلم الفيلا الصغيرة التى استقبلت منذ بناها طه فى الحديقة الخارجية مبيت الأغراب ، وفتحت لتحقيقات البوليس فى حادث أبى مندور من الإغلاق . الشكمة هى المكان الوحيد فى الدوار الخارجى الذى بقى مفتوحاً ، وإن أصابه الشلل التام . فقدت بريقها القديم وألقها منذ بناها القاضى المصيلحى الكبير كى يستقبل فيه مريديه ، وأحاطها بحدائق تصل إلى النهر ، ثم حولها ابنه عبد القادر عمدة المنتهى إلى قصر فاخر ، تحتل الشكمة فيه جزءه الأمامى الذى شهد بذخه وزيارات أغنياء الناحية وعلمائها، وعاصرت حكمة طه واستشهاد عبد الحكيم برصاصة فى مكتب أبيه ، بعد عملية انتحارية أداها هو وجماعة اليد السوداء ضد الإنجليز ، فتعقبوه ومشطوا القرى المحيطة ، وأشعلوا النيران فى كثير منها ، مما اضطره للانتحار حمايةً لقريته وأهله من بطش ذوى الوجوه الحمراء .

شهدت الشكمة التى تآكلت ستائرها الحرير ، وخفتت ألوان

الرسوم فوق جدرانها ، عزلة طه الطويلة بعد رحيل الضجيج وتقدم العمر. أُغلقت حجرات النوم بها ، وتركت مائدة الطعام التي كان يلتف حولها ثلاثون تشكو الوحدة والتقشف ، وتحفرت أرضية الشكمة الرخام وتقلقلت بعض أجزائها بفعل الرطوبة والزمن .

مكان وحيد لم يجرؤ أحد على إغلاقه هو غرفة المكتب . حرصت وديدة على أن ينظفها صادق القهوجي بعد أن اشتكى البطالة من قلة الضيوف ، ثم يعيد فرش الكرويتات فى شرفة الشكمة استعداداً لاستقبال زوار إسماعيل .

سرحت وديدة مع الطريق الخارج من الحرملك إلى الدهليز والمخازن والزرائب التى احتفظت بمواشيها . شاهد وحيد على العز القديم. اختفت الخيل من الإسطبلات . ولم يبق فيها غير "كارِتّات" متقادمة تجرها البغال ، أغلقت مخازن الغلال على القليل الذى يكفى العائلة ، وتحولت مخازن الفول التى كانت تخيف الحمائم بأصوات المدشات إلى مخازن للمركزات وأعلاف الدواجن الحديثة التى تأتى بها العربات من الميناء مباشرة ، أو من المصانع خارج المنتهى . فلما زاد ضجيجها نقلت إلى البناء الصغير الذى كان يضم أيام العمدية السلاحليك ، وغرفة التليفون والجراج ، وأضيف إليه صف من الغرف عزلت الحديقة المطلة على النهر عن الشارع الرئيسى . وامتد بجوارها سور من النباتات موازٍ للنيل ، توقف عند شجرة شعر البنت وخميلتها التى يرقد تحتها قارب راضى الصياد . وغيَّر هذا التشكيل من جغرافية المكان ، وأوجد مساحة نصبت فيها كارويتات خشبية أُطلق عليها البورصة ، يجتمع فيها مربو الدواجن مساءً ، للقاء التجار القادمين من البلاد

الأخرى، ويحددوا فيها سعر اليوم ساعة بساعة .

اختلفت ملامح القرية كثيراً منذ اللحظة التى دخلت فيها الدجاجة البيضاء ، التى تجن وتنمو فى شهر ونصف بدلاً من ستة أشهر كما كـــان يفـــعل أسلافها . بنى الفلاحون مزارع صغيرة فوق أسطح البيوت الطينية تضـــاء لها الأنوار ليلاً ، فتحول ليل القرية الساكن إلى نهار لـــه طنـــين يفوق النهار الربانى . هربت الذئاب من القرية واختفت الثعالب ، وأصبح ظهور ثعلب أو ذئب كفيلاً بإطلاق ضحكة طويلة تمسح المكان الـــذى أوشك أن يخرج من الحواديت .

كررت أمينة مناداة وديدة بصوت عال لم تسمعه . اقتربت منـــها وسألتها : خبزنا العيش . ندخل الطيور الفرن ؟

انتبهت وديدة من استغراقها الطويل ، وقامت تدور معهن حـــتى أتممن مهماتهن ، وزعيق الأطفال وركضهم يملأ فضاء الرواق. يتسابقون حتى ارتموا فى حضنها ، وانتعشت حوائط الدوار بارتعاشة فرح ، حـــتى خيل لوديدة أن القش المدهوك بالطمى ينبض ، وأن البناء الوقور الأشهب تخلى عن تزمته ورزانته، فتبادلت معه ابتسامةً فهماها معاً .

لم يعرف أحد على وجه الدقة من الذى لاحظ أن قاع النـــهر ــ على بعد خطوات مـــن البورصة أمام الـــدوار ــ تسطع فيـــه جمـــرات ثلاث مشتعلة تثقب الليل بجسارة المحارب ، ثابتة ، تشع ضياءً ووهجـــاً كـــأنه قادم من نجمة بعيدة ، يومض بنبض يثير الحنين ويخز القلب ، ناعم كالحلم ، برىء ، ينفث النور ويرش السراب على المنتهى . تراه العيـــون القادمة على السكة فوق طريق المعاهدة، يراوغ المسافر حين يهبط مـــن القطار ، وينادى البعيد ، يلاعبه ، يثير فيه فضول الاكتشاف ، ورغبـــة معرفة المجهول ، يغويه أن يقترب أكثر فأكثر .

جمرات ثلاث فى قاع النهر ، الماء لا يجرفها . لم يظهر القمـــر فى تلك الليلة ، بحثوا عنه فى سمائه ، غاب أياماً ، وعاد صغـــيراً لا يعكـــس شيئاً. ازداد لمعان الجمرات ، تحولت إلى شموس صغيرة ، جلتها حركـــة الموج . برقت بومضات نارية وسط السواد المحيط ، تشمموا حضورهـــا الجليل وبهتوا . انتشر الخبر ببطء لا يناسب الحدث ، تحلق بعض الصبيـــة أمامها ورموها بحجر ، غاص بسرعة دون أن يهتز الوهـــج . رموهـــا ، ورمـــوها ، ضحكـــوا .. . قالوا هى جنية البحر جاءت للغواية متنكرة.

فى الزمن القديم كانت تتستر بالظلام عند الجسر العتيق قرب الساقية . زحف الضوء وحولت مزارع الدواجن ليل القرية إلى نهار ، فأين تهرب ؟ وكيف تستدرج شاباً والنور الساطع يحرقها .. ؟! ربما تسكن الماء الآن ، ربما هى النداهة ..

ـ ابتعدوا .. ابتعدوا .

قالت عجوز واقفة لم ينتبه أحد إلى ملامحها ، وأضافت :

ـ هذا نذير .. انتم لا تعلمون شيئاً . هو إعلان من النهر برحيل ثلاثة من كبار القرية . كان هذا ما يحدث فى الزمن القديم قبل أن يفسد الزمن ، وتسكن قلوبكم الغمامة . لا يرحل عظيم دون نبوءة .

قال طارق مندور : سأغوص فى الصباح لأستكشف الأمر.

ضحك علاء المصيلحى بحماس : وأنا معك .

هز وائل منصور رأسه متحدياً : إن كانت بأحدكما قوة لاختراق الماء فى مكان كهذا !

قال طارق وعلاء معاً : غداً نرى !!

ضحكوا ورموا الأحجار .

تململ الجالسون فى البورصة ، والشبان يعيدون الحكاية . حسبوا الأسعار ، ونصف آذانهم تعى ما تردد عن الجمرات ، لكن أحداً منهم لم يتحرك ليرى . أجلوا اليقين إلى أن تنتهى أشغالهم ، رغم بقايا دبيب الميراث العتيق الذى ينغبش فى الصدور ، ثم نامت منتهى نصف إغفاءة

يقلقها الحنين . لكنها لم تكن نفس القرية التي كانت منذ سنوات قليلة تنام أكثر ، وتتكلم أكثر ، وتحب وتحلم .

ذاب وهج الجمرات مع أشعة الفجر ، واختفى مع وخزات الظهيرة الهادئة . احتار الشباب ، أين مكانها ، وتساءلوا إن كانت هى قطع مرايا أو معادن مدفونة ، انجرفت مع حركة الموج ؟! لكنها عادت لتسطع مع الغروب . سكبت شروقها ببطء استلزم ساعات الليل ، وقفوا أمامها مترددين : هل يترلون الماء فى العتمة؟ وجلسوا ، رغم الهم لم يتذكروا ملائكة النهر ، ولم يفكر واحد فى استئذانها كما اعتاد الأقدمون . رتبوا أحجاراً تشير لها ، وعادوا فى الصباح ، مشوا فى طرقات القرية مستعينين بإشارات غامضة همسهس أرواحهم . تبختر شاب أسمر مختال بعضلاته أمام بؤرة بزوغها ، انتظر أن يتجمهر الرفاق حوله . لم يسأل نفسه كثيراً عن المصير الذى ينتظره ، تحت اللجة المرتعشة بريح الصبح . ترددت فى صدره أبيات كان قد قرأها لويتمان تقول :

ليس من مستهل أفضل من مستهل اليوم

ولا من شباب أو عصر

ولن يأتي كمال كالذى هو الآن

ولا جنة أو نار

الاندفاع ، الاندفاع ، الاندفاع للعالم

أبداً هو الاندفاع الولود .

خلع طارق مندور الجلباب ، وثبت بصره إليها بعينين والهتين ، ثم قفز مرحاً سعيداً ، بعد أن عبر وجوه الرفاق بزهو .

سكت الجميع فجأة . انقلب يقين شبابهم المتقد حماساً إلى خوف، ألجم ألسنتهم ، وغلف قلوبهم بستار الصمت . خرج باسطاً ذراعيـــــه ، صارخا بفرح :

ـــ لم أجد شيئاً .

اندفعوا يتصايحون :

ـــ انزل مرة أخرى ، ابحث جيدا فى الطين .

تجمع أطفال الناحية وشبابها ، ووقفت بعض النســـــاء يســـتطلعن الخبر، وتلطع عدد من الفلاحين كانوا فى طريقهم للحقول . وضع فمــــه فوق الماء ، ونفخ بأصوات متقطعة :

ـــ وووووو .. .ووو

كسب القلب الصافى معركة الخوف ، مع وخزة جــــاءت مـــن أعمـــاقه تحثه على التراجع . أشرق وجهه ، وهو يخترق الماء الثقيل المحمل بالطمى مرة أخرى ، وخرجت قدماه ترفرفان كل فى ناحية ، ثم انزلقتا ، واختفتا تحت اللجة . مر الوقت دون أن يتبادل واحد النظر مع زميلــه ، ظنوا أن دقات الساعة فى قلوبهم قد عطبـــت، إلى أن شــاهدوا يديــه المحملتين بالطمى مندفعتين تطرطشان الماء ، ورأسه ينتفض ويقول لاهثاً :

ـــ حتى سمكة صغيرة لم تمر من هنا !

خلع الأطفال ملابسهم ، تصايحوا ، قفز أول صبى دون أن يعبأ ببهتان خطوط قلم الكوبية التى خططها له أبوه فى الصباح على جسده، ووراءه الجميع . اختفى الخوف ، وتعالت الضحكات والقفشات :

ـ حاسب من الجنية يا جدع !

لعبوا حتى شبعوا ، وملوا ، ثم ركضوا عرايا فوق الجسر ، حتى عفر التراب أجسادهم فى محاولة لتضليل الأهل ، وإخفاء خبر استحمامهم فى النهر .

عادوا فى الليل . تحداهم الشريان العنيد ، وسطعت فوق وجهه أقمار ثلاثة صغيرة.، برقت كحبات لؤلؤ فى صدر أميرة ، نفثت أشعتها فوق الماء الأخضر الزيتونى الذى يميل إلى السواد بسرعة .

ضربت القرية أخماساً فى أسداس ، وشككوا فى صحة نزول الفتى إلى الماء ، ونقلت العجائز الخبر إلى الرجال العائدين من المصانع فى المدن المجاورة ، وقلن لهم أن خمسين شاباً مسحوا النهر ، وأنهم استعانوا بمركب كبيرة يستريحون فوقها كلما تعبوا من الغوص ، وأنهم كادوا أن يقلبوا قاع النيل ، كما تقلب الأم جوارب ابنها المتسخة لتغسلها ، وأنهم حرثوه حرثاً ، وأنه لو كانت هناك آلات فى مدن أخرى تستطيع تصفية الطمى ميكانيكيا لجلبوها ، وأن ذلك كله سيجلب الخراب على القرية التى لا تتعظ .

وأضافت عجائز الدواوير الكبيرة والقصور ، فى الناحية كلها ، شماتةً عجيبةً ، قائلات أن الخراب آت لا ريب فيه ، خاصة أن الشباب يكسبون جنيهات كثيرة ، ويأكلون لحوما ، ودجاجاً ، وفاكهة ، وهى

أشياء كانت تؤكل فى المواسم وبيوت الأغنياء حتى وقت قريب ، وأن نور الكهرباء الذى يطل من منازل القرية طوال الليل ، والذى غمرها بنور ينافس الضياء الربانى كى تربى الدواجن بالطريقة الجديدة . كلها أسباب تستدعى نذير شؤم، وأن النذير جاء عبر النهر ، فليتقوا الله وليعودوا إلى سيرة حياتهم الأولى !!

لكن كلمات العجائز لم تجد صدىً لها غير بسمات فوق شفاه النساء والرجال على السواء . حتى الأطفال الذين عشقوا حكايات أمنا الغولة وطاقة عم متولى والشاطر حسن ، والوابور المولع وحمار أبو صالح ، لم يعودوا يجلسون فى أحضان الجدات ، ولم يأبهوا بما قلن ، وأصبحت الحياة الجديدة أهم لديهم من عالم الجن والسحر والخوف، وهم يعرفون الآن كيف يحسبون النقود ، ويقايضون على ساعات العمل ، ويعرفون أيضاً كيف يحكون حكاية الثلاث جمرات وهم يضحكون

قطع عبد الله المصيلحى الطريق من المنتهى إلى البحيرة فى زمن لا يصدقه كل من عرف عن عبد الله التمهل والاتزان . حاول السيطرة على أعصابه ، وهو يفكر أنه ورط قريته بكاملها فى هذه اللعبة التى قال عنها أبوه أنها لعبة قمار ، تكسب فيها كل شىء أو تخسر كل شىء . كان مثل طه حاد الملامح ، لكنه ورث شعراً أحمر مجعداً من جده عبد القادر ، وانتشر النمش على بشرة وجهه التى لوحتها الشمس . وعلى عكس طه الذى يربك محدثه ، إذا ما نظر إليه ، يبعث عبد الله فيه الهدوء، والثقة ، بعينيه المسالمتين الصافيتين ، فى لون البندق . لم يخطر على باله أن زيارته لصديقه فرغلى النادى ـــ فى أحد الأيام ـــ ستحول مسار المنتهى ، وتنقلها ، ربما إلى الأبد ، إلى عالم آخر لا رجعه فيه لكل ما اعتادوه على مر العصور ، منذ أقام أول رجل عشة بجوار النهر فى هذه البقعة من الأرض . تلك الزيارة التى شاهد فيها مزرعة الدواجن البيضاء لأول مرة فى حياته ، وعرف أنها تنمو فى خمسة وأربعين يوماً فقط ، وأنها تعطى ربحاً وفيراً ، فطالب صديقه بمشاركته فى بناء مزرعة فى المنتهى قائلاً:

ـــ طوال حياتى أتمنى إقامة مشروع ، يشدنى إلى المنتهى ، بدلاً من

الركض وراء الرزق فى البلاد ، مع شركة الوادى للمقاولات .

لكن فرغلى اعتذر بضيق وقته قائلاً :

ـــ اقبل ضيافتى حتى تكتسب الخبرة فى إدارة المزرعة ، ثم ابنِ وحدك مشروعك .. .

عاش عبد الله فى البحيرة شهراً ونصف الشهر ، وتردد عليها شهراً آخر أسبوعياً ، حتى تم البيع ، والتطهير ، وإدخال كتاكيت جديدة . عندها قرر مفاتحة أبيه فى بناء مزرعة ، اختار لها أرضا بجوار جرن القمح ، لكن طه فاجأه بالرفض :

ـــ لن نبيع "فراخ" فى آخر الزمان .

استعان عبد الله بأخوته الذين أعجبتهم الفكرة لإقناع والده ، لكن طه لم يتزحزح عن رفضه . وتعجب الجميع لان طه هو الذى أدخل الزراعة المتطورة إلى القرية ، وبنى فيها مناحل العسل وعصارات الياسمين ، وجلب لزرائبها سلالات ممتازة من المواشى ، وعاش يتابع كل جديد فى تهجين النباتات . ولم يفهموا أبداً سر الرفض ، وهم يعلمون دون مناقشة التفاصيل مع أبيهم أن الأرض تخسر منذ عجز طه عن إدارة عمالها ، وحددت الحكومة أسعار بيع المحاصيل ، وأجبرتهم على توريدها للجمعية ، وأن التجارة هى التى تعوض ما ينفق عليها .. فلماذا التشدد إذن ؟!

لم ييأس عبد الله من استمالة أبيه ، ورفض نصيحة أحد الأصدقاء بشراء أرض لمشروعه ، حتى رحل طه ، فبنى مزرعته الأولى ، وتبعه أخوته . وقلدتهم القرية بكاملها ، وأصابها سعار البناء وهى ترى دورة

الإنتاج السريعة والربح الكبير ، حتى جاء يوم ضحت فيه المنتهى بكروم العنب ، وحدائق المانجو ، التى زرعتها أثناء الحرب العالمية الثانية. اعتمد الفلاحون على تجربة عائلة المصيلحى دون أن يحسبوا حساباً لمخاطر هذه التجارة ، و لم يخطر على بال أحدهم أنه سيواجه مأزقاً كالذى يواجهه اليوم ، بسبب توقف أكبر مصانع العلف عن الإنتاج لصيانة آلاته، وتأخر وصول شحنات فول الصويا إلى الموانئ .

نعق الرعب فى سماء القرية . رقصت السيارات فى الطرقات بلا هدف . اجتمعت فى لحظة أمام البورصة ، ثم انتشرت واختفت فى المزارع والأزقة ، ثم عادت إلى التجمع فى البؤرة لوهلة ذابت بعدها فى المدى .

وقف إسماعيل المصيلحى فى المخزن يشرف بنفسه على تحميل عربة نقل صغيرة بأجولة العليق ، بعد أن أمر بتخفيض الكمية فى كل جوال إلى النصف . تبدل إسماعيل كثيراً بعد موت طه ، وتحمل مسئوليةً لم يتوقع له أن يتحملها . وكانت وديدة كلما رأته مهموماً بأمور العمل ليل نهار ، تتذكر قول طه : "فى الحياة انقلابات يا وديدة . قوانين الدنيا لا تقف عند التراكم وحده ." لم تفهم أبداً رنة الحزن فى صوته ، ولم تعرف أنه يحمِّل نفسه جريرة موت أبيه . هو وحده الذى عاش تلك اللحظة الرهيبة غير المتكافئة . هزمه طه ومات ، لكنه كشف عن أصالة ما ، دفينة ، لمعت فى لحظة الاختيار ، وقدمت نفسها بقوة صهرته "تركته حياً" يقول لنفسه ، ثم يضيف :

ــ لكنه مات بعد ساعة ، فمن قتله ؟

يختنق صوته : لو يعود أبى ويسامحنى ؟

هو سامحنى . نعم ، سامحنى ، قال أريدك رجلاً .. سأكون هذا

الرجل ، فيرتاح فى قبره .

تقول وديدة لنفسها "ليت إسماعيل يستعيد مرحه ، وحتى نزقـــه ، ما بال رجال هذه العائلة يشيخون فى صباهم ؟!"

توقفت سيارة فارغة أمام المخزن ، ونزل ســائقها حســين أبــو كحيلة، وبادر إسماعيل بالحديث :

ــ وزعت العلف على المزارع فى حوض رميح ، وفى البر الثانى ، وسأذهب بكميه أخرى إلى غرب البلد ، وإن كان العليق لن يحتمــل فى كل عنبر أكثر من ساعتين .

ــ تأكد يا حسين بنفسك انك لم تنس عنبراً واحــداً صغــيراً أو كبيراً . الجميع فى خطر ، وكله فى رقبتنا .

ــ ألم تصل أخبار ؟

ــ لم يصلنا شىء بعد .

ساعد السائق العمال فى نقل الأجولة إلى سيارته ، وانطلق مسرعاً نحو الغرب . نظر إسماعيل إلى ما تبقى فى المخزن ، وقال للعمال :

ــ ستموت الكتاكيت فى المزارع إذا بقينا على هذا الحال ، دون وصول معونة حتى الصباح .

دخل منصور فزعا : اعطنى أى شىء فى عرضـــك يـــا ســيدى إسماعيل!!

ــ روّق يا عم منصور . استلم نصف جوال ، وإذا وصلـــت أى كمية سأرسلها لك فوراً ، حمل الحمار يا إبراهيم لعمك منصور .

دمعت عينا الرجل ، وخرج وراء حماره . تلطع عدد من الشباب بجوار المخزن لا يعرفون ماذا يفعلون ، وعامل التليفون لا يكف عن طلب الاستغاثة من الشركات . ساءت الحالة فى الغروب . عاد زوج أخته فريد شوكت باتفاق مع شركة على إرسال عشرين طناً بعد يومين ، ولم يتمكن من استلام أية كمية تبل الريق . ودفعت لهم بنورة ثمن عشرة أطنان لدى إحدى الشركات فى القاهرة ، على أن ترسل بمجرد وصول الشاحنات من الميناء . وصل حلمى مع سيارة محملة بأربعة أطنان سمك، ولحق به عادل بن فريد شوكت ، وبصحبته سبعة أطنان ذُرَة صفراء . وبقيت مشكلة فول الصويا ــ الذى يخلط معهما ليشكلوا العلف ــ لم تحل .

عاد كل من وصل لركوب سيارته منطلقاً إلى مدينة أخرى . علق التوتر بأجواء القرية ، مثل عنكبوت يحكم مد نسيجه الترابى فوقها . تعلقت آمالهم برحلة فريد شوكت إلى دمياط لشراء مركزات رغم غلاء ثمنها ، لكن الساعات مرت دون أن يُسمع منه أى خبر ، حتى فرغت المخازن من العليق تماما .

وقفت أم السعد تراقب الدجاج وهو يلتهم آخر الحب فى العلافات. لعنت اليوم الذى باعت فيه مصاغها ، وأنفقت نقود تحويل البنك ــ التى أرسلها زوجها محروس من العراق ــ على بناء المزرعة فوق السطح ، وركضت إلى البورصة فوجدتها خالية ، ولم تجد أثراً لجوال واحد فى مخزن إسماعيل . سألت العمال فأخبروها أنه ذهب حالاً إلى مزرعته عند العيون . راحت تركض ، وهى تتلفت وراءها ، علها تلمح سيارة تقلها هذين الكيلومترين ، حتى وصلت إليه ، مقطوعة

النفس، فوجدته حائراً أمام مزرعته الخالية من الطعام .

سألته جزعة ، وقد تبخر آخر أمل لها :

ـــ هل نتركهم يموتون أمامنا دون أن نفعل شيئاً ؟ مـــالى ومـــال عيالى ، وغربة محروس .

انخرطت فى بكاء مر ، وهى تخفي وجهها بطرحتها السوداء . قال إسماعيل :

ـــ اذهبى مع السيارة إلى الدوار ، سيعطيك حسين نصف جـــوال ذرة صفراء . أطعميهم وربنا يفرجها .

قفزت إلى السيارة غير مصدقة ، تستحلفه أن يعينها ولا ينساها .

انتصف الليل ، وتجمع الفلاحون فى البورصة يفكرون دون نتيجة. علا أزيزهم وهم يقلبون الأمر : هل يعقل أن تكف أكبر المصـــانع عـــن الإنتاج ، ويتأخر الشـــحن فى المطارات والموانئ معاً . كيف اجتمعـــت كل أسباب النحس فى لحظة واحدة ؟!

قال طارق مندور : من يعلم إن كان هذا بالصدفـــة ، أم بتدبـــير أحد المستوردين ، حتى يولع النار فى السوق .

تصاعد صوت ياسر الفحام : أرواح يا عالم . أرواح خفيفـــــة ، ألعن من الأطفال . من يجرؤ على اللعب فيها ؟

قال فرج أبو شعيشع : طوِّل بالك .. فرجه قريب .

وصل عبد الله المصيلحى إلى المنتهى بعد أن انتصف الليل بساعة ، جالباً معه ســـيارةً من مخزن صديقه فرغلى النادى فى البحيرة . خايلـــــه

تحلق الناس حول شـــىء لا يتبينه ، حتى توقف أمام البورصة ، وعـــرف فيه السيارة التى دفع ثمنها فى الصباح وهى تفرغ حمولتها للمربين . عـــلا صياحهم عند رؤيته ، فرحين بازدياد الكمية ، لكن إسماعيل قال حاسمـــاً الأمر :

ـــ نصف جوال لكل مزرعة صغيرة وجوال للمزرعة الكبـــيرة ، ننقذ الدجاج حتى الصباح ، وبعدها ربنا يفرجها .

تقبل الفلاحون الأمر على مضض ، وانصرفوا ينقلون العليـــق إلى مزارعهم . وصل فريد شوكت بالمركزات مع خيوط الفجر ، وفوجـــئ الجميع بزيادة سعرها غير المتوقع .

تكاتفت القرية أمام الخطر : فى البداية أغلق كل واحد مخزنه على ما عنده ، ومع اشتداد الأزمة ، سرحت الأجولة تتنقل من مكان لأخـــر لإنقاذ "المحصول" من الموت ، ووصل الأمر إلى المواجهة ســـاعةً بســـاعةٍ لكسب وقت إضافى ، تكاتفوا ، فلم تشعر القرية بالفرق بين صـــاحب المزرعة التى تربى ألف كتكوت والتى تربى مائة ألف ، فالكل سيخسر كل ماله .

تناقشوا طويلاً فى البورصة ، كيف يجلبون فـــول الصويـــا ، ولم يغمض لهم جفن وقلوبهم متوجسة من الآتى .

وصل الحاج بشير بسيارة تجر مقطورةً كبيرةً محملة بفول الصويـــا من الإسماعيلية فى منتصف النهار ، واشـــترى من إسماعيل الذرة الصفراء، والسمك . لم يتذكر إسماعيل فى هذه اللحظة حـــادث هـــروب بشـــير قهوجى العمدة من الدوار فى الثالثة صباحاً عارياً ، بعد اكتشـــاف أبيـــه

تسلله إلى الحرملك واعتدائه على خادمتهم روايح ، واختفائه لسنوات عن البلدة ، عاد بعدها فوق سيارة تويوتا مرتدياً زى كبار المعلمين فى السوق . ولم يسأل إسماعيل نفسه من أين أتى بشير بكل هذه الأموال ، ولقب الحاج الذى لا يعرف أحد إن كان صحيحا أم لا ؟!

نزل بشير يخلط العليق مع العمال بنفسه ، ويبيعها للفلاحين بأربعة أضعاف السعر . انفرجت الأزمة قليلاً بوصول عشرين طناً أخرى ، ووصلت سيارات التجار الأغراب ــ الذين جذبتهم الأزمة ــ تحمل العلف بثلاثة أضعاف السعر ، اشتراها الناس مضطرين ، مضحين بالمال ، ومدركين لحجم الخسائر التى ستنجم عن زيادة التكاليف إلى هذا الحد. قال منصور :

ــ كله إلا الموت .. خسارة خسارة .

ثم بدأ التذمر والتردد من الشراء بالسعر الجديد الذى يضارب عليه بشير والتجار الأغراب مع خفوت الأزمة . وسكنت القرية روح أخرى مع وصول أنباء عن نزول الطائرات ، محملةً بالفول ، وبقرب تدفق الإنتاج فى المصنع الكبير . ولاح فى الأفق للمرة الأولى منذ أيام ، أمل فى الراحة بعد التعب .

انتهت الأزمة ، لكنها فجرت فى البورصة أسئلةً كثيرة ، كان أولها: لماذا ننتج شيئاً يعتمد على الغير ، فنكون تحت رحمته ، ورحمة سماسرة استيراد أىٍّ من مكوناته ؟

وراح الكل يفكر فى بديل ، هل هو البط ؟ أو الأرانب ؟ أو منتج آخر ؟

قال عبد الله ضاحكاً : الثعالب ، أحد الكبار يربي الثعالب لكـــي يبيع فراءها ، ما رأيكم ؟

سكون مفعم بحيوية ذبذبة خافتة لكائنات غير مرئيـــة امتلكـــت المسرح وقت أن كَنَّت الأحياء الأخرى ، تســـتمتع بحريـــة الوجـــود ، وتترقب فترة الصحو القادمة . صدرت الحركة الأولى مـــن وراء بـــاب الشكمة فى دوار طه المصيلحى عمدة المنتهى السابق . صوت هزيل منظم لقدمين اعتادتا الحياة العسكرية . خرج محمود المصيلحى وجلس فـــوق الكـــراويته يستقبل الغروب قبل وقته بزمان . يعشق هـــذه اللحظـــات الهادئة ، وينسحب إلى داخل نفسه كأنه ما قام من نوم القيلولة بعـــد ، يستكمل اجترار ما فات دون كلل ، لا يعرف واحد من أهل الدوار ، أو الأصدقاء إن كان يعى ما يجرى أو لا يعى . لا يعرفون إن كانت كلماهم ومداعباهم له تصله ، أم أن هزة رأسه تلك تأتى مـــن ضجـــره بهـــم . فشـــلت كل محاولاهم لإعادته إلى المرح أو المشاركـــة فى أى عمـــل أو حتى فى الحـــوار ، يحتفظ فى ذاكرته لكل منهم بجملة واحـــدة لا غـــير تختصـــر علاقته به ، يقولها فوراً إذا ماباداْه أحدهم بحديـــث ، وتتكـــرر كلما التقيا ، ولا شىء غير الصمت . وحين يتأكد الجميع مـــن غيـــاب عقله عنهم ، يفاجئهم بتعليق يحمل بـــؤس الحكمة ومـــرارة طريقـــها . تقول أمه وديدة : "انكســـر يا حبة قلبى .. حزين اتركوه لحاله" . فـــإذا

جادلها أحدهم تضيف : "حزين على نفسه ، على أحواله ، على أحوالنا .." ، تحميه من التواصل معهم ، وتنصرف به أحيانا لتجالسه فى مكان منعزل . هى الوحيدة التى صدقت أنه يعى كل شىء ، كانت تعرف هذا من نظرة عينيه ، لا تزعجه بكلمات كثيرة ، لكنها توصل له ما تريد باختصار فينفذه على الفور . لم يقدر الأبناء هذا أبداً، وكثيراً ما حاولوا إقناعها بأنه لا يفهم ، لكنها كانت تطلب منهم الانصراف إلى أشغالهم وتجلس إليه تشكو همومها ، ثم تربت على كتفه فيقبل يدها شاكرا بهدوء . حرصت وديدة رغم وهن عافيتها على جلب ملابس جديدة أنيقة له ، تساعده على ارتدائها بنفسها إذا عزف عنها . كانت هذه هى نقطه الخلاف الوحيدة بينهما ، إذ تبدلت أحواله بعد الحادث ، وأصبح زاهداً فى كل ما كان يحبه . تستشعر فيه إحباطاً تحاول أن تخفى إدراكه عن الآخرين ، وبؤساً يحمل آلاماً غير بشرية تتمنى من كل قلبها أن يفصح لها عنها ، وتدرك تمام الإدراك أنه لا يستطيع الآن . راهنت بكل قدرتها على استشراف الآتى ، والامتزاج بعناصر الكون حولها ، على لحظة قادمة يستطيع فيها التغلب على كبريائه والاعتراف بالهزيمة ، لكى يبدأ من جديد. وانتظرتها بصبر عرف عنها مدى الحياة . تمنت فى أوقات كثيرة أن يكون زوجها طه عمدة المنتهى على قيد الحياة ، حتى يساعد محمود على اجتياز أزمته ، "لو كان طه حياً لعرف كيف يضع يده على الجرح ويفتحه ليجف ، ما عهدت خبرته عند مخلوق قط . كيف كنت ستواجه هذا الموقف يا طه ؟

علاقة الأبناء ببعضهم تختلف كثيراً عن علاقة الأبوة، رغم تربيتنا لهم على الحب ، هرستهم زحمة الحياة . كلمتك يا طه كانت ستنزل علينا جميعاً مثل سيف يحدد دور كل منا تجاهه ، خلق محمود سياجاً من الصمت منع

الاقتراب منــه ، مسافة خدعت أخوته فظنوا أنــه تائــه ، واسـتكانوا للتفسير الأسهل ليريحوا ضمائرهم" .

تتذكر فى وقت أخر عجز طه عن منع أخيه رشدى من الابتعــاد إلى الخارج ، بعد أزمة سلاح الفرسان ، واختلاف وحدات من الجيــش مع عبد الناصر ، ثم تركه للجيش نهائياً بعد ذلك : "رشدى ومحمــود لا يختلفان كثيراً ، كأن محمود هو ابن رشدى وليس ابن طه ، ماذا حــدث لى؟ كنت أتقبل الأمور حولى وأتكيف معها ، أين راحت قدرتى علــى التبسيط ، وانتظار الحلول من داخل المشاكل ؟ أصبحت أقل صبراً بعد أن قلت المسئوليات وكادت أن تنعدم ، محمود فى حاجة إلى معجزة وهــى ليســت كثيرة على الله وإلى أن تأتى هذه المعجزة ، لا بــد أن تبقــى صورته كما كانت دائماً ."

تقول عمته نعيمة أم حلمى ، حين تراهــا منهمكــة فى ترتيــب احتياجات زهدها الرجل من زمن :

ـــ ما فائدة كل هذا الهندام لكى يجلس فى الشكمة يا وديدة ؟!

تبكى الأم مدافعة :

ـــ محمود هو محمود ، الله يجرى .ولاد الحرام .

تسلل طفلان من أحفاد طه المصيلحى حافيين إلى شكمة الــدوار الخارجى ، التى كانت تعج قديماً بزوار العمدة ، وفضا سكونها بحــذر . رأياه من فتحة الباب الموارب . كانا قد درســا عاداتــــه ، وقــررا أن يعرفــا ما يخبئ ، بعد نقاش طويل انتهيا إلى أنه لابد قد تصالح مع الشبح الذى يعيش فى المكتب ، حيث استشهد جدهم عبد الحكيم . قــررا أن

يختبرا ردود أفعاله ، ربما أجابا على الأسئلة التى لا تستطيع العائلة أن تصل إلى حل لها :

هل هو راغب فى الصمت ؟ أم إنه لا يدرك ما يدور حوله ؟ باختصار .. هل هو طبيعى ؟ وإذا كان طبيعياً ، لماذا لا يعمل ؟ لماذا لا يدير أملاك أبيه ؟ أو يدير شركة ، والضباط الآن يديرون كل المؤسسات؟!

كان واقفاً أمام موقد صغير يغلى قدر الحليب ، ويعد الشاى بنفسه فوق صينية فضية عليها فنجان ذو تلبيسة من فضة أيضاً . أخرج من الدولاب بقسماطات خشنة وقراقيش فى طبق بجوار البراد ، وجلس يتناول إفطاره وحيداً ، فوق الطاولة التى كانت تعج يوماً بضيوف جده الحاج عبد القادر . جفّا من الخوف وهما مقرفصان تحت الطاولة حين هم بالوقوف ، ثم ذهب إلى غرفته . تحركا بحذر لكى يواجها الأحداث . أخرج من درج المكتب علبة ورنيش ، ولمع حذاءه بقوة ، ثم تركه يجف . ودخل الحمام حيث نقع بعض المناديل القطنية فى الليلة الماضية . وجد خنافس طافية فوق الإناء ، حملها من الماء إلى صندوق القمامة ، وأكمل غسل المناديل . نظر الطفلان إلى بعضهما ساكنين ، وهما يشاهدان حركته الهادئة فى التخلص من الحشرات التى وضعاها ، وأكمل عمله . ثم ذهب إلى حجرته ، وراح يرتدى الحذاء الذى جف طلاؤه . انتهزا فرصة انشغاله بارتداء ملابسه ، وهربا ، فوقع كرسى محدثاً ضجيجاً نبهه، فرآهما ، وهما على أعتاب الباب ، ثم ظهر أنيقاً فى الشكمة كالمعتاد حتى آذان الظهر . قام بعده إلى وديدة وجلس أمامها فوق المصطبة ، وهى تعد غداء العمال ، لا يتكلم . تجنبته

العاملات ، ودخلن إلى غرف المطبخ الداخلية يكملن العمل .

قالت صبحية لستيتة : هو قاعد لنا مثل العمل الرضى ، لا شغلة ولا مشغلة . ربنا يفوت الأيام على خير .

قالت أمينة : لمى لسانك إنت وهى ، شهلن .

قالت صبحية ضجرة : أنا قلت حاجة ؟ أنا غرضى المصلحة .

أجابت أمينة : طحين ما هو لك .. لا تحضر كيله .

صاحت وديدة التى لا تسمع كلماتهن ، بسبب ضعف فى أذنيها أصيبت به فى شيخوختها : احضرن صينية غداء .

دقت الواحدة حين جلس معها وحيداً يتناول الطعام . أخذ منها ما تقدمه ، لا يمد يده إلى غيره ، تابعته صامتة ، تملأ طبقه بما تشعر أنه يحتاج . تعرف رغباته طوال العمر ، تجهزها ، لا يسألها أبداً ، ولا يرفض لها طلباً ، ثم عاد إلى المكتب لينام قيلولته اليومية المبكرة .

كان صباح ذلك اليوم لا ينذر بشىء ، بل بدأ طبيعيا سلساً ، ومملاً أيضاً . ارتدى محمود "شورتا" ، أبيض نظيفا ، بعد أن تأكد للمرة الثانية من جودة كيه ، والتفت إلى المرآة مستطلعاً التناسق العام لزيه، اختبر مرونة الحذاء بالضغط على أصابع قدميه صعوداً وهبوطاً، ثم دقق النظر فى شاربه ، ورتب حاجبيه ، ومرر كفه اليمنى على ساعده الأيسر ، مطمئنّاً لقوته ، قبل أن يحمل المضرب ، والكرات الصغيرة . خرج من غرفة خلع الملابس ، متجهاً إلى الملعب ، ينثر قدمه أمامه فى دقات منتظمة ، عُرف بها مدى الحياة . طويل مفتول العضلات ، مصفف الشعر الأسود القصير دائماً ، وسيم ، قمحى

البشـــرة ، وله أنف طويل يميزه ، وعيون سوداء مستديرة ، يضيق بياضها بسوادها . ركض حول التراك عدة مرات ، وسخن عضلاته بتدريبـــات مرونة أنهاهـــا بسرعة ، مجففاً عرقه بمنشفة ، حرص على حملها حـــول رقبته ، محافظاً على حركة ســـاقيه المنتظمتين . فتح صدره ، وســـاعديه للهـــواء النقى ، ونظر إلى ساعتـــــه ، ثم اتجـــه مبـــاشرةً إلى ملعـــب الاسكواش فى موعده تماماً . حيا بعض رواد النادى بهزة مـــن رأســـه ، كالمعتاد ، حتى أن أياً منهم لم يلحظ تغييراً على هيئته ، ولم يتصور حجم التغيير الذى طرأ على حياته .

لم يكن فى انتظاره سوى الحوائط ، التى اعتاد أن ينازلهـــا بمـــهارة الخبير . رقص فى منتصف المسافة ، برشاقة غزال برى ، رغم ثقل جسده، وقذف بالكرة إلى زوايا محددة ، ثم راح يقلبها ، ويزيـــد مـــن صعوبـــة حركتها ، ثم يستعيد هدوءها . والسؤال حائر يتردد فى رأسه :

ـــ هل التقاعد هو نهاية المطاف ؟ أم يلفقون لى تهماً أخرى ؟! ·

عاد الصوت المنعكس من الحوائط إليه مردداً الكلمات .

ابتسم بازدراء : لم أكن أستطيع غير هذا ، حتى لو حاكمونى ألف مرة .

تنفس بعمق ، مدركاً الاعتداد بالنفس الذى يســـرى فى دمـــه ، وتلقى رد الحائط على قذيفته باتزان الخبير . داعبها بلمســـة روّضَتـــها ، فطارت خفيفة ، وحطت فوق كف المضرب ، ناعمة . أعـــادها مـــرة ثانية تتهادى ، ثم فاجأها بضربة مباغتة :

ـــ لم تخدعنى الحفاوة فى مكان ، أو التلويح بالعصا فى مكان آخر.

التناقض بيننا وصل مداه .

وصلت الكرة تلهث ، تلقاها بعنف ، وهو يكز علـــى أســـنانه ، محـــافظاً على ثبات ملامحه ، ثم أعادها للحائط مرات . جفـــف العـــرق الذى غطاه تماما ، وهو يتحرك ، ولا يترك الكرة التى فاجأته بانفجارها ، ووقوعها للمرة الأولى أمام قدميه ، مشـــقوقة البطـــن ، منحرفـــةً عـــن مسارها المتوقع . التقطها ، وضغط أصابعه فوقها ، ثم اســـتبدلها بكـــرة أخرى ، أخرجها من جيبه ، وعاد إلى مصارعة الحائط ، والكرة حـــائرة بينهما .

ـــ لم أكن فى أية لحظة مستعدًا للمناقشة . كنت أعرف حقيقـــة الصراع منذ عام ثمانية وأربعين .

نطط الكرة فوق الأرض مرات ، ثم أعادها إلى الهواء ، وهو ينظر إلى ساقيه المتبلتين تماما بالعرق .

ـــ لواء على المعاش ، فى مطلع الأربعين ، لا بأس .

استغرقه التفكير فى مصيره ، حتى لم يعد يرى الكرة ، تتبع مسارها من لمسة يده للمضرب ، من صوت ارتطامها ، محدداً زوايا انحرافـــها . وانتظرها فى مكان عودتها ، دقة لرد الفعل لا متناهية .

ـــ أحتاج إلى راحة .. راحة طويلة . للمـــرة الأولى سأســـتمتع بحياتى الخاصة . ربما أعود إلى المنتهى قليلاً ، بعدها أفكر فى المستقبل .

حرك رأسه يميناً ويساراً ، وهش الصور التى تلاحقت فى ذهنـــه ، وتابع الحوار مع الكرة . تسللت دقاتها إلى أعصابه فخدرتها ، وانســـابت

سخونة بطيئة تلفه .

ـــ لا بأس .

استعاد النشاط ، وأنهى الجولة بمعركة ، فاز فيها الحائط بقوة الصمود ، وفاز هو بالسرعة والمهارة التى يكتسبها فى كل لقاء . ألقى بجسده المنهك إلى الماء الساخن ، وتلقاه بهدوء ، وهو يردد هذه المرة بصوت مسموع :

ـــ لا بأس . سنرى !

اطمأن على أشيائه الذهبية : ساعته ، نظارته ، أزراره ، ونعومة قميصه الحرير الذى يبرز تقسيمة عضلات الكتف ، واتساع الصدر ، الذى ترك له زرين مفتوحين ، رغم لسعة البرد الخفيفة ، فظهرت سلسلة ذهبية ، تحمل دلاية محفور عليها اسمه . حمل البلوفر فوق ساعده، وانطلق بالسيارة ، حتى توقف أمام مدرسة ناصر ، وهو يردد مع الشريط ، "تامى بوركوا بارتيه ، تامى ريجارد موا" . أشار للحارس أن يحضر الطفل ، ونزل من السيارة ، وأشعل سيجاراً قبل أن يقرر عبور الشارع ، والتفت يضع القداحة فى مكانها . باغته شعور خفى ما بخطر قادم ، فاستدار ليواجهه ، لمحه ، وأدرك مصيره ، وهو يطير فى الهواء . وسمع قعقعة ضربات هائلة فى رأسه ، وخيل إليه أنه يتفتت ، ويذوب ، وهو يحاول أن يمسك بمقدمة السيارة ، والضوء يختفى ، تحت لهيب خارج من عينيه ، قبل أن يغيب عن الوعى .

لم يستطع أحد أن يحدد نوع السيارة ، أو رقمها ، رغم ضجيج

الشارع ، وسرعة حركته . وأقسم بعض المارة أنها لم تكن تحمل أرقاما على الإطلاق ، ولم يحددوا ملامح السائق ، وإنما انقسموا حول كونه رجلاً ، أو امرأةً ، وتساءلوا إن كان مخبولاً حتى يسير بمثل هذه السرعة فى شارع مكتظ بأطفال مدرسة . قال واحد أنه رأى السيارة واقفةً عن بعد، وأنها بدأت فى الحركة بمجرد ترجل محمود من عربته ، اختلفوا، وتركوا للبوليس قضيةً محيرة لم يستطع فى النهاية أن يحل لغزها أبداً .

عاش فى المستشفى العسكرى سنتين من الصراع مع مثلث مغلق : كسور فى الرأس أدت إلى إصابة مركز الذاكرة . وقرحة فى المعدة ، والتهاب كبدى وبائى ، نقل إليه عبر الدم المنقول.

قال الطبيب بعد أن أجرى عملية تربنة سريعة :

ـــ يهمنى المحافظة على حياته أولاً ، بعدها نرى كيف تعود الذاكرة .

خرج من المستشفى فاقداً ثلاثين كيلو جراماً من الشحم ، تكوين هرم ممسوخ لرياضى قديم ، يكشف عن عسكريته إذا وقف أو تحرك . طال شعره الأسود الذى كان حريصا على قصه بشدة ، وتفتحت بشرته عن بياض لم يعرف عنه طوال حياته ، حتى أن أخته كوثر حين عادت من السعودية علقت ضاحكة :

ـــ منقوع فى مترد لبن .

رفع إليها عينين صائمتين عن الكلام ، ولم يرد .

اعتاد أن يجلس بينهم متطلعاً إلى قدميه . مقوس الكتفين ، اللتين

كانتا تزهوان بقوة عضلاتهما ، صامتا . يرد حين تنهال عليه الأسئلة :

ـ لا بأس !!

اختار الدوار الخارجى مكاناً لمعيشته ، أصر على أن ينـــام علـــى (كنبة) فى مكتب أبيه المهجور . حاولت وديدة إقناعه باختيار إحـــدى غرف الضيوف الملاصقة له ، لكنه رفض ، فاضطرت أن تنقـــل ســـريراً خفيفاً ، وتضعه فى الركن المواجه للمكتب . عاش فيه لا يغـــير عاداتـــه اليومية أبداً ، يصحو مع نداء ديك الفجر ، يغتســـل بالماء البـــارد ، ثم يخرج إلى الحقول ، حيث الخضرة ، والخيل ، والركض فـــوق الطريـــق الترابى، الذى يوصل إلى جرن الغلة ، ثم يعود إلى اغتسال آخر ، وإفطار ، وصحف قابعة فى انتظاره ، ثم سكون فى الشكمة حتى يحين موعد الغداء. ولا يختلف نصف النهار الثانى كثيراً عن ذلك ، باستثناءات قليلة حـــين تأتيه وديدة تشـــكو له وحدتها ، ومتاعبها مع ابنها إسماعيل ، وزوجتـــه التى قسمت الدار دون سبب ، رغم أنها لا تنتظر أن يقول لها رأيـــاً ، أو يتحدث مع أخيه فى شئ ، وتكتفى منه بهزة رأسه التى تشعرها أنه ما زال على قيد الحياة . .

عاد اليوم من القاهرة بعد أن قبض معاشه ــ زيارتــه الشهريــة الوحيدة التي يغادر فيها الدوار ــ لم يجد وديدة فى انتظــاره كالمعتــاد ، جالسةً على المصطبة أمام المطبخ فى الحرملك ، فصعد إليها ظناً منه أنهــا مريضة ، اســتقبلته وحيدة ، وقد انتهت منذ دقائق من توديــع ضيفــة حملت رسالة من كوثر فى الســعودية . هزتها فرحة رؤيتــه أخــيراً فى المكــان الحميم . اصطحبته إلى جلسة العصر القديمة، حيث كانت العائلة تجتمع مساءً حول مشنّة ذرة أو أعواد قصب ، أو سهرات شتاء بجــول راكية النار فى العراء . افترشا حصيراً فوق السباط المطل علــى ســاحة الحوش الداخلى ، جلســا صامتين كل يتبتل فى عالمه المغلق . لحظة صفاء وسكون قلما يجود بها هذا الوقت من النهار . كف منذ الحــادث عــن الدخول إلى الحرملك ، والصعود إلى الطابق الأول ، والاختلاط بالعائلة . سألته عن رحلته، وصلتها الإجابة حدساً ، وليس صوتاً :

ــ لا بأس .. لا بأس .

أسلمهما الوقت إلى الصمت . هى وقد غاب عنها ضجيج العالم بعد أن راحت تفقد الســمع تدريجيًا ، حتى كاد يغلفها الصمم ، وهــو وقد غابت عنه رغبته فى الكلام . اكتفيا بما يشــع من كل منهما تجــاه

الآخر ، وانسحبا إلى عالمين داخليين منفصلين . تأملته "كيف انتهى بك الحال إلى السكون ، وأنت الذى جئت إلى الحياة صاخباً جريئاً فى العراء وسط المطر ليلة الغطاس ، والسماء تلح على الأرض بماء مدرار؟".. تذكرت ليلة ميلاده كأنها حدثت بالأمس .

التهب الطلق دون أن يدفع الجنين إلى الخلاص . حايلت الدايسة قنوع العظام التى تعودت أن تتفتح معها دون جدوى ، قالت جزعة والعرق يتصبب منها رغم البرد :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ، لم تعد لى حيلة ، لا بد من الطبيب.

يئس طه من وصول سيارة الإسعاف ، حمل وديدة ملفوفةً فى بطانية ترتجف من الصقيع فى الكارتة . ركضت الخيل على طريق المحطة ، ثم تعثرت فى العتمة وزلق الأرض التى كانت ممهدةً منذ أيام ، وتحولت بفعل المطر إلى أنفاق ، وحفر ، ثم هدأت حركتها وهى تتحسس دروب العجلات التى سبقتها ، متجنبةً أخدوداً طويلاً ، ومتعرجاً ، أشعل بطؤها سعيراً فى أفئدة ركابها . ووقف طه ممسكاً بالسوط ولسع ظهرى الحصانين ، لم تره وديدة فى حياتها يقسو على الخيل إلا فى تلك الليلة ، قائلاً للخفير بسيونى:

ـــ أسرع الله لا يسيئك ، أم عبد الله فرفرت فى أيدينا .

أجاب بسيونى بفزع : ليلة غبراء . المطر سيل ، وخائف الخيل تتزحلق ، السماء تقذف الماء "بالزِلَع" .

قلقلة العربة وهى تتمايل فوق قوالب الطمى المتعرجة رمت وديدة بين يدى قنوع ، التى لم تكف عن الإمساك بها فى حضنها ، وحمايتها

من الرجرجـة . التفت طه إلى وديدة التى تعانى من آلام الولادة العسرة، وقال:

ــ دقائق ، شدى حيلك ، سنصل حالاً إن شاء الله .

وقف مرةً أخرى ، ولسع الحصانين بغضب .

قال بسيونى : على مهلك يا سيدى . ستقابلنا عربـة الإسـعاف حالاً. المركز عنده خبر من ساعة .

ــ كيف أهدأ ، والبنت تروح فى شربة ماء .

مالت وديدة إلى الوراء ، وأمسكت بأعمدة السقف ، ثم مـددت ساقيها أمام مقعد العربة ، وصرخت :

ــ الحقينى يا خالة !!

انزلق الطفل ، فتلقفته قنوع بين يديها ، دون أن تلتفت للمطـر الذى بللها ، والربكة التى أحدثتها صرخة الأم ، وقالت :

أوقف الكارتة . جاء فرج ربنا .

أمسك بسيونى باللجام بقوة . أوقف الخيل ، فكادت أن تقـذف بالركاب إلى الأرض ، نط طه غير مصدق ما حدث ، وراح يحكم الغطاء حـول وديدة التى ترتجف بشدة ، دون أن يلاحظ المولود الذى خبأتـه قنوع فى حجرها ، تحت الشال .

ــ مبارك يا بنى ، مبارك ، تربيه فى عزك إن شاء الله .

قال بسيونى الذى جلس فى المقدمة لا يستطيع الالتفات ستراً لهم ،

وكله شوق لرؤية المولود :

ــ يابركة أم هاشم ، لن نحتاج إلى طبيب ولا ديـــاولو ، نرجـــع أحسن يا سعادة البك ؟

لم تصله إجابة . تردد فى السؤال ثانياً ، ثم قال :

ــ ما رأيك يا خالة قنوع ؟ نذهب إلى المستشفى ؟

تلفتت الداية حولها ، اكتشفت أنهم فى منتصف المسافة بين القرية والمحطة ، ما يزال الخلاص عالقاً فى الأم . لاحظت العتمة رغـــم ضـــوء الفانوس الصغير المعلق فى الكارتة ، وقوة ضربات الماء للأرض ، قـــالت ساهمة :

ــ يا ليلة ، انزل يا بسيونى بنا الجزيرة ، تحت شعر البنت هناك ، اعمل لنا دروة .. أنزل الخلاص ، وبعدها ربنا يفرجها .

أرقدت الأم الهمدانة ، وساعدتها على إكمال الـــــولادة ، حـــتى انتهت.

سألت وديدة بصوت واهن ، وهى تحاول النهوض :

ــ ولد صحيح يا خالتى ؟ لك الحلاوة .

ــ ولد يتكايل بالذهب ، حلاوتى قيامك بالسلامة .

مالت وديدة فوق صدر قنوع ، وراحت فى إغفاءة طويلة ، رأت فيها الوليد فى كفيها وســـط ريح تدور ، لكنـــها لا تُطـــيِّر ملابســـه ، وجاءها صوت الهاتف القديم الذى ما فتئ يُذكِّرها "ارضِ بنصيبيـــــك .. ارضِ بنصيبيك" ، لكنه هذه المرة قال لها :

ــ سوف يعيش ، آيتك ألا يرضع من ثديك . أرضعيه من نساء المنتهى ، كل يوم امرأة ، لا تنسى ، كل يوم امرأة !!

دارت الريح حولهما ، لكنها لم تطر ملابسهما ، ثم شعـــرا بهـــا ترحل. حين أفاقت كانت الكارتة تقعقع برتابة هادئة ، وهى تدخل إلى صحن الدار فى الحرملك ، وأم طه باكية تفتح ذراعيــــها لاســتقبال أم العيال، العائدة بسلامة إلى حضنها ، والزغاريد تنطلق ، وتلعلع فى سمــاء الدوار . بعد يومين ، خرجت أمينة وصيفة وديدة ، ومربية أبنائها مــــن الدوار حاملةً المولود ، ملفوفاً فى قمـــاط كســــتور أبيــض وبطانيــة مزركشة، منتهزةً فرصة الهدنة التى أعلنتها السماء ، وكفت فيها عن المطر لدقائق قبل أن تعاود قذف المياه بشدة لليوم التالى على التوالى . ســـرى دفء ما بين المطر ، كاشفاً صفاء الشتاء شديد الخصوصية فى المنتــهى . هواء له لسعة تحبها أمينة ، لكنها لم تلتفت إليها وهى تقبض بســـاعدها على الوليد ، وتتمتم بدعاء خافت أن يستجيب للرضاعـــة مـــن امـــرأة أخـــرى. طرقت باب أم هاشم ، والجامع يــــؤذن لصـــلاة العشـــاء ، وانضمت للعائلة الجالسة على المصطبة أمام راكية قوالح الذرة ، قـــالت وهى تدارى خجلها:

ــ حاولنا كثيراً ، لكنه رفض بعد يوم واحد ثدى مرضعته سكينة أم إبراهيم ، حايلناه النهار بطوله بالحلبة واليسنون والسكر ، بدون فائدة.

ضربت أم هاشم بكفها فوق صدرها :

ــ يا ندامة !! يا أمينة يرضع ويأخذ حبة عينى .

قالت أمينة : اللبن فى بز أمه يتكيل بالكيل ، وهو عاص ، لا كان

على البال ولا على الخاطر .

تناولت أم هاشم الوليد ، وكشفت عن وجهه ، فانبعثت رائحة الحلبة مفحفحة ، ومعها خليط من روائح الغلة ، والذرة والمغات ، وربما التبن أيضا . نكهة خاصة تجمع بينهم ، وتشعرهم بشئ من الألفة، قربته من صدرها وبَسْمَلَت . شعرت بلفحة من دفء أنفاسه فمسحت شعره القليل ، وراقبت عينيه المغمضتين اللتين لم يفتحهما ، وهو يتحسس بشفتيه الطريق إلى حلمتها ، حتى التقطها ، ثم انشغل بالرضاع . سرت فى جسدها قشعريرة من وخزاته الناعمة ، ولم تستطع أن تحول بصرها عنه . استسلمت لدبيب هادئ سرى فى دمها منسقاً نغماته مع إيقاع قلبها ، وقلب الطفل الذى ينبض فى صدرها اللحيم ، حتى اكتفى ونام .

شربت أمينة كوب الشاى المغلى بعد إلحاح .

قالت أم هاشم : رزقنا الله بهاشم بعد سنين نترجى الخلفة . اتركيه، سأرعاهما معا .

ردت أمينة وهى تحمل منها الطفل : أعود به فى الصباح ، كثر خيرك .

لكن الطفل رفض الرضاعة منها بعد يوم واحد ، واحتارت وديدة ماذا تفعل ، بعد أن قضت ليلةً أخرى ساهرةً تحاول تهدئته ، أو إشباعه بسوائل أخرى ، دون جدوى . وكان صوته الذى يشبه ثغاء عنزة ضعيفة يرسل الحسرة إلى القلوب المحيطة به . جلست تهدهده حتى غلبها التعب ، وأسلمها للنوم متقرفصة ، تهز ساقها من تحته . انتبهت فجأة ، بعد

صلاة الفجر بقليل ، إلى صوت فتحية تنادى عليها من وسط الدار ، أجابت ناعسة :

ـ تفضلى .

دخلت تحمل ابنها ، وتبسمل :

ـ أرسلتنى أم هاشم لكى أجرب معه ، وقد يستجيب ، لبن صدرى قليل ، لكن أنتِ عارفة أنه سر ، الله وحده يعلم ما يخبئه .

مسحت ثديها وألقمته له ، فاختطفه بنهم وجوع ، سحب قلبها، وتقاطر الحليب يوقظ الشرايين التى جفت ، فتفتحت ، وتدفق منها إلى النبقة الحمراء التى أشهرت رشاشاً قويًا ، اندفع إلى فم المولود ، وأشبعه، وسال يغطى وجهه كلما أشاح قليلاً ، يلتقط أنفاسه المتقطعة ، اغرورقت عيناها بدموع ، واهتز جسدها .

ـ كان ابنى عبد الرازق يصرخ جوعاً بعد دقائق من الرضاعة ، الآن عندى ما يكفى ويزيد .

انتشر الخبر بين نساء المنتهى : "محمود بن طه المصيلحى" لا يقبل الرضاعة من ثدى لأكثر من يوم واحد !!" . احتارت النساء ، وقلبن الأمر وهن يملأن الجرار من النهر فى الصباح ، وهن جالسات فوق الحصير أمام راكية النار ، وأيضا فى الغيطان ، وانتهين إلى أن يتبادلن إرضاعه مؤقتاً حتى يشبع منهن جميعاً .

قالت صبحية : ماذا سنفعل إذا مر علينا كلنا ؟ من أين سنأتى له بمرضعات ؟ هل ترحل به أمينة إلى العزبة ؟

قالت أم هاشم : يفرجها الله . نعيد رضاعته بنفس الترتيب ، ومن يعرف .. قد ينسى ، ويقبل !

يوقظهن من أحلى النوم هاتف يحثهن على الذهاب إلى الطفل . وكانت وديدة تفاجأ فى الليالى التى يصاب فيها محمود بمغص ، أو أرق، بدقات فوق الباب ، وتجد أمامها إحدى الأمهات جاءت رغم الظلام وليل الشتاء الطويل القارص ، وتقول لها :

ـــ جاءنى فى المنام من قال لى قومى اذهبى ، محمود يحتاجك .

كن يعرفن الطريق إلى مرقده فى الطابق الأول ، بعد أن خصصت له وديدة غرفةً تطل على ساحة الدار ، لتضمن دخول المرضعات إليها فى أى وقت دون إزعاج لزوجها وباقى العائلة . يحملنه ، ويرضعنه ، حتى ينام ، وتعود الواحدة إلى دارها وكأن شيئاً لم يكن . شهدت جلسات العصارى حكايات الوليد ، قالوا إنه يعرفهن ، ويهلل لهن ، وتحدثن عن بشاشته ، والرزق الذي جلبه لبيوتهن ، وأقسمت عمته نعيمة أنه انقلب على جانبه الأيسر ليلة السبوع ، وأنها أرجعته للنوم على ظهره فانقلب على جانبه الأيمن ، فصرخت تنادى وسط الدوار الذى امتلأ بالمهنئين : "الحقينى يا أمى ، الحقينى يا وديدة" ، فلما علمت أمها عديلة بالسبب لفت الطفل فى بطانيته قائلة : "صلى على النبى ، واكفى على الخير ماجور" .. وراحت تقرأ سوراً من القرآن للطفل الذى وضعته فى حجرها ، حتى أخذوه منها ليبدءوا احتفال السبوع . وأقسمت أم هاشم أنها حين تعود إلى دارها بعد إرضاعه تجد فاكهة لا تعرف مصدرها ، وأن زوجها وأولادها يتصورونها هديةً من أهل المولود، لكنها لا تذيع سراً إذ تقول أن الملائكة التي تحيط به هي التي تملأ الدار بالخير ، خاصةً أن نساء القرية أقسمن برب العلا ألا يحصلن على

أجر من إرضاعه. وقالت تريز : لا أجد فاكهة ، لكن مشنة العيش إذا أكلنا منها في يوم رضاعته لا تنتهى ، ولا تنفد ، وأعيد عدها فأجد الأرغفة بحطة يدى ، ملفوفة في البرسيم كما هي ، رغم أننا نكون جميعاً قد أكلنا وشبعنا ، كيف يحدث هذا ؟ لا أعرف، هي بركة المولود . وقالت "دواء" ، وهي تشير إلى جسدها : كنت ناشفة ومقددة ، وهبني الله القوة منذ دخل محمود يا حبة عيني الدار ، حتى جسمي أصبح فيه رخاوة وطلاوة مرأة ، لا أشعر بتعب بعد العمل يوماً كاملاً في الغيط . أشعر أني خفيفة . أنط من فوق لتحت . غسيل ونشر هدوم ، وخبيز ، كأني سخرت مائة حصان . وقالت فتحية : لم ينقطع الحليب عن ثديّ بعدما حملت على أبني عبد الرازق . وكان ينقطع في الشهر الثالث من قبل .

نادى محمود كل نساء القرية "يا أمى" ، وسرح من بيت إلى بيت دون استئذان ، في رعاية كل الأطفال وكل الأمهات . تعلم المشي ممسكاً في يده كسرة خبز ، لا أحد يسأل ممن أخذها ، مستنداً إلى حوائط الدور، حتى إذا أفلتت يده رأى أطفال الحارة يخطفونه من فوق الأرض، ويقولون في نفس واحد :

ألف اسم الله

حملته النساء فوق أكتافهن وهن ذاهبات إلى السوق ، ولم تعرف أمه أو مربيته أمينة طريقه أبداً طوال النهار ، حتى إذا جاء الليل أعادته إحداهن إلى حضن وديدة .

عادت إلى مجلسهما فوق حصير السباط . تأملته وقد استسلم إلى السكون ، مستنداً إلى حافة الدرابزين ، يبدو لمن لا يعرفه مرتاحاً ، لكن الهدوء لا يخدعها . تتبعت خطوط الألم الخفية التي تمرح سراً تحت جلده :

"كيف انتهى بك الحال سجين نفسك وأفكارك ؟" . استدارت لكنكـــة القهوة وراحت تسويها ببطء . وقعت عيناها على فراء ثعلب ، يفـــترش عتبة باب شقتها ، تركت نظرها معلقا به قليلا ثم حولت وجهها لـــترى جلد الثعلب الآخر على عتبة باب مقعد الصبيان ، وتلفتت تتـــأكد مـــن وجودهم على عتبات الأبواب التي تفتح على السباط . تنهدت وهي تردد بين ضلوعهـــا الكلمات : "كلها من صيد محمود" . تذكـــرت حماهـــا الحاج عبد القادر عمدة المنتهى ، وهو يصرخ غاضبا وســـط الـــدار في سنواته الأخيرة : سأترك لك يا وديدة البلد كلها حتى ترتاحى. ماذا نفعل إذا وقع من فوق الحصـــان وانكسرت رقبته ؟ نقول يا ليت اللى جـــرى ما كان !

سألته وهي تبعد القهوة عن النار : قل لي يا محمود ، لماذا انقطعت عن الصيد ، رغم أنك مشيت الصحارى كلها ، والبلاد صغيرة وكبيرة ؟ ألم تحن للصيد ؟

هز رأسه ، وابتسامه تضئ وجهه ، دون أن يفتح شفتيه .

قالت : فاكر طيور العتر والثعالب ؟ فاكر أختك نازلى ، وهـــي تملح فراءها وتنشرها معك فوق السطح ؟

رفع وجهه مدققا النظر فى عينيها العسليتين . كانت النظرة كافية لتعرف كم يعانى من الذكرى ، قال :

ـــ أيام

ربتت بكفها فوق يده ، وهى تناوله فنجان قهوة صبته ، وأعادت الكنكة إلى السبرتايه لتصنع غيره . راقبته وهي تقلب الأمر الذي كثيرا ما

أتعبها في أوقات وحدها : "أين مصلحة محمود ؟ هل هي في العـــودة إلى امتلاك كل الذاكرة بأحداثها ، حلوة ومرة ، أم بالوقوف قليلا على عتبة التذكر حتى يرتاح من اجترار الآلام التي فتكت به دفعة واحدة ؟" عادت تتبتل فى عالمها، الذي لا تكف لحظة واحدة عن استجلابه ومعايشتـــه ، بعد أن تبث فيه الحياة . واعتصم هو بداخله يتأمله بهدوء .

" بلورات من الذكرى تلمع في سديم لا نهائي . تسرى متجاورة . يغريني تلألؤها بالإمساك بها . تركض في برزخ أعرف أنه الوصلة بـــين الماضي والحاضـــر . منفوشة بتجاربى الســـابقة ، تتقلـــب بـــين البعـــد والاقتـــراب . تخز في قلبي مجهولا حميمـــا . أحب أن تلمســـه لكنـــها مخادعة . تهرب قبل أن تضئ الجب المظلم . تختفي في الغيهب ، وتـــترك وراءها فراغا . حلقات لسلسلة من ذكريات لا تكتمل . لم أعد أفـــرق بين ما أتعلمـــه الآن وما حدث في الماضي . أستقبل كل يوم وجـــهات نظر الآخرين ، ورؤيتهم في حياتي السابقة ، على الأصح ما يوافقون على تسريبه لي ـــ بعض المعلومات يراوغونني في معرفتها ، حتى كففت عـــن السؤال ، وأرجعتها إلى أنهم يتجنبون جراحا لا يودون نكأها الآن ـــ من يحكى لي تاريخي الذي يرفـــض عقلي أن أعرفه إلا لماما ؟! ماذا أصـــدق من الومضـــات التي تأتيني مثل شهب مغلفة بالحنين . أأعتبرها حقـــائق سمح عقلى بالاعتراف بها ؟ أم هي أحلام يريد عقلي أن يصل إليها .. . أو هي لا هذا ولا ذاك ، بل أوهام يخلقها خيالى لتحل محل مـــا فـــات ، وأرفضه ؟ أشعر أحيانا أنني لا أريد الركض وراء إحياء الماضي . أقـــف على الحافة ، بينى وبين داخلى سرداب طويل ، فى نهايته بئر فارقها الماء ، وأصابها الجفاف ، فتشققت أرضيتها . لا أريد قطع الطريق ومواجهة هذا

المضيق . أدير رأسي عنه ، لا شئ غير الهاوية هناك . يغمرني في وقـــت آخر طوفان من الرغبة في تمزيق غشاء النسيان والامتلاء بجـــذوري أيًّـــا كانت صفاتها : أهداب أو أشواك أو أوتاد حقيقية مغروزة فى تربة عميقة خصبــة ، حتى لا أتحول إلى مجرد طحلب عائم على وجه الكون . أرصد كل يوم فروقاً في مشاعري إزاء هذا العالم الصاخب مـــن حــولي ــ لم أشعر حتى الآن أنه يعنيني في شيء ــ صحيح أنها فروق طفيفـــة لكنـــها تمشى في خط صاعد أشبه بدرج .

بماذا يذكرني الدرج ؟ بحلم حلمته بالأمس وأذكر أنه تكرر معي من قبل : أراني على عتبة بناء عال كأنه برج أملس من الخارج مثل قلاع العصور الوسطى ، كيف أذكر قلاع العصور الوسطى ولا أذكر شيئـــاً يخصني أنا ؟ وهل تتكون الذاكرة من غرف بعضها مســـتعد للفتــح ، والآخر مغلق ولا يريدني أن أدخله ؟ أدلف إلي البرج وأصعـــد الســلم ، كلمـــا اعتليته زادت العتمة . أشعر باهتزاز وكأن البناء يتطوح ، أتوجس لكنني أكمل بإصرار على المعرفة ورؤية السطح ، يلتوي الدرج كحيـــة صاعدة إلى السماء ، كلما قطعت الدرجات ازدادت طـــولاً ، وازددت تعطشاً للوصول، أرى في نهايته نوراً ، وبيتاً يســـكنه أنـــاس أعرفـــهم ، وأحبهم ، يشيرون لي : تعال . يرتج البناء ، أعود متقـــهقراً إلى الـــوراء فيسكت. أسمع نداءهم فأعاود الصعود . أغمض عيـــنى ، وأركـــض ، تذوب الطوابق تحت هرولتى ، وأشعر بالبناء ، آلاف الخلايا الحية تتزلزل إلى مجموعات صغيرة تشغى . أتسمر ، ولا أستطيع نقل قدمـــى خطـــوةً أخرى . أحتار بين النظر لأعلى ولأسفل . سرداب وراء سرداب ــ من أين أتـــوا ؟ ــ ملهوف على الصعود ، أرفع ساعدىّ : أنا قادم . أجدنى

محبوساً بالخوف من السقوط والاختناق من الكتمة ، أسأل بصوت عال لا يخرج من شفتي : كيف تعيشون في هذا العلاء مطمئنين فرحين؟كيف وصلتم إلى هناك ؟

أسمعهم يصيحون : لا تتراجع . لقد قطعت الطريق الوعر . هنا الأمان . اصعد يا محمود . هذا صوت أعرفه ، لمن ؟ أشتهي الوصول لكنني غير قادر . يجذبني الجُرف الأسود ، فأتراجع مرةً ثانيةً راكضاً ، والبناء يترنح يطلب مني النجاة من الدمار . أقف فجأة ، وأنا أتمزق حنيناً إلى النور . أتسامح مع هذا العبث . أقول بصوت رنان : ما الحياة إلا مغامرة . هل أستكين فأموت مثل زهور الحشيش فوق السفح ؟ ـــ أين رأيتها ؟ ـــ أعاود متابعة مشواري ، وأنا أقسم أنني لن أنظر إلى الأسفل مرة أخرى . يغير الدرج مساره ، فأتردد لكني لا أتوقف ، ألاحق الانعتاق وأنا أسأل نفسي : هل مات عقلي يوم الحادث ؟ ـــ أي حادث هذا ؟ ـــ تفاصيل يصلني منها شذرات ، وكأنها ليست حادثاً واحداً ، وليست في زمن واحد أيضاً ، وكأنني توزعت بين اماكن وأزمنة، قطعتني في لحظة واحدة ، ونثرتني على طول البلاد ـــ من الذي قطعوا جسده وفرقوه في الأرض ؟ وما الذي يربطني به ؟ ـــ تسلل كشاف إضاءته تعمي البصر إلى داخلي ، عرفت مساره ، لمس نقطةً لم أكن أعي وجودها من قبل : أنا صائم العقل ، ولست ميت العقل . هناك فرق .. الصيام رحمة، تجميد لوظائف لا ضرورة لها على الأقل الآن . فحيح حيات يصلني . تكاد ألسنتها الرفيعة الصيادة تقتنص جسدي . أشعر بمخابئها في مغارة السلم والجدران . لن تخيفني ، ولن تغويني بالعودة. سأداوم على التقدم إلى الأمام ، وإن تمدد الطريق أو تلاعب .

صام عقلي حمايةً له . لن أفتش فيه عنوة . لقد خرج مرةً من الغيبوبة ، وبعث بعض الدفء في خلاياه ، فلأكتف الآن برحلتي إلى هذا النداء ، تدفعني رغبة حقيقية في رؤية العراء من أعلى قمة . أصم أذنيّ عن أصوات الانهيار والتفكك ، وأعرف أنها لن تتحول إلي هشيم . هي خديعة لن تمسني بسوء إذا لم أسمعها . أصحو قرب الوصول إلي غايتي ..

من أنا وسط هذه المتاهة ؟

محمود المصيلحى، لواء سابق في الجيش المصري . من مواليد ١٩٣٥ . خضت الحروب كلها عدا حرب يونيو، كنت مسافراً إلي الاتحاد السوفيتي للدراسة في كلية الأركان . تخرجت من الكلية الحربية بعد قيام الثورة بأسابيع . يؤكدون على أن جمال عبد الناصر وُمجلس قيادة الثورة أجلوا حفل التخرج حتى يحضروه بأنفسهم . متزوج أو كنت متزوجاً من صافى زيدان ، الأمر ليس محسوماً تماماً بعد ، وفقا لما يتلقى على من معلومات وأنباء . والمؤكد أن لى طفلاً وحيداً اسمه سمير ، ولد لي بعد عودتي من موسكو عام ١٩٦٨ ، أى أن عمره الآن حوالي الثانية عشرة ، ويعيش مع أمه التى ترفض رؤيتى بعد الحادث .

حسب أقوال أمى — وهى المعلومات التى أصدقها على الفور — العمل كان حياتي الماضية كلها . تفرغت له تماماً ، وأحببته ، ولم يكن لي هدف منذ وعيت الدنيا في طفولتي سوى أن أكون ضابطاً في الجيش . تضحك وتقول عسكرى وليس ضابطاً ، وترجع ذلك إلى تعلقي بعمى رشدى ومواقفه، وحديثه عن الثأر بعد جرحه في حرب ١٩٤٨ . وحسب أقوالها أنا ابن المنتهى . ابن كل البيوت ، فقد آخيت الجميع

بالرضاعة ، وتمتعت بحب لم تره حتى مع أبي الذي حماهم من بطش الهجانة في أحد الأيام ــ رغم أنه كان العمدة ، أى أنه انقسم على السلطة ، وهو أمر غريب على ما يحمله عقلى من تاريخ العمد والمشايخ في القرى المصرية ــ فهل يرفض عقلى أن أتذكر ما يخص أبي أو عائلتي ، بنفس الدرجة التي يرفض بها مواجهتي بما يعرف عني ؟ ــ الحب يسعدني ، يشيع في نفسي هدوءاً ممتعا ، أحاول أن أتخيل الملامح النفسية لهذا الشخص الذي يحبه الناس جميعاً ، فلما أستقر عليها تفاجئني في وقت آخر بأن البلدة ترهبني وأن حادثاً واحداً لا يقع أثناء وجودي في العطلات ! كيف يا أمي ؟ تصمت . وأعيد أنا غزل ملامح أخرى ، وتفلت من أختي كوثر ذات يوم جملة قالها أبي رحمه الله : " محمود اكتسب مهارتي في الصيد ، وعنادي في الحياة ، لكنه بلا قلب مثل جده عبد القادر ، ومحب للغندرة مثل عمه حيدر !" .

تتسع الفجوة بين الوجهين ، فهل كنت متناقضاً إلى هذا الحد ، أم أنني كنت اثنين ؟ تنفجر الحقائق فى وجهى ، وتبتعد الحلقات التي كنت أتخال منذ لحظات أنني أصبحت أمتلكها .

عاد من الحوار مع نفسه السابحة في دهاليز السؤال ، وتهيأ للقيام . انتبهت وديدة إليه ، قالت :

ــ كنت أعتقد أن استشهاد عبد الحميد هو أمر وأقسى ما سأعيشه طوال حياتي . لقد احتملت فراقه ، ساعدني الله على الصبر ، وسأقضي باقي العمر أنتظر أن يصبح ابنه علاء رجلاً مثله. الشجرة مثمرة، وطبيعي أن يتساقط منها بعض الأوراق . لكني رغم إيماني بما

يعطيــه الله لى ، لا أستطيع أن أحتمل أن أراك تذبــــل أمــامى دون أن تساعد نفسك يا محمود . ابذل جهداً من أجلى .

نظر إليها بهدوء ، ثم انحنى يقبل يدها وقام من جوارها ، قالت له :

ــ انتظر ، عندي لك شئ ، لا أعرف إن كان ما سأفعله الآن هو قرار صائب ، أم هو قرار مبكر . لن أطيل عليك . ســأحضره فورا .

غابت لدقائق ، ثم عادت وفى يدها دفتر صغير أنيق في بســـاطة ، وسلمته له :

ــ هذه يومياتك .

قال دهشاً : أنا ؟! أنا كتبتها بنفسي ؟ متى ؟

ــ لا أدرى . ربما تجيبك المذكرات نفســـها علـــى التوقيـــت . وجدناها فى السيارة يوم الحادث ، واحتفظت لك بها . كنت أتمـــنى أن تستعيد ذاكرتك دون مساعدتها ، فسألت الطبيـــب الـــذى أخـــبرنى أن الأدوية ستساعدك ، لكن بشرط عدم الضغط ، أو الاســـتعجال، فلـــم أعرف إن كانت المذكرات تعتبر ضغطاً أم لا ؟

قال يطمئنها :

ــ أذكر بعض الأشياء بنفسى . وأدرك أن أحداثاً بعينها تراوغني. أعرفها ، وأراها أمامى ، لكنى لا أســـتطيع أن أنقلــها إلى أســـماء ، وأماكن. لا أستطيع أن أحكيها لنفـــسى . الغريــب أنــى أعــرف المعلومات، وأشعر حين تُذْكَر أمامى أحداث بعينها ، أن ما أشعـــر بـــه

حيالها ليس موقفاً حديثاً وليد اللحظة ، لكنه موقف له جذور ، له تاريخ، وأكاد أصدق أنه كان موقفي طوال الأعوام الماضية .

ـــ صدق يا محمود ، وسيأتي وقت تعوض كل ما فاتك .

مدت يدها بالدفتر .

ـــ هذا هو ، عدني ألا ترهق نفسك ، وألا تعبر الأحداث قـــراءةً دون أن تربطها بما لم تكتبه . حاول أن تسترجع التفاصيل التي تكمل هذه الأوراق .

أمسك بالدفتر وفتحه على الصفحة الأولى ، قرأ العنوان المكتوب بحروف كبيرة : **١٩٥٦**

ـــ تزوج عمك حيدر من كريمان قبل الحرب بأسابيع ، وحاربت أنت في القناة ، ومرت أيام كنا متأكدين من استشهادك، لكـــن عمـــر الشقي بقي ..اقرأ ما كتبت ، وعد لأكمل معك الكلام عن هذه الفـــترة أو غيرها .

قبل يدها مرةً ثانيةً ، وانصرف إلى غرفة المكتب .

أمسك دفتر المذكرات بيدين مرتبكتين . دقق النظر فى غلافه لعله يوحى له بألفة . ضباب يغلف صورة رجل يسعى إلى معرفته . لاحظ تردده ، وعدم لهفته على فتح الأوراق : "كنت أتصور أننى سأندفع إلى قراءة ما خطته يداى علنى أكتشف ما لا أعرف . ما الذى يحدث لى كأننى أمسك بيوميات رجل آخر ؟ حتى الفضول فاتر ، سبحان مغير الأحوال" . قرأ :

تقبلت الثورة بشىء من التحفظ ، وانتظرت الأحداث . أشجع ما يستحق التشجيع ، وأترقب نتائج القرارات التى أشك فى صحتها . أطلق قانون الإصلاح الزراعى سعيراً فى بيتنا ، فرغم أننا لم نحسب على طبقة الإقطاع الذين يملكون آلاف الأفدنة ، إلا أن تحديد الملكية قلص مساحة الأرض فى حيازة أبى ، من ثلاثمائة إلى خمسين فداناً فى النهاية . أرض لم نرث معظمها ، أو تأتينا بالهبة من الباب العالى . اشتراها طه المصيلحى بجهد وعرق حقيقيين ، ورغم أنه كتب مائة فدان باسم عبد الله ، وقمر وعمتى نعيمة ، إلا أن انتزاع باقى الأفدنة جعله لا يسامح

الثورة أبداً ، ولا يرى فيها خيراً ، خاصة بعد أن رفعت الشوادر فى طرقات القرية ، وسهر الفلاحون الذين تغنوا بحياته طويلاً مع الصبيت حتى الصباح ، قائلين أن لا كبير بعد اليوم .. تمزعت بين رغبتى فى العدالة الاجتماعية ، وأنا أعرف أن الثروة فى مصر يمتلكها نصف بالمائة من السكان ، وبين إجبار أمثال أبى على التخلى عن ممتلكاتهم التى كسبوها بعمل حقيقى . لكننى فى النهاية تقبلت الأمر باعتبار أن لكل ثورة ضحايا، خاصة أن أبى كان يعتمد على التجارة فلم يهتز وضعه المالى كثيراً ، وانتظرت ما تسفر عنه الأحداث . لكن موقفى من الثورة تغير كثيراً بسبب كلمة سمعتها من جمال عبد الناصر أثناء العدوان الثلاثى . كلمة جعلتنى أنتبه ، ثم أنحاز ولا أعود محايداً .

كنت فى منطقة برج العرب غرب الإسكندرية أحكّم فى مشروع تدريب يتم ليلاً ، وأثناء التدريب عرفنا أن القوات الإسرائيلية هاجمت الكونتيلا على الحدود المصرية الفلسطينية . أُبلغنا بإيقاف التدريب ، والعودة إلى المعسكرات ، لكن من كثرة ما حدث هذا من قبل استمررنا فى تدريباتنا حتى الثالثة صباحاً . عدت بعدها إلى لواء الحرس الوطنى الذى أتبعه ، فوجدته يستعد للتحرك إلى القنطرة . ركبنا القطار . وفى منتصف الليل سمعنا الإنذار البريطانى الفرنسى ، ورفض مصر له . فجّر الإنذار كل مخاوفنا ، وتصاعدت الأسئلة ، وراحت تدوى ، يعرف الإنجليز كل شئ عن مصر : أماكن المعسكرات ، حجم السلاح ، نوعه ، أماكن الكبارى ، والمصانع ، والطرق . كل المعلومات .

احتلال بريطانى آخر . نفس الحدوتة تتكرر ، انجلترا وفرنسا ، وسبعون عاماً لم تنته إلا من ثلاثة أشهر فقط . وإذا حدث ، ماذا نفعل ؟ هل نبدأ مرحلة كفاح سرى مسلح ؟ قفزت إلى ذهنى قصة عمى عبد الحكيم شهيد اليد السوداء .

وصلنا القنطرة مع انتهاء الإنذار فى السادسة صباحاً ، ورأينا مظاهر نشاط الطيران الإسرائيلى والبريطانى . نقلنا إلى المعسكرات ، وهناك عرفنا أن اللواء مكلف بهجوم مضاد على ممر متلا ، وتحرك قائد اللواء بجزء منه إلى السويس ، على أن نلحق به بعد ذلك . لم يغمض لأحدنا جفن . جلسنا معا نترقب ما يحدث، حماس جماعى لصد الاحتلال بأى ثمن . لم أخش على حياتى ، ولا شعرت أن واحداً من الجنود أو الضباط متردد فى التضحية بها . فما حياة الضابط إن لم تكن للوطن . كان خوفنا على الثورة ، على الجنين الذى لم تكتمل ملامحه بعد ، على القناة التى دفعنا ثمنها مائة وعشرين ألف شهيد ، ماتوا أثناء العمل بالسخرة فى حفرها ، والسد العالى الحلم الذى سيغير المصير .

قال أحد الزملاء : ياه ، كل هذا التعاون من دول كبرى لاستعادة القناة ؟ ليست مسألة قناة ولا دياولو .

قال آخر : ألم يتسرع جمال فى التأميم ؟

ولم نعد نعرف من الذى يسأل ومن الذى يجيب . اختلطت أصواتنا حتى بحت ، ونحن نقلب الاحتمالات والمعلومات . هل كان من الأفضل أن يقبل عبد الناصر الدخول فى الأحلاف ؟ لماذا تريد

أمريكا مساعدة إسرائيل ! لماذا حصار السلاح والمال الجماعى هذا ، إن لم يكونوا قد نووا على شئ من قبل ؟ صبت أفكارنا كلها فى بوتقة واحدة أوصلتنا لنتيجة لم نختلف عليها ، هى أن ما يحدث مؤامرة مدبرة من قبل ، وليست وليدة الصدفة .

فى الليلة التالية جاء لنا صول من القيادة الشرقية ، ومعه أمر بتحرك اللواء إلى التل الكبير . وفى نفس الوقت ، وصل أمر من قائد اللواء بأن نبدأ الحركة إلى السويس . ارتبكنا ، وزاد من صعوبة حركتنا عدم وجود سيارات لنقلنا . أبلغنا بوجود سيارات النقل العام فى انتظارنا غرب القنطرة ، وكان علينا أن نحمل ما يمكننا من معدات سيراً على الأقدام ، ثم نعبر قناة السويس بالمعديات . ساد التذمر بين متطوعى الحرس الوطنى ، وطرحوا سؤالاً بديهياً :

ـــ كيف سنحارب إذا لم نكن نملك حتى سيارات لنقلنا ؟

دبروا لنا سيارات بعد ساعات من الارتباك تقلنا إلى الاسماعيلية ، على أن يذهب أحد الضباط إلى القيادة الشرقية ، ويسأل عن وجهتنا بالضبط . رمانا الارتباك فى أحضان الخوف . خفنا على الثورة ، على الوطن ، على كل ما أحببناه من قلوبنا . رأينا الشراسة التى يعاملنا بها العالم ، وأيضا الوقاحة ، ولم يخل الأمر من رهبة وإحباط ، ونحن نحسب قوة الدول الثلاث مجتمعة . فى هذه اللحظة ، ونحن فى أشد الحاجة إلى النور، سمعنا خطبة جمال عبد الناصر ، خرج صوته متحشرجاً :

ـــ أنا فى القاهرة ، سأقاتل معكم ضد أى غزو إلى آخر نقطة دم .

سنبنى بلداً ، وتاريخاً ، ومستقبلاً ، وسننتصر .

ثم أضاف : إذا كانت لديهم القوة ، فربنا أكبر .

انتشلتنى الكلمة من الغرق ، وأوصلتنى لبر الأمان . الله أكبر . لا أهمية لما يمتلكون من أسلحة ، وما خططوه لضربنا . وضعنى جمال أمام الله مباشرة دون وسيط ، وحادد دون أن يدرى مصيرى فى الخطوة التالية ، وربما مصير الآلاف من المصريين غيرى . لقد احترمته ، وأحببته ، بل وأصبحت من أنصار الثورة ، وليس مشجعاً لما يستحق التشجيع فحسب .

تحركنا إلى السويس . طيران بريطانى فرنسى فوقنا لا يضربنا ، لكننا ننتظر الضرب فى كل لحظة . أزيز دائم فى طريقه إلى المطارات ، وقلوبنا شعلة من جمر تود أن تطول السماء ، وأن تقذف به إلى الجحيم . تعطلت بعض العربات ، ونحن فى أشد الحاجة إلى الوصول السريع إلى هدفنا ، تركناها مشفقين على مصير أفرادها حتى وصلنا إلى المثلث ، نقطة تلاقى القاهرة الاسماعيلية السويس ، وتوقفنا . بحث القائم بأعمال اللواء عن حل ، قال :

ـــ أريد ضابطاً يتطوع بالعودة بالأتوبيسات الفارغة ، وإحضار باقى اللواء .

تقدمت إليه ، وفى ذهنى كلمة جمال عبد الناصر ، ربنا أكبر .

ـــ أذهب أنا يافندم .

وأتممت المهمة بسلام تحت مظلة الطيران المعادى المشغول بأشياء أخرى عن حركتنا . تمنيت أن تكون رسالتى ، التى تركتها لابن عمتى حلمى فى الإسكندرية ، قد وصلته حتى يطمئن الأهل . واحتلتنى نهى بحيويتها المشتعلة ، ورنين ضحكتها الذى يتردد فى المدى ، حتى وصلت إلى اللواء ، مصطحباً الفريق الذى تخلف فى الطريق . لكننى فوجئت بأن القيادة تخلت عن فكرة الهجوم المضاد ، وقيل لنا أنه سيتم إنزال قوات بريطانية ، فى جنوب السويس ، وعلينا منعها . تحركنا والارتباك يسود كل شئ ، وحين دب النظام ، وتوحدت أعضاء اللواء ، جاءنا أمر بالعودة إلى القاهرة .

ـــ إلى أين؟

ـــ لا نعرف !

ركبنا الطريق ، تأملت ما يحدث حولى ، والأنباء تتوالى ، ومشاعرى تتمزع بين الإحساس بالارتباك، والعدوان ، والمقاومة ، والهزيمة ، والنصر ، والتراجع ، والتفوق ، والتآمر علينا ، ودفعنا إلى فخ لسحقنا . ورحت أنسحب تدريجيا للاختناق ـــ عرفت بعد ذلك بأيام، أن جمال عبد الناصر وجد أن إرسال قوات إلى سيناء يعنى التضحية بها بين القوات الإسرائيلية من الشرق ، والقوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة التى تستهدف احتلال القناة فتحصرها من الغرب ، فقرر سحب قوات الجيش إلى منطقة القناة ، لتقف مع الشعب فى دفاعه عن حريته وقناته ، بدلا من دفعها إلى سيناء وهى ثُمن مساحة مصر كلها ،

والقوات المتيسرة ليست كافية للدفاع عنها ، فى ظروف تفرض الصحراء فيها متاعب إدارية وفنية كبيرة . قابلنا على مشارف القاهرة أركان حرب اللواء ، فأمرنا بالتحرك إلى الهرم . نمنا فى العربات إلى أن وصلنا فى السابعة صباحاً أمر بالتحرك إلى العباسية . وهناك عزفت عن كل شئ حولى ، وفضلت العزلة عن الزملاء فى أوقات الراحة . وأذكر أن جاء زميلى عبد الموجود ، وسألنى :

ـ لماذا أنت حزين بهذا الشكل ؟ هذه مباراة . خسرنا جولة ونكسب جولة .

لم أرد ، ولم أستطع أن أرى ما يراه . اتصلت بأختى قمر فى بيتها بالعباسية ، وفوجئت بحالة الجزع الشديدة عندها . أخبرتنى أن رسالتى التى تركتها لحلمى فى الإسكندرية أثارت فزعاً فى العائلة ، إذ سرت شائعة تقول أن كل من عبر القناة من الجنود والضباط قد استشهد . وسألتنى لماذا لم أحاول الاتصال بها قبل ذلك ؟ قلت بهدوء : نحن فى حالة حرب يا قمر ، اتركيها لله ، وعدت إلى عالمى أترقب ما يحدث ثانيةً بثانية، أبحث عن منفذ دون جدوى . تخرجنى من الضيق أحياناً أغنية جميلة تقول :

دع سمائى فسمائى محرقة

دع مياهى فمياهى
مغرقة

واترك الأرض فأرضى

دع ســـمـــــــــائى دع
ســــمــائى

خففت الأغانى الوطنية من ثقل الموقف ، وكان لها فعل السحر ، لــكنها لم تستطع أن تصد سيل الأحداث المنهمر علينا . إنزال بريطــانى فى بورسعيد ، وأمر تكليف بالحـــركة لصد العدوان ، بدأنا الاحتشاد له، لكن الموقف تغير ، وسافرت مجموعة من الصاعقة ، وبعض الضبـــــاط البورسعيديين أو الذين خدموا فيها وقتاً كبيراً ، وتم تنسيق العمل الفدائى بسرعة بين مجموعات العسكريين والمثقفين وعناصر أخرى ، وبقينا نحـــن فى العباسية نتسقط أخبار الأحداث فى مدن القنـــــاة الثـــلاث . إنـــزال إنجليزى، وإنذار روسى ، دوت كلماته بيننا مثل طلقة مدفع ، تمهد لأزيز الطائرات ـــ إنا عاقدون العزم على استخدام القوة لســـحق المعتديـــن ، وإعادة السلام إلى الشرق ـــ حرب عالمية ثالثة ؟! سرى السؤال فى أفئدتنا كالنار، لكنه بعث فينا روحاً جديدةً . أخيراً قوة أخرى ستقف معنـــا . ليست بالهينة . انتعشنا ، وتناقلنا قصص مقاومـــــة النـــاس للإنـــزال فى بورسعـــيد مستخدمين كل شئ حتى أغطية الأوانى النحاسية . وجاءنـــا أمر ليلة الســـابع من نوفمبر بتوزيع قـــوات اللـــواء علـــى الاسماعيليـــة والسويس مع إعلان إيدن وقف القتال ، وكان من نصيـــبى الحركـــة إلى السويس . قائد سرية برتبة يوزباشى فى الحادية والعشرين مـــن العمـــر . سافرنا بروح أخرى ، وانهمرت علينا كل الإمكانيـــات الـــتى طلبناهـــا لتحصين المدينة فحولناها فى غضون أيام إلى ثكنة عسكرية كبيرة لا يمكن

اختراقها .

انتهى العدوان دون أن أرى من العدو سوى الطيران . إسرائيل لم تعبر المضايق ، ولهذا رغم وجودنا على القناة لم نرها على عكس ١٩٦٧ . انسحبت بعد تدمير كامل لمنشآت سيناء . آبار ومناجم وخطوط سكك حديدية وصهاريج ، ومبان . وأصبحت أكثر قبولاً لجمال عبد الناصر من ذى قبل . إذ أدركت حجم الصراع الذى يواجهه ، وأصبح بالنسبة لى رمزاً لمصر كلها. وعدت إلى مدرسة المشاة حتى أعلنت الوحدة . وفتحت لى مرحلة ثانية للاقتراب منه . فى عام ١٩٥٦ عندما أعلن عن الاستفتاء على رئيس الجمهورية والدستور ، لم أوافق لا على هذا ولا على ذاك . لم أكن أتبين الطريق بعد ، وفضلت انتظار ما تسفر عنه الأحداث القادمة . فى فبراير ١٩٥٨ ، وافقت على الاستفتاء على الوحدة بحماس لبطل الجلاءين وسبب الوحدة .

هكذا تغيرت علاقتى بعبد الناصر والثورة .

ما لم يتغير فى حياتى هو أنتِ . أنتِ يا نهى .

توقف عن القراءة ، وراح يحدث نفسه بصوت عال يعرف أنه لا يصل لأحد وسط هذا السكون :

ــ معنى هذا أننى لم أكتب هذه الأوراق فى حينها . بل كتبتها على الأقل بعد ١٩٦٧ . لا ، ربما كتبت بعضها ، وأضفت تعليقات فى زمن آخر ، أو أننى استعنت فى كتابتها يوماً ما بيوميات كنت أكتبها ساعةً بساعة .. لماذا الاستعجال . حتماً سأكتشف .

ما لم يتغير فى حياتى هو أنتِ . أنتِ يا نهى ، يامهرتى الجامحـــة . أراك فى ليلة صافية تمرقين مثل شهاب يضئ العتمة ، تكشفـــين فى قلـــبى اللوعة ، وتهربين إلى السحب . أحسب الأيام كى أعـــود إلى المنتـــهى ، وألقاك . لا أعى يوماً واحداً فى طفولتى أو صباى دونك ، ولا أذكـــــر أننى فرحـــت بنجاح إلا لأهديه لك . متى اكتشفنا هــــذا الحـــب ؟ لا أعرف. أتصوره موجوداً منذ وعينا الوجود . طفلان يتسلقان الشجـــر ، يجمعان التوت والجميز ، ويخبئان الثمار فى القـــش . يترعان فى النـــهر ليلاً ونهاراً ، ويتابعان جامعى القطن ، ويغوصان مـــع شتــلات الأرز . يتدحرجان وســط أكوام التبن ، ويختبئان معا من الثلة . أصدق أحيانـــاً أننى أحببتك فى السابعة من عمرى ، وأذكر هذا اليوم جيداً . كنـــت فى الشكمة وسط رجال العائلة ، نستقبل تهانى عيد الأضحى ، ثم وصلت إلى الحرملك ، وتلكأت أشاهد الحوش الهايص بالعائلـــة : حلمـــى ونـــازلى يركضان وراء ديك رومى ، وقمر تنهرهما وهى مشـــغولة مع الطباخين، ونينا وديدة تتهم عمتى نعمة بأنها تحكى حكايات فارغة ، حتى لا تمـــد

يدها بالمساعدة ، وعمتى تضحك وتقول أنا مرأة أبيك وعمتك أخــــت زوجك وعليك الطاعة . شهلى .

قلت لنينا : أسرعى بإعداد الإفطار لأبى وضيوفه لأن جدى عبـــد القادر يتوعد فى الخارج بنفى الجزار إلى الجزيرة التى نفـــى إليـــها ســـعد زغلول .

قالت : من عينى .

سمعت صوتك تقولين :

ـــ البيضة يا ماما ..

لم أركِ ؟ وأعدت طلبات جدى لجدتى عديلة ، فقالت :

ـــ حاضر . النهار فى أوله ؟ الكوانين محمية على آخرها .

ـــ البيضة يا ماما .

تلفتُّ حولى ، فلم أعرف أين أنت . سألت نينا :

ـــ أين نهى ؟

تتبعنا مصدر الصوت . رأيناك تتحدثين إلينا من بـــين خشبـــات درابزين الطابق الثالث . لم يكن عمرك ذاك الوقت يزيد على ســـنتين ، وربما ثلاث . وقفت مثل عصفور صغير ، وسط قفص كبـــير يســـتطيع الطيران من بين فتحاته ، تمسكين ببيضة فى يـــد ، وبطـــرف فســـتانك المشلوح ليغطى بيضات أخرى فى اليد الثانية .

ــ البيضة .

صرخت عمتي نعيمة : حاسبي

قالت أمي : اذهبي إلى الفرخة . هاتي بيضة وبيضة

تردين ببراءة ، لا تعرفين ما ينتظرك إذا تحركت : أخذتها من الفرخة ، ركضت إلى الدرج ، وسبقت الراكضين إلى السطح، وما زالت أمي تحاول إبعادك عن السور . رأيت الباب مغلقاً ، فلم أفهم كيف دخلت. فتحت الثقالة بصعوبة ، وتسللت على أطراف أصابعي ، واحتضنتك قبل أن تتقدمي خطوةً أخرى إلى الهاوية ، ونزلت بك لنلتقي بنصف الموجودين على بسطة السلم ، وصراخهم الذى يصل إلى ضيوف العمدة . وعرفنا أنك زحفت إلى العشش من تحت الباب الخشبي المرتفع قليلاً عن الأرض . اختطفتك أمك من بين ذراعي ، وما زلت تحكين عن البيضة ، والبطة والفرخة ، ولا تدركين سر انزعاجهم. فهل نصبت نفسي مسئولاً عنك منذ هذه اللحظة المفعمة بالخوف ، فرحت أحملك وأدور بك بين أيامي ؟ أم أن إحساسي بك انبعث فى لحظة أخرى ؟

معاً . دائماً معاً . أطفال أشرار نوقع حلمي فى شراك صغيرة ونهرب ، ونسمع شتائم عمتي نعيمة تلعن اليوم الذى لم يربنا فيه أبوانا، وتتوعدنا بالقتل جزاء ما فعلناه بوحيدها . اكتشفت يوم زفاف أختي قمر وفريد شوكت كم أنت جميلة بهذه الخطوط السوداء المحددة لملامحك فوق بشرتك الخمرية ، حين بحثت عنك وسط البنات فى زفة العروس.

رأيت شعرك المطلق السراح من الضفيرة لأول مرة . غجـــرى يســابق الريح. شق قلبى الطريق إلى الأحشاء ، وأطلق فيها سعيراً . عرفت لحظتها انني سألاقى صعوبةً فى رؤيتك بعد ذلك . لقد نضجت ، وأصبحت فتاةً، وستنضمين إلى عالم الحرملك . لكنك أبداً بقيت طيراً حراً يغنى النمو بين الشجر ، لا تكاد قدماه تلمسان الأرض قط ــ حطى قليلاً يا نهى حـــتى ألمسك ــ معلقة العينين دائما بفضاء ، كأنك خلقت خطأً كائناً برياً ..

تعرفنا على الأشياء نفسها معاً ، عشقناها معاً ، ومللناهـــا معـــاً أيضاً. شئ واحد لم تشاركينى فيه أبداً، وقفت على عتبتـــه ، تشـــاهدين وترتجفين : الصيد .

أسمع استدعاءه لى فى الأفق . أتتبعه بخطى وئيدة حذرة ، تشـــدنى إليه لعبة الغفلة . الغافل يخسر حياته أو صيده . أبحث عن سبيل المواجهة. أجن بلحظة القنص ، وأشتهى فرحة الإطلاقة الصائبة . أركض نحوهـــا فائزاً منتصراً . تعلمت الذوبان وسط الكائنات حتى تـــأمن الفريســـة ، وتكسب حريتها ، فأنقضُ عليها . لا تدركـــين أن الصيـــد والخـــلاص صنوان، ولا تعبئين بفرحتى ، وأنا عائد بطيور العتر ، والبط العراقى شتاءً، والثعـــالب صيفاً . تتسمر عيناك فى العينين الزجاجيتين لهـــا . تتابعينـــها بحزن لا أفهمه . تهربين من الدم المسفوك ، إذا كـــان الطـــير ســاخناً ، تشيحين عنه وعنى . تتبخر قوتك التى تزهين بها أمام الآخرين ، مدعيةً أن لا شئ يخيفك . راقبتك كثيراً ، وأنت تفرين من تجمعات الصيد ، حـــتى الأسماك التى لم أجد فى صيدها متعةً كبيرةً ، كنت تمرين بهـــا مبتعـــدة،

وتتأملينها ببؤس لا يناسب الحدث . تقولين لى :"ليس الخوف ، بل الحزن على إهراق حياة كانت ترتعش بالأمل منذ قليل !" . لم أتأمل كلماتك أبداً ، أو أقف عند التماعة دموعك التى تترقرق فى مقلتيك ، تعميني الفرحة بحصيلة رحلتى ..

أنتظر العطلات لنلتقى . لم أنتبه — إلا متأخراً — إلى أنك الوحيدة من بين البنات التى لم تطبق عليها القواعد الصارمة للعائلة، ولم أسأل لماذا ؟ خرجت من الباب الرئيسى للدوار مروراً بالشكمة التى يجلس فيها الرجال ، ولم تنتظرى السيارة أبداً داخل الحرملك . مشيت فى الطريق العام ماراً إلى الدور الأخرى ، ولم تنتظرى ستر الليل . قررت أن تعملى بعد انتهاء الدراسة ، ولم يعترض أحد ، رغم أن الجميع تهكم ، حين طرحت قمر وكوثر نفس الفكرة .. لعبت وسطنا لسن أكبر كثيراً مما تتوقف عنده البنات . قالوا إنك لا تصبرين على أعمال البيت ، لكننى ما رأيت أكثر منك نشاطاً وعملاً وسط تجمعات العائلة ، فى أفراحها ، وأحزانها ، ثم تختفين بعدئذ من الحرملك لحين حاجة حقيقية إليك ، فتنزرعين وسطها .

أحببتك وكفى ، أيتها الفراشة الشرسة .. نعم الشرسة ، فلم يمر يوم واحد دون صدام — هل كنت فى حاجة إلى أن أقطع كل هذه السنوات من العمر كى أدرك أن ملاحظاتى لم تكن مجرد تشذيب للصورة ، وتقريب لوجهات النظر كما كنت أعتقد ، لكنها كانت محاولات للتغيير فى بنية الشخصية . ولم أدرك ساعتها أن هناك أسساً

وأعمدةً إذا تداعت بمعاول الآخرين انهار كل شئ فى الداخل ــ احتجت تجارب العمر كله كى أدرك ذلك. يا قطتى الوديعة الحانية ، التى لم أحس بمثل حنانها إلا مع أمى ــ القط أيضا كائن له شروط يفرضها للاقــتراب منه . تبعثرنا السـيارات إلى مدارسنا فى المدن وننتظر الأعياد لكى نلتقى، إلى أن تخرجت . أدركت ساعتها أنك عائلتى الـــتى أود أن تشــاركنى فرحتى بالتخرج قبل الآخرين ، وقررت أن أذهب إليــك فى المدرسـة. أتذكرين فرحتك ، حين استدعتك المديرة ، فوجدتنى أمامك ــ لمــاذا لم نفعل ذلك قبل هذا الزمان ؟ ــ لم أكن أملك كلمات لأقولها . أردت أن أراك فحسب . سألتك :

ــ أتريدين شيئاً من المنتهى ؟

سكَت ، فأعدتُ السؤال :

ــ مسافر الآن . أتريدين شيئاً ؟

ــ نعم .

ــ ما هو ؟

رفعت نحوى عينين صامتتين ، ما عهدت فيهما كل هذا الجمال ، وهذا الهدوء المفاجئ . أشعلتا بهدوئهما كل ما تسترت عليه من عواطف، فندمت على مجيئى فى هذه اللحظة ، فما تمنيت شيئاً قــدر مــا تمنيــت احتضانك ، ووقفت مأسوراً بالمديرة ، والمدرسة ، والتقاليد .

رحلت بعدها من المنتهى إلى منطقة العوجة الدولية ، وحملت معى

النداء القاهر من عينيك ، وهناك اقتسمت المكان مع ضابط الاتصال الإسرائيلى . لم أقبل أن أتبادل معه كلمةً واحدةً . فما جمعنا ليس إلا ظرف استثنائى فرضته اتفاقية هدنة ١٩٤٨ ، التى اعتبرت منطقة العوجة الدولية منطقة منزوعة السلاح تقيم فيها هيئة مراقبة الهدنة ، وتتكون من مراقب من الأمم المتحدة ، وضابط اتصال مصرى هو أنا وآخر إسرائيلى ، بالإضافة إلى حرس من الجنود يحرسون المنطقة بالتناوب.

أيقظتنى خطوات الضابط الإسرائيلى ، فى ممر البناء الذى سكنّاه معا ، من أحلامى ، وذكرتنى بالواقع . لم أكن أعى فى هذا الوقت أن هذا الضابط الإسرائيلى ، سيقف حائلاً بينى وبين استمتاعى بالحياة ، والحرية ، ربما منذ جرح عمى رشدى قبل هذا بسنوات ، وأننى سألعب معه لعبة الغفلة . أقصد الصيد ، لأن وجود أحدنا ينفى وجود الآخر .

قطع محمود شوطاً طويلاً فى القراءة . شعر بفوران ، لم يستطع أن يحدد مكانه . هل يبدأ من رأسه ، وينزل إلى الأمعـــاء ؟ أم أن أعضـــاءه كلها تبدل أماكنها مع الرأس . قال محدثا نفسه :

ـــ أشعر أنى موجة ، تنقلب على الرمـــــال ، تنفـــرط إلى آلاف القطرات ، تنبسط ، ثم تعود حاملة الذرات إلى عرض البحر. فيها بصمة الاحتكاك والانسحاب ، والالتحام من جديد ، لكنها هذه المرة ترســـب فى القاع ذكريات أخرى ، وينفلت بعضها ليرى الشمس . لن أكتفـــى بهذه السياحة فى الأحداث . فى داخلى صوت يردد أن المسألة ليست مجرد احتياج لتفتيت شظايا دم ، تجلطت فى شرايين الرأس من الحادث . بل إن هنـــاك جلطة ، تحوصلت داخل بئرى ، الذى يبدو لى صافياً من الخارج، تنتظر الكشف عنها . ضابط مشاكس ، هذا شئ أرضى عنـــه تمامـــاً ، يتوافق مع رغبتى فى الصورة التى أود أن أكون عليها فى السابق . دبيب ما ينبهنى إلى أننى فى حاجة إلى أن أخوض اللجة ، لأصل إلى جزيرة المعرفة . أخوضها بنفسى وأواجه الخطر الذى يتربص بى فى المياه العميقة السوداء ،

وأهزم الكائنات السرية التى تظن أن بإمكانها الاختفاء عنى طويلاً . يدفعنى الفضول لاستكمال القراءة، ومعرفة المزيد عن هذا الإنسان اللغز الذى كنته . لا شئ حتى الآن يشير إلى ذنب ما ، إلى هزيمة . لا شئ يشير إلى انكسار . حياة عادية لضابط يتنقل من خطوة إلى أخرى فى ثبات . يتعلم العبرية وينتقل من مدرسة المشاة إلى هيئة التدريب ، ثم رئيساً لفرع التربية العسكرية ، ويضع تخطيطاً لمنهج يُدرَّس فى جميع المدارس ، ويمارس عسكريته كأحسن ما يكون ـــ طبقاً للأوراق المسجلة أمامى الآن ـــ ينقصه شئ واحد ، هو الرغبة الدائمة فى العودة إلى التشكيلات ، والوحدات ، ويطالب بها رؤساءه ، لكنهم يرون صعوبةً فى الحصول على مدرس ، وكان مدرساً .

أين ما أبحث عنه ؟ هل جاء بعد هذه الفترة ؟

توقفت فى القراءة عند نقلى إلى الكلية الحربية فى مارس ١٩٦١ ، يكفى هذا القدر الآن . أحتاج إلى شئ من الراحة ، تزداد رغبتى فى إعادة قراءة كتبى التى أشعر بأنفاسى الماضية تتخلل أوراقها ، ولمسات هذا الكائن الذى أتعرف على ملامحه ، ولا تكشف لى المرآة إلا ظلاً لصورته، أتأمل الخطوط الدقيقة التى خطها فى السنوات العابرة تحت كلمات بعينها.

ـــ لماذا أهتم بهذه الملاحظات ؟

ـــ ربما لأننى أشعر بألفة ما ، وتواصل مع الأفكار التى تختصر أفكار الكتاب ، وتضع قلبه أمامى بصورة صحيحة . أو ربما لأنى أشعر

أن حياةً مرت من هنا .

قرأ فى فن الحياة للوزير بتاح حتب وزير ملك الوجـــهين القبلـــى والبحرى؛ أسيس الحى على مر الزمان وإلى الأبد ، تحت عنوان السـعادة ما هو مخطط .

(أتبِع رغبتك على امتداد حياتك∝لا تفعل أكثر مما هو محدد لك ، ولكن لا تختصر زمن التقييد بالقلب . إن إبادة لحظة هو أمــــر يمقتـه (كا). لا تصرف نشاطك إلى الأعباء اليومية بدافع من الاهتمام المبالغ فيه بشـئون دارك ، وعندما تأتى الثروة ، اتبـع رغبتك لأن الثراء لا يكتمل إذا لم يكن المرء سعيدا ∝.)

تأمل العلامة الصغيرة فوق لا تفعل أكثر مما هو محدد لك .

ــ لم أقبل إذن أن أفعل المحدد ، فماذا فعلت لكسر هذا المحدد ؟

تنقل بعينيه إلى الإشارة الأخرى .

ــ هل كنت سعيداً ؟

أغلق الكتاب وسحب ورقة ، لاحظ أنه نقلها بخط يـده . قـرأ عنوانها من الترنيمة العظمى لآتون كتبها إخناتون :

"وتعود الحياة من جديد ، عندما تشرق ، ويضيء قرص الشمس فى النهار ، ويصير كأنه أتون نار ، ويختفى لذلك الظـلام، ويتمـزق رداء الليل، وإذا بقطريها يتهللان ، ويفيق الناس مـن غفلتـهم ، وإذا هـم

يغتسلون ، ويلبسون ثيابهم ، ليتجهوا إليك..

لاحظ التاريخ المدون على الورقة . اكتشف أنه تاريخ الشهر الماضى .. ابتسم !!

قام إلى أمه ، إلى جلستهما وحيدين فى السباط ، والتى أصبحت يومية الآن بعد أن فتحت القراءة شهيته للمعرفة أكثر ، تركها تحكى ذكريات الدار ، وأدركت هى ما يريد . تذكرت أن مذكراته تبدأ فى الفترة التى تزوج فيها عمه حيدر من كريمان ، بعد أن رحلت زوجته إقبال أثناء ولادة بيللا .

حكت وديدة ، استدعت شخصيات ومشاعر ، واختلطت بينهما الصور ، وسرى الدفء يلف المكان ، ويفتح الباب للحنين.

.. ..

.. ..

انتقلت كل المتعلقات الصغيرة لإقبال زوجة حيدر الراحلة إلى غرفة بيللا . أصرت وديدة أن ينتقل أثاث غرفة النوم أيضاً ليحل محل أثاث الطفلة ، وقالت إن من حق بيللا أن تعيش وسط عالم أمها ورقة تفاصيله . أشرفت بنفسها على تحويل الحائط إلى متحف للوحات التى كانت تهواها إقبال ، مستنسخات مايكل انجلو ، ومانيه ، وجوجان ، وغيرهم ، تتصدرها صورة كبيرة لإقبال فى ثوب الفرح بدت فيه كفراشة طافية فوق الريح ، وخصصت رفوفاً ناعمة للتحف الإيطالية ،

والمنمنمات التى تصور العذراء فى أبهى صورة، وفردت مساحة واضحة لمطرزات القطيفة المنثورة باللؤلؤ التى طرزتها إقبال بنفسها ، وجمعت اسطواناتها فى دولاب خاص ، ثم وزعت باقى أثاث الجناح على مختلف أرجاء الدوار فضاع ، واندثر ونشط الغرف الكثيرة ، وراحت بهجة تناغمه وانسجامه معا التى كانت مضرب الأمثال فى يوم ما.

جاءت مفروشات العروس الجديدة كريمان لتغير ملامح المكان ، وسرى بين أفراد العائلة شعور ما بأنه منحوس ، حتى أعلنته نعمة صراحةً لوديدة وهى خائفة :

ــ عتبات فرحة وعتبات طالحة .

غرقت وديدة فى الكلمات ، فكادت أن تدوس عنتر الرابع الديك السارح وراءها فى كل مكان فزعق .. ابتلعت ريقها وهى تهش الفكرة التى تدق رأسها ، وانشغلت بربط قرطتها التى تدلت على حاجبها فجأة .

ــ هو قدر والله أعلم

وراحت تبذر الحب بيديها ، دون وعى ، فهاص الحوش بالطيور .

ــ لماذا لا نفتح الطابق الثالث ، ونعمر شقة عبد الحكيم ؟

ــ تركته أمك لابنته عديلة ، ولن يجرؤ مخلوق على مخالفةً رغبتها بعد رحيلها ..

ــ أتصدقين أنها تعود ؟

ـــ من يدرى ؟ الدم يحن ..

انشغلوا بترتيبات استقبال العروس ، دون أن تجرؤ واحدة منهن على أن ترفع صوتها بالغناء لتحية الحدث ، رغم أن وديدة أصرت على إقامة فرح فى القاهرة ، إكراماً للعروس العذراء . وبذلت كل ما تستطيع لكسب ودها ، بعد وصولها ، حتى أنها أعادت بيللا لأحضانها ، لفترة، كى تعتاد كريمان حياتها الجديدة. وعاد حيدر لجلسته ، فى الصباح المبكر ، على المصطبة ، فى حوش الدار أمام بيللا ، ووديدة تمشط ضفائرها السوداء الطويلة ، التى تغطى خصرها قبل اصطحابها إلى المدرسة.

لا يتذكر واحد من أهل الدار ، متى نزلت كريمان ذات صباح ، إلى هذا المجلس اليومى ، لتمسك بالمشط بدلاً من وديدة، وتصفف لبيللا شعرها ، وتدعوها إلى العودة إلى غرفتها . كل ما تذكروه هو السعادة التى ترفرف على الطابق الذى عاش حزيناً طويلاً . قالوها وهم يستعينون باسم الله ، من الشيطان ، خوفاً من الحسد . وجد حيدر راحته أخيراً . نجاح فى مكتبه ، على بعد كيلومترات من المنتهى ، وهدوء فى البيت ، وزوجة ممتنة للمعجزة التى جعلت أباها يوافق على زواجها ، قبل أخواتها الثلاث ، اللاتى فاتهن سن الزواج ، وأنقذها من عنوس محقق بعد أن أصبحت فى الثلاثين ، دون بارقة أمل فى أن يغير أبوها رأيه فى تزويج الابنة الكبرى أولاً . وكانت الثانية أجمل منها كثيراً ، يطلبها الجميع ، ومع تكرار رفض الأب نضجت الأختان الأصغر وزاحمتاها ،

ورغم كل المحاولات التي تمت بعد ذلك لإخفاء البنات الثلاث ، وتقديم أختهن للمجتمعات ، فشلت فى الحصول على عريس . وانصرفت العائلة، والأصدقاء عن البنات أجمع ، باعتبار أن رفض الأب أمر مفروغ منه ، حتى فكرت فيها نعيمة ابنة خالتها ، وهى تحاول جاهدةً إقناع حيدر بالزواج مرةً أخرى، بعد رحيل إقبال ، وقالت لطه :

ـــ كريمان فتاة قوية ستساعده .

ـــ لن يعترف زوج خالتك الآن بأنه أخطأ .

ـــ لدىّ حل ، إذا نجحت سأخبركم به .

ركز طه بصره فى عينيها مستفسراً ، وفهمت أنه موافق ، وهزت وديدة رأسها ، تفكر فى خطة نعيمة التى لم تفصح عنها .

يومان ، عادت نعيمة بعدهما بخبر موافقة زوج خالتها ، الذى فوجئ به الجميع ، مطالبةً إياهم بمساعدتها فى إقناع حيدر ، الذى استسلم فى النهاية .

كريمان هى الوحيدة التى علمت بأمر الاتفاق ، الذى تم بين نعيمة وأبيها ، والذى قايضت فيه نعيمة زوج خالتها زواج صغرى بناته بزواج ابنته الكبرى ، وقدمت له عريساً قادماً من أمريكا للزواج من مصرية ، والعودة فوراً . ووعدت بأن تحل مشكلة الأختين الأخريين ، بالسعى إلى زواجهما . لم يجد الأب مفراً من الموافقة أمام هذا العرض المغرى ، الذى تم تنفيذه بسرعة، وأصبح حديث العائلة ، حتى أنهم تندروا لزمن

طويل ، قائلين : أين كانت نعيمة لكى تفك النحس ، بــــل إن بعــض النسوة بدأن فى التودد إليها ، حاسبات أنها قادرة على الســعى لإيجــاد عريس معتبر لبناقمن ، فى سرية ، ودون حرج ، رغم أفمن لم يعلمن عــن الاتفــاق، بل أدركنه ، وربطن بين الأحداث بعد ذلك ، واســتخدمن كل الدهاء ، كى تفصح نعيمة ، أو وديدة ، عــن التفــاصيل دون أن يظفرن بشيء .

ظهرت العروس وسط الدار . قصيرة القامــة ، ربعــة ، بيضــاء البشرة، حادة الملامح ، تشبه كثيراً خالتها عديلة وابنتها نعيمــة . تهتــم بشعرها الأسود ، خفيف التجاعيد ، وتقصه عند كتفيها ، وتصففــه ، كما تصفف ريتا هيوارث شعرها الأحمر . كانت جميلةً هــذا الجمــال الأرستقراطى الرزين ، وصفوها قائلين : "بنت عاقلة ، يفر الثعبان مــن تحتهــا دون أن تهتز" . لم تكن مرحةً مثل إقبال ، أو مرهفة الحس مثلها، لكنها كانت مريحةً ، تعطى للمتحدث معها شعوراً بإمكانيــة الاعتمــاد عليها .

حملت كريمان بعد سنة من زواجها ، وأحيطت من أهلها بفــرح غامر فى انتظار الحفيد الأول . فلم يمر أســبوع إلا ووصــل أحدهــم للاطمئنان عليها ، وإغداقها بالهدايا . الغريب أن هذا الحمل تســبب فى انقلاب العلاقة ـــ على غير المتوقع ـــ بين حيدر وعروسه . ورغم أنــه التزم الصمت ، ولم يوجــه كلمةً واحدةً تدل على غضب أو تــبرم ، إلا أن حاله لم يخف على أحد ؛ فقد بدا كأن مساً حوّله من رجــل فى

منتصف العمر إلى عجوز محنى الظهر، زاغت نظراته ، وطال تفكيره ، و لم يعد الدوار يسمع مداعباته مع بيللا .

قالت نعيمة التى تزور الدوار لوديدة :

ـــ كبدى .. حتى عند رحيل إقبال ، لم يكن على هذا الحـــال . ماذا جرى له ؟

أجابت وديـــدة ، وهـــى تفتـــت كســرة خـــبز للكتــاكيت أمامها :

ـــ هل يفكر فى رحيل إقبال يوم الولادة ؟ لكن كريمان عفيـــة ، وكل شئ نصيب .

احتارت نعيمة ، و لم تصل إلى نتيجة ، وطال صمت حيدر، حتى أن كريمان سألته ذات يوم إن كان لا يريد المولود ؟ فأجاب مترعجـــاً : "أريدك أنت" . لكن الإجابة لم تطمئن العروس، التى رصـــدت هزالـــه المستمر وابتعاده عنها ، بالانطواء التام على نفسه ، فى غرفة مكتبـــه ، أو البقاء لساعة متأخرة يعمل فى الخارج . توجست من حالته ، وأوعزتها إلى خوفه على ابنته من تغير الأحوال ، بعد قدوم المولود ، ووصـــلت إلى نتيجة ، لم تستطع الأيام تغييرها : "أن حيدر لم يرغب فى أطفال منها !"

لاحظت وديدة فى تصرفات كريمان ارتباكاً كثـــيراً ، خاصـــةً فى علاقتها ببيللا ، إذ بدأ ينمو بينهما نفـــور غير منظور ، أرجعته وديـــدة أول الأمر لتوتر الحمل ، الذى كثيراً ما يصيب النساء ، وحاولت تعويض

بيللا بِحنان أكثر ، لكن الأمر ازداد سوءاً ، باقتراب موعـــد الـــولادة ، وابتعاد حيدر الذى لم يعد يشاهد مع زوجته أو ابنته .

حين انطلق هدير دبابات الآلام الموجعة الــتى تفتــت عضــلات كريمان ، وتفتح طريقاً لخروج الجنين ، صـــرخت فى بيللا أن تبتعد، رغم أن الطفلة كانت تسألها عما بها ، وهى ترتجف خوفـــاً عليـــها ، دون أن تفهم ما يحدث . اختطفت وديدة بيللا مــــن الغرفـــة ، وأرســـلتها إلى جناحها، راجيةً من أطفالها إغلاق الباب عليهم حتى تعود ، وحــــاولت تهدئة كريمان التى تزأر بزئير مكتوم غاضب ، وتمزق حاشيةً فى يدهـــــا ، طالبةً حيدر ، الذى وصل مع انطلاق زغرودة طويلة تعلن عن وصـــــول المولود ســـالماً . حمل الأب الطفل الأحمر الشعر بين يديــــه ، وابتســـم لكريمان ، التى شعرت أن زوجها عاد إليها ، وقال :

ـــ يشبه أخى عبد الحكيم ، الله يرحمه .

انطلقت الزغاريد ، فأطارت صواب الأطفال ، وفكت أسرهم ، فوصلوا مهرولين ، ودللوا الطفل قائلين : حكم . وانسحب حيدر وحيداً إلى الصالة ، واستدعى فى دخيلته أخاه الذى رعاه فى صباه ، أثناء سنوات الحرب العـــالمية الأولى فى باريس. كان فى الثانية عشرة حـــين أرســـلته العائلة ليلتحق بأخيه عبد الحكيم طالب الطب ، ومنعتهما ظروف الحرب من العـــودة لسنوات ، اتخذه مثله الأعلى ، وقدره ، لكن دون أن يقلده. كانا مختلفين بشدة ، وكان حيدر يعرف أنه لا يستطيع أن يشبهــــه ، أو يصل إلى ما وصــــل إليه . تذكر أيضاً أنه كان قد عــــاد إلى بـــاريس

وحيداً ، حين استشهد عبد الحكيم فى المنتهى ، فلم ير الأحداث التى تناقلتها المنتهى عن الثائر الأسطورة ، الذى دمر معسكرات الإنجليز ، وترصد الجنود فى كل مكان ، ثم استشهد بعد ذلك ليحمى قريته من انتقام العسكر ، وطار جثمانه ليستقر ، وسط الغيطان ، وترجل من نعشه، ووقف على قدميه ثم دخل القبر ماشياً ، لتستوى الأرض وحدها ، وتعود لسيرتها الأولى . ويعود الثائر فى كل أزمة يحل المشاكل ، ويشفى الأمراض ، ويعين المحتاج، أو ينقذ مصاباً من كارثة .

تجسد له عبد الحكيم قائلاً مبروك المولود ، احتضنه ثم اختفى كما ظهر . قال له وهو يرحل : ليته يكون مثلك ، فاغرورقت عيناه بالدموع . ثم انتبه لكلمات وديدة :

ـــ زارتنى أمك فى منامى ، وأوصتنى أن يكون المولود الجديد عبد الحكيم !!

ربت على كتفها ومضى ..

أشرفت وديدة بنفسها على ترتيب احتفال كبير للسبوع ، أوصت بإحضار حلبة حصى ، ومغات هندى ، وبخور جاوى وأنبتت فول نابت فى ماء حمام حكم وثقبته ، ولضمته فى خيط ، وصنعت منه حلقات علقت واحدة فى صدره وأخرى فى صدر كريمان ، وصنعت للمولود حجاباً من سبع حبوب ، وانشغلت العائلة فى ملء أكياس الملبس والشيكولاته والنُقْل ، وفى المساء خطت كريمان فوق البخور المشتعل سبع مرات ، والجميع يرددون وراءها ، وقنوع الداية تلقنهم : الأولة بسم

الله ، الثانية رقوة محمد بن عبد الله .. ثم خطت فوق حكم النائم مستكيناً في الغربال بجـــوار السكين . بعدها هزته قنوع بعنف كأنها تغربل طحيناً، ثم تركته فوق الأرض ، ودقوا حوله الهون وحملوه ، بعـــد أن لقنـــوه أن يسمع كلام أمه وأبيه ، وخالته ، وسته ، فى زفة وهم يرشون الملـــح فى كل مكان ستخطو فيه ..

انتعشت كريمان ، ونسيت كل ما صدر منها فى شـــهور الحمـــل الأخيرة ، بعد أن عاد حيدر إلى طبيعته ، إلا شيئاً واحداً لم تســـتطع أن تدبره بكياسة ، هو خوفها غير المبرر من اقتراب بيللا من المولود ، وهـــو ما دفـــع بيللا إلى خوف غريزى ، لا تدرى كنهه، يجعلها تقـــف أمـــام سرير أخيها دون أن تجسر على لمسه ، وهى فى شدة التوق لملاطفته .

عاد إلى دفتر أوراقه ، متلهفاً على المعرفة .. مرتاحاً لما يستوعبه عقله بسرعة من معلومات فى العلوم المختلفة .. قرأ :

عدت إلى الكلية الحربية مدرساً . استعدت سنوات الدراسة ، زملائى وأساتذتى ، وطرائف الحياة الجماعية . أحلامى فى الجندية . طفل صغير ، لا يتجاوز الخامسة ، يربط فرع شجرة أطول منه بحبل ، ويعلقه فى رقبته . تنادى أمى تعال يا حضرة الضابط خذ طعامك ، أرد غاضباً عسكرى . وأسند إليها فرع الشجرة مهدداً . كبر معى الحلم ، وتشبثت به ، لم أحلم أبداً بغيره ، ربما من تأثير عمى رشدى ، وحكاياته الكثيرة عن الجيش فى طفولتى ، وانتظارنا الدائم له ، والفرح الذى كان يقلب الدوار ، ويبهج جدتى عديلة ، وجدى عبد القادر حين يصل . ربما كانت حكايات جدتى عن أبيها الحكمدار فى السودان . ربما ارتباط الجندية فى بيتنا بالعزة والكرامة ، لا أدرى . لكننى ما نسيت أبداً عودة عمى رشدى فى سنة ثمانية وأربعين ، ولا إصابته ، ولا ثورته وهياجه ، التى فتتت أكبادنا أثناء الحصار ، ورغبته فى العودة إلى

زملائه المجاهدين فى الفالوجا ، واصطدامه بعجزه بسبب الجرح . كنت فى الثالثة عشرة من عمرى . أتابعه من قريب ، ومن بعيد ، وأشعر بأزمته، وبأننى أفهمه تماماً ، وأكظم الغيظ ، وأمنى النفس بأن لى دوراً فى الثأر سأؤديه . ربما لا يكون هذا ولا ذاك . بل كان مجرد حلم لصبى أراد القوة والشجاعة ، دون إدراك ، فلما تعلمهما فى الجندية ، عرف أنه أصاب الهدف الذى يريد . ربما بسبب استشهاد عمى عبد الحكيم الذى يتكتمون حقيقة موته ، ويذكرونها بأسى . نشروا صورته فى كل الطوابق مجللةً بالسواد ، وقالوا فى الخفاء : حتى لا ننسى شهيدنا ، ولم يذكر واحد منهم شيئاً عن رسالته . لا أعرف من الذى وضع صورة سعد زغلول فى مكتب أبى ؟ ومن الذى وضعها فى غرفة الضيوف فى الفيلا الصغيرة ، بجوار رجال العائلة. يكاد غير المدقق أن يتصوره واحداً من أفرادها . أحياناً أدرك أننا وضعناها فوق الجدران لننساها ؟ كأن زمانها أبعد ما يكون عن الحقيقة ، وكأن الأحداث الدامية التى مرت فى بيتنا ما مرت . كثيراً ما تأملت صور الرجال الباهتة ، ليس بسبب التراب، لكن بسبب طبقات من نسيج النسيان ، تسللت فأخفت من وجوههم وهج الحياة ، فلم نرهم ، واكتفينا بأنهم هناك معلقون فى طرف خيط ، وإطار بيضاوى . ما الذى جعلنى أتذكر هذا ؟ رغبتى فى الجندية ؟ ربما ..

تذكرت وأنا فى طريقى إلى الكلية الحربية عائداً إليها مدرساً ، وليس طالباً ، ما كان يعجبنى فى المدرسين ، وما لا يعجبنى ، وتمنيت

أن أستطيع تجنب كل ما كان يثيرني ، وأنا طالب ـــ ترى ما الاسم الذي سينعتني به الطلبة ؟ احتلتني الأسماء التي أطلقناها على أساتذتنا : اللبان، الصياد ، عكننة . أسماء للسخرية البريئة . تخوفت قليلاً ، لكنهم أسموني العنتيل . لا بأس.. تلاحقت الأحداث حولي بسرعة . سنوات الوهج والمفاجآت على كل المستويات .

توقف أمام الأوراق . شعر أن ضوءاً يلح على عقله ، نظر إلى الأفق أمامه ، رآه مشتعلاً ، ويحرك في فؤاده أملاً . قام إلى المطبخ يحضر فنجاناً من القهوة ، مدركاً رغم الغموض ما هو مقبل عليه . خرج إلى الشكمة مسلماً رأسه إلى الفضاء الداخلي ، الذي توشك سفينته أن ترسو على قاعدته . رأى نفسه في الكلية الحربية ، يلملم ألم طعنة الانفصال عن سوريا . الطلبة السوريون يتمردون على المحاضرات ، يرفضون الانصياع لأوامر الكلية . يتجمعون في الحوش احتجاجاً .. الإدارة قررت جمعهم في أرض الطابور ، ونقلهم إلى معسكر أشبه بمعتقل لحين صدور أمر بترحيلهم . جاءه أمر بتفتيش الطلبة ، ومصادرة الممنوعات ـــ ترانزستور ، سجائر ، ولاعات ، وغيرها ـــ وتسليمها لقيادة لواء الطلبة. وقف قادة السرايا ينفذون الأمر ـــ أذكر . نعم أذكر ـــ أخذت الأشياء، ولم أسلمها ، وأخبرتهم بأن يأتوا يوم سفرهم لتسلمها مني مباشرة حفاظاً عليها . في نفس الليلة تولت الشرطة العسكرية ترحيلهم إلى معسكر خارج الكلية . تعرض الطلبة ، وهم يصعدون إلى السيارات للضرب والإهانة . يا إلهي ، بعض المدرسين شاركوا في هذا . لا

أصدق أن يضرب مدرس طالباً ، كان بالأمس فحسب تلميذاً له . ماذا فعلت لأرد عنهم هذا ؟

ـــ لم أفعل شيئاً ؟!

بحث فى الأوراق أمامه عن هذه الواقعة التى احتلت رأسه فلم يجد، أعاد تقليب الأوراق . قرأ عناوين كثيرة ، ليس من بينها ما حدث .

لا شىء فى ذاكرتى أزيد من هذا . انتهى المشهد بهذا الألم الذى ينز قطرةً قطرةً . فهل بدأ عقلى يكشف المخزون المر ؟ ربما .

مر بسرعة على رأيه الذى سجله فى حرب اليمن ضمن الأوراق . اكتشف أن الحرب لم تقنعه ، لكنه لم يعارضها :

كنت ناقداً ، ولست رافضاً لها . شعرت أن جزءاً كبيراً من الشعب اليمنى يريد أن يتحرر من الحكم ، ويثور عليه ، وأن من واجبنا حماية هذه الثورة ، ومساعدتها . لكن كيف ؟ هذا هو السؤال المطروح .

توقف طويلاً أمام ملاحظاته التى كتبها عن رفضه لأسلوب رشوة القبائل ، أو إساءة معاملة بعض اليمنيين ، وأحياناً استخدام أسلوب غير علمى فى إدارة القتال فى أرض جبلية ، أو تكسب بعض الضباط من السفر ، ودخول الوساطة فى اختيار الضباط المشاركين فى الحرب . وردد دون أن يدرى أنه كتب نفس الجملة بعد ذلك بصفحة واحدة :

كان الهدف كبيراً ، واكتسب الجيش خبرةً لا يمكن إنكارها .

قلب الصفحة ورأى نفس الكلمات مسطرةً أمامـــه . عـــرف أن خلايا عقله ، قد سمحت أخيراً بتسرب صور هو فى أشد الحاجة إليـــها ، وأن عليه أن يصدقها فوراً !!

دخلت أمينة إليه حاملةً طبقاً من الفاكهة ، ترك الأوراق من يده ، وقام يأخذه منها ، قبلت يده ، فقبل كتفها . تركته ومضـــت بعـــد أن ربتت فوق كتفه صامتة . تابع انصرافها ، يشعر بحنين غريب نحوها كلما رآهـــا . أخبرته وديدة أنها مربيته التى كانت تحمله كـــل يـــوم إلى دار ليرضع من نساء المنتهى ، وأن ابنها الوحيد سالم يسبقه فى العمر بسنتين ، وأنها تعيش الآن على أمل الاطمئنان عليه فى بغداد ، بعـــد أن انقطعـــت الرسائل بسبب الحرب مع إيران . أراد أن يقول لها شيئاً يطمئنها، لكنه لم يستطع .. فعاد يقرأ ..

تلاحقت الأحداث فى الفترة التى يقرأ عنها محمـــود فى يومياتـــه سريعة ، تفتت ما سكن لسنوات ، تقلب الأرض ، وتعيد تشكيل المجتمع. خرج الفلاحون المعدمون من الشرنقة التى جمدت حياتهم ، فراشاً حـــراً سعيداً ، لا يعرف إلى أين يتجه ، أسلم مصيره للنداء الذى منحه الحياة فى النور ، فى حين غرقت دواوير العائلات الكبيرة المجردة من السلطة الفعلية، والنفوذ بعد قوانين الإصلاح الزراعى ، فى الصمت .

كمن البعض استناداً إلى خبرة الثعلب فى الحياة ، وانتظاراً للآتى ، وحمل البعض العائلة ، وما تبقى من أموال إلى خارج البلاد ، كما فعـــل

الشــرابى الإقطاعى الوحيد فى المنطقة بعد أن وزعت الحكومة أرضه على الفلاحين ، وتحوصل الفريق الثالث بسبب ضيق ذات اليد النــاشئ عــن الوضع الجديد . إذ تحول اسم العائلة الذى كان يفتح الأبواب إلى عــائق يغلقها . انتشرت شائعات تقول أن عائلات الدواوير خزنــوا أموالهــم وذهبهم فى جرار دفنوها فى أقبية ، ودهاليز سرية ، لا يعرف الطريق إليها إلا كبير العائلة وحده .

احتمى أهل الدواوير بماض بات الآن غابراً ، احتفلوا فيه بالحيــاة بإسراف لم يبق منه شىء . وراحوا يحفظون حكايات هذا الزمــان عــن ظهر قلب ، ويلتقون فى مســاء الخميس من كــل أسـبوع فى بيــت أحدهــم، يجترونها باستمتاع وحسرة على مهل ، وهم يشربون القهوة . نسوا تدريجياً التفاصيل عمداً أو قهراً ، وأضافوا تفاصيل أخرى غــيرت ملامحها ، ومدت فى عمر القص دورات أخرى ، ينهونها فى كــل لقــاء بقصص جديدة عن تدهور الحال ، كما يرونه ، دون أن يجــرؤ واحــد منهم أن يجأر بشــكوى ، وأن يقول أنه وسط هــذا الفــرح الشعــبى الحقيقى بتــوزيع الأرض ، وتمليكها لصغار الفلاحــين ، والتعليم المجانى، لا يســتطيع هو أن ينفق على تعليم أولاده فى العاصمة بســهولة ، أولاً لأن الأرض مؤجرة بسعر زهيد ، وثانياً لأنه ببساطة لا يستطيع أن يتنازل عن مظاهــر الأبهة التى اعتادها فى رعاية الأبناء فى المدن الكبيرة من قبل . وشيئاً فشيئاً ، تقوقعوا حول ذواتهم ، واعتزلوا اللقاءات الجماعيــة إلا فى مناسبات الأفراح ، أو العزاء ، وحل محلها لقــاءات فرديــة متبــاعدة ،

حرصوا فيها على الظهور بمظهر غير المهتم ، وأنفقوا عليها – إذا ما فاجأهم – كل ما تحت أيديهم فى هذه اللحظة ، لإنقاذ المظاهر .

جاءت الضربة الأولى لهذا التحوصل الاجتماعى ، وبنيته الداخلية على يد طه المصيلحى ، الذى أصاب مجتمع أرستقراطية الريف بذهول حقيقى ، وغضب جنونى ، وأصاب الفلاحين بالدهشة ، حين قبل أن يزوج ابنته بنورة أجمل فتيات القرية على الإطلاق إلى نبيل بن إبراهيم حسن . ولم يشفع لطه أن نبيل هو أول البكالوريا على مستوى القطر المصرى ، وأنه قابل الملك فاروق شخصياً ، واستلم جائزة التفوق العلمى، وأن أهله يحتفظون بصورة تخلد اللحظة ، وأنه دخل كلية الحقوق التى تخرج فيها مصطفى كامل ومحمد فريد . إذ ظل نبيل هو ابن فلاح تملك عائلته كلها عشرة أفدنة .

الثورة التى قابلت بها العائلات موقف طه لم تكن بسبب أن نبيل لا يستطيع أن يمنح بنورة حياةً مماثلةً لحياتها ، لكن لأنهم أدركوا أنه وضع أول مسمار فى تفكك الطبقة ، وحماية وضعها الاجتماعى بالتبسط مع الفلاحين . لكن طه قال بصبر "هو ابن ناس طيبين" ، واضعاً بذلك الدستور الذى جعل دوار المصيلحى – رغم تناقضه المباشر مع ما يحدث خارجه – يبقى محتفظاً بنمو شبه طبيعى ، وبثبات دفة سفينته وسط التيار الجارف الذى حطم سفناً أكبر كثيراً منها . باختصار ، لقد تصالح عملياً مع ما يحدث على المستوى الشخصى ، والمستوى العملى . إذ داوم على تطوير زراعته ، والاستفادة من كل جديد

تطرحه وزارة الزراعة ، واستعان بالخبراء لمساعدته على زراعة سلالات جديدة ، وللحماية من الأمراض ، وجرجر القرية وراءه للاستفادة من هذه الخبرات، فتحولت المنتهى إلى الزراعة النموذجية فعلاً . ومع هذا لم يتسامح أبداً مع تقلص مساحة أرضه ، ومع تثبيت أسعار المحاصيل، وظل يقيم المشاكل ويقعدها مع الجمعية التعاونية ، ونجح فعليًا فى إرهاب موظفيها ، ووقفهم عن ابتزازه .

لكن نفاذ بصيرته ، ووضوح رؤيته ، لم يعفه من مواجهة التناقضات الداخلية فى عائلته ، بسبب انتمائه الطبقى من ناحية ، ومصاهرته للعائلات الكبيرة فى المنطقة من ناحية أخرى . وإن كان قد اعتاد على مواجهة ثورة عائلته ، باتخاذ طريق مغاير فى الحياة منذ وعى وجوده ، واختار أن يصبح تاجراً للحبوب ، وأن يشرف على زراعة أرضه بنفسه ، مديراً ظهره لمظاهر الترف ، والفخفخة التى كان يعيشها أبوه وسط سلطة العمدية ، حتى أتت به الصدفة وحدها عمدةً للمنتهى فاتخذ منهجاً ، ودستوراً مختلفاً ، التصق فيه بالفلاحين ، وعمل وسطهم يداً بيد ، فاكتسب شعبيةً ما عرفتها المنتهى فى تاريخها قط ، ولا عرفتها الناحية كلها . إن كان هو قد اعتاد ذلك ، وأرغم عائلته على احترامه، فإن بنورة واجهت منذ اللحظة الأولى لقبولها هذا الزواج معركةً مع أختها قمر استمرت مدى الحياة .

إذ فوجئت قمر التى تزوجت من فريد شوكت سليل الحسب والنسب ، بعد انهيار ثروة عائلة زوجها ، باضطرارها للعيش بدخل

موظف عادى بمرتب ضئيل فى وزارة المالية ، فى حين انتعشت الحياة المادية لبنورة ، بالنجاح الذى حصده نبيل ، بسبب مركزه الوظيفى الرفيع، كصحفى يساند النظام الجديد ، فصبت جام غضبها على ما فعلته الثورة بأولاد الناس فوق رأس بنورة ، فى كل لقاء يتم بينهما ، حتى أنها حاولت جاهدةً أن تمنع أختها من رعايتها ، وزيارتها ، وحاولت أن تعطى لأولادها حقوق السيادة على أولاد بنورة ، التى ردت على محاولات كسر الأنف هذه الصاع صاعين ، حين أخبرتها ذات يوم أمام العائلة كلها أن أجداد أولادها قد يكونون فقراء بالفعل ، لكن لم يصل بهم الحال للاستدانة من أحد ، مشيرةً بذلك إلى الأزمة التى أدت إلى حجز البنك على ثروة عائلة فريد شوكت ، وبيعها فى المزاد العلنى ، وفرض دين استمرت قمر وفريد شوكت فى تسديده للعائلة لسنوات كثيرة بعد ذلك . وانتهت المشاجرة إلى تحديد العلاقة بالتحية فى المجالس العامة ، و لم ينته أبداً إضرام النار تحت الرماد فى المجالس الخاصة .

وكانت الحكاية قد بدأت فى صباح ربيعى لعبت فيه الصدفة دور الخاطبة . كان نبيل عائداً من القاهرة ، والشمس تشرق بألوان مازالت شاحبة . توقفت العربة عند المحطة ، وسأله السائق إن كان يريد تاكسياً لدخول القرية ، لكنه شكره ومضى يقطع الطريق ماشياً . كيلومتران اعتاد سيرهما وحيداً . خايلته خضرة الجزيرة التى طرحها النهر بعد أن شح ماؤه . جذبته تماوجات جدائل شعر البنت التى اتسعت فكشفت عن الأرض المغلفة بالندى والطزاجة ، ثم انضمت

فأضفت عليها الغموض . قرر النزول إليها متجنباً انحدار الطريق الشديد ، لاحظ الحصان الواقف بجوار الشجرة ، وسمع صوت حركة صادرة من الخميلة . تمهل ، لكن الوقت كان قد فات للتراجع ، وظهرت بنورة المصيلحى مثل شهاب يلمع فى الغبشة ، تأملته بنظرة ثاقبة غير مترددة ، وانتظرت بثقة أن يعلن عن نفسه .

تقدم منها ، ثم توقف على بعد خطوات . حياها برأسه أولاً ، وقال وقد باغتته المفاجأة :

ـــ آسف . أرجو ألا أكون قد أزعجتك . نبيل إبراهيم ، صحفى.

ـــ لا .. تفضل ، كنت على وشك إكمال رحلتى بالحصان .

ـــ أنت من القرية . أظن أننا تقابلنا من قبل ؟

ـــ نعم . بنورة من بيت المصيلحى .

ـــ بنت العمدة ؟

ـــ لم يعد للعمدية فى مصر كلها معنى .

ـــ لكن أباك عمدتنا ، ولم يكن لنا عمدة أبداً غيره .

ـــ أنت مجامل ، أشكرك .

سحبت الحصان ، وصعدت فوق المنحدر بهدوء ، ثم انطلقت تركض على الطريق الإسفلتى ، واختفت فى الأفق ، والشمس تكشف

عن خيوط جديدة تراوغ المنتهى .

سأل نفسه : ما هذا الارتباك أمام فتاة صغيرة ؟ فتاة ؟ بل فلقة قمر .

وصل إلى الدار دون أن يشعر بطول المسافة أو يتذكر إرهاق السفر ، والسماء تكشف عن جمال ما عهده فيها ، والعجل الصغير المولود من أمه الشمس يسرع ليلون أرجاء المنتهى بالأصفر والأبيض ، طاردته عيناها العسليتان ، وشعرها الكستنائى الطويل ، المعقود بإهمال بشريط ساتان خلف ظهرها . لم يعرف أنها صورة من أمها وديدة فى شبابها ، وأنها من بين بناتها الأربع قمر وكوثر ونازلى التى تشبهها بهذا الشكل ، رغم الاختلاف الواضح فى الطول ، إذ ورثت بنورة طول عمتها نعيمة .

قامت أمه ترحب به ، احتضنها فصرخت أن يبتعد ببدلته عن جلبابها المعفر بالدقيق . قبل يدها وهو يسألها :

ـــ بنورة بنت العمدة مخطوبة ؟

قالت وهى تفلفص من بين يديه : يريدها ابن عمتها ، وأم عبد الله تردد أنه لم يخطبها ، لكن أنت تعلم الأقارب .

التفتت اليه كأنها تنبهت لشىء لم تكن قد لاحظته ، وسألته :

ـــ لماذا تسأل عن بنورة ؟ وأين رأيتها ؟

قال : لا .. قابلتها على الجسر ، فوق الحصان .

ـــ حلوة ، لكن بعيدة يا نبيل . لا احنا من ثوبهم ولا هم من ثوبنا.

ـــ الدنيا تغيرت .

انتظرها فى الفجر عند الجزيرة أمام شجرة شعر البنت ؟ قال لها دون مقدمات :

ـــ ليست صدفة ، أتيت لرؤيتك .

أجابت ، وقد باغتتها المفاجأة :

ـــ أتقطع الطريق على بنات الناس ؟

ـــ حاشا لله . أردت أن أسألك إن كنت مرتبطة ؟

نظرت إليه طويلاً دون إجابة ، وقالت وهى تلوى عنق الفرس باللجام فى يدها ، وتلكزه فى جنبه :

ـــ لا .

خيل إليه أنه رأى ابتسامةً ناعمةً كشفت عن سنتين متعانقتين .

انتشر الخبر فى المنتهى . لم يصدق عاقل واحد ، حتى الذين يعرفون طه جيداً تساءلوا لماذا يقبل هذا الزواج ، وابنته جميلة وذات

حسب ونسب ، ويتصارع عليها شباب العائلة ؟ قال طه لوديدة ، وهو يجلس على المصطبة فى فناء الدار الداخلى :

ـ أعجبنى . جاءنى صباحاً فى الشكمة ، واستأذن فى الجلوس معى، ثم دخل إلى الموضوع مباشرة ، قال لى : لست غريباً عنك . دخلت الجامعة لأننى أول دفعة البكالوريا ، ليس لحسب أو مال ، وتفوقت ، وتخرجت أول دفعتى . اخترت العمل فى الصحافة ، وأرى فيها مستقبلاً معقولاً يتماشى مع رغبتى فى متابعة ما يحدث فى البلد ، والجريدة تعطينى فرصاً كثيرةً والحمد لله . باختصار أريد الزواج من ابنتكم الصغرى بنورة . لا أدعى أننى سأهبها حياةً رغدةً وإنما حياة كريمة. أعرف أنه لم يحدث أن ناسب العمدة عائلةً أقل منه جاهاً أو مالاً، لكننى أشعر أنك لن تخذلنى . أتيت وحيداً لأجنب أبى وخالى موقف الضعف ، فإذا قبلتم جاءا .

أضاف طه ، وهو يتناول فنجان القهوة من يد وديدة :

ـ كنت أرقبه وهو يتكلم ، وأتأمل جلسته الواثقة ، وإحساسه الشديد بالكرامة ، قلت له : اشرب قهوتك ، نحن يشرفنا نسبك . أما رأيى فستعرفه بعد أسبوع ، وإن كان لك نصيب فيها أتيت وأهلك فى عطلتك القادمة .

استمعَت إليه ، تريد أن تفهم بكل كيانها أبعاد الموقف الذى اتخذه. كانت تشعر أن طه يريد أن يهرب ابنته من العائلة ، لكن شباب العائلات الكبيرة يودون خطبتها ، فلماذا هذا القرار السريع ؟ لكنها لم

تسأله .

قال طه : تعبت من زواج البنات فى العائلة يا وديدة . أريد لبنورة أن تكتشف فى الدنيا عالماً آخر ، ونبيل شاب عاقل ، ورزين ، وحليوة ، وأظنه أعجبها . أما أختى نعيمة ، فأنا كفيل بمراضاتها . بنورة لم تقبل حلمى فى أحد الأيام . عاشت معه كما عاشت مع أخويها عبد الحميد ومحمود ، وأنا الآن أشيخ ، وأريد الاطمئنان على وجودها فى بيت زوجها .

وخز خيط النور الأول الذى وصل المنتهى نوم الطيور . تمطـــت أجنحتها ، تزيح الدفء عن الجســد ، وأفسحت مكانـــاً لقشعريــرة نشاط، كى تتسلل إلى الروح . انفلتت نقنقة خافتة ، والقريــة ترســل طقوس صحوها إلى الفضاء . كان فجراً ليس مثل كل فجر . شعــرت باختلافه الكائنات جميعها . قامت وهاماقا موجهة نحو السماء ، تتبــع ذبذبات تدرك ، ولا تســمع . كانت غيمة . ليست غيمة ، هى تتــف بين الأبيض والرصاصى ، وصفار مشــوب بحمرة خجــل ، تتلــوى ، تخترق الكتل الهلامية التى تتشكل إلى عالم خرافى . حددوا ملامحه بعــد لأى . تصوروه مدناً ، وصحارى ، وبحاراً ، أنهــاراً وبشــراً ، وأخــيراً واحة.. واحة من ســراب سرمدى ، فى كون آخر ، غافلهم ، وانفلت ، وتاهت ملامحه وتحورت ، ثم عادت تتشكل من جديد ، والبرتقالى ينبض، هنا وهناك ، حتى اتضحت الصورة حين اكتمل عدد الفلاحين ، وانتبــه الكل صغاراً وكباراً إلى العصافير الخضراء التى تــزور المنتــهى ، كلمــا استشهد الأبناء ، وقبل أن يغيبوا فى جب الموت إلى الأبد . كانت الحرب

بعيدةً ، فلم يفهم الأهل سر الزيارة . راحوا يكذبون قلوبهم التى ترى عيون الشبان ترسل نشوة الرغبة فى الحياة ، رغم أسر الموت .

رفعوا الأيادى ، وفتحوا أحضانهم ، حين تأكدوا أنهم هم الشهداء.. طالبوهم بالاقتراب أكثر وأكثر ..

رقصت العصافير فى مكانها ، حبيسة غلالة شفافة ، فوق بخار . حاولت اختراق المدى المفتوح ، فتخبطت فى حائل لا تراه . تحولت سماء المنتهى إلى سجن كبير ، دارت فيه العصافير ، وأجنحتها مغلولة بقيد ، جفت أجسادها من الألم ، صرخت :

ـــ ساعدونا . فكوا أسرنا .

قال الفلاحون : ما بكم ؟ من قيدكم ؟

قالوا : حملتنا أحلامنا فى الصباح ، وقتلتنا فى المساء .

نظر الفلاحون حولهم غير مصدقين ، قالوا :

ـــ الحلم نصنعه بأيدينا .. هذا زمن تحقق الأحلام ، والبقاء فى سمائنا ليس قيداً !!

ـــ لم نختر السجن . أردنا المشاركة .

احتار الأهالى ، وقفوا فوق أسطح البيوت ، واعتلوا الأشجار لكى يتحققوا مما يرون .

اقترب أبو مندور من الواحة ، كلما تناقصت المسافة ، انفتحت

فيها طاقة صغيرة ، توافدت إليها العصافير ، واتضحت ملامحها . كانت كلها ملامح مندور الذى اختفى وزملاؤه يوماً قبل أن يبزغ نور الفجر فى الأفق ، حمله العسكر إلى مكان مجهول .

رأى الفلاحون تفاصيل الغيمة . أرض خضراء ، وسط صحراء مقفرة ، سألوا :

ــ من أنتم ؟

قال مندور : نحن سجناء الكلمة . سجناء الحلم الوحشى الذى يخترق الأفق ، ويبنى عالماً حراً .

قال الناس : تعلموا الصمت ، وعودوا لنا . صرخت العصافير :

ــ سنقولها لأننا نعشق الأرض ، وإن حملنا موتنا فوق أكفنا . سنقولها لأننا جذور الثورة ، بذور الثورة ، وقود الثورة ، ولن نسمح لأحد أن يحرمنا المشاركة فيها بطريقتنا ، وليس كما يريدوننا أن نكون .

قالت المنتهى ، التى لم تلاحظ أن أبا مندور نكس الرأس ، وانسحب :

ــ الأرض معنا ، والأفراح فى كل مكان . لماذا الكلمة التى تغضب ؟ اتركوها لهم ، وانعموا بالراحة والحرية .

شهقت العصافير :

ــ اعطوا للثورة دماً آخر ، لا تحقنوا وريد الخوف بالسكوت .

هصرت الشمس الغلالة ، وانتصبت مارداً جباراً ، فى السماء . اختفت العصافير خلف الضوء الحارق ، ونسيت القلوب مكانها .

تسللت إلى المنتهى أخبار السجون التى ظهرت فى الواحات الغربية، بعد مسيرة ألف كيلو ، ويزيد . قال البعض أنها بجوار الغرود ، حيث بحر الرمال الأعظم الذى ابتلع يوماً جيش الغزاة ، هناك بجوار الاستراحة العتيقة ، حيث كان الملك ــ أى ملك ــ يرتاح من رحلات الصيد ، ويستحم فى البئر الأحمر ، الذى يفيض من الأرض ساخناً ، بلون الدم .. يعيشون هناك .. يزرعون الصحراء ، ويدافعون عن الثورة بالكلمة التى لا يملكون غيرها ، وينتظرون .

قال البعض : أوهام .. هذه أوهام .. وتناسوا رحلة "أم مندور" التى تقطعها فى قطار هزيل إلى القاهرة ، تتوه بعدها فى الزحام ، ثم تركب قطاراً آخر أكثر قدماً إلى أسيوط ، ثم سيارةً هرمةً ، تقطع بها الرمال ، التى تفور أحياناً ، وتثور أحياناً ، وتمنع الرؤية حتى تصل إلى الواحة .. خمس سنوات ، والرحلة هى الرحلة ، والمعالم لا تتغير على الطريق ..

انشغل الفلاحون فى مفاجآت الفرح الذى علقت مصابيحه فى سماء المنتهى ، تبرق كل يوم بأمل جديد فى حياة جديدة ، أنستهم ما تساقط فى الطريق من أبناء للمرة الأولى منذ زمن بعيد . كان العالم عالمهم ، تعلموا غير مصدقين أن يحلموا ، وأن يحققوا الأحلام ، انتظروا كلمات الزعيم ، وحفظوها ، وذابوا معاً فى نشوة قالوا إنها الكرامة .

تعودوا ظهور واحة السجناء ، فى السماء قبل الفجر ، مثل

السراب ، كلما اختفى واحد من شباب المنتهى فى سيارة الشرطة ، تأتى العصافير لترقص رقصتها ، وتضرب بأجنحتها الفضاء ، وتعصر القلوب المتعطشة للأبناء ، فيصدقوا وجودها ، حتى إذا طلعت الشمس، هشت اليقين بها ، كف الناس عن الرغبة فى الرؤية ، والرغبة فى المعرفة. شاهدوها ، وما أبصروها ، و لم يلاحظوا أخاديد الآلام الهائلة التى حفرها السجن فى وجوه العصافير .. وما عادوا يسمعون لها صوتاً .

قالوا ، وهم يستعرضون الأرض التى امتلكوها ، والمصانع والمدارس والمستشفيات .

ــ لم نعد نفهم ماذا تريدون أكثر مما نحن فيه ؟

قالت العصافير ، وهى تختفى : قتلتمونا مرتين .

لكنها رغم الألم واليأس الهائلين ، لم تكف عن زيارة المنتهى ، وسط حائل شفاف حجب الصوت عن الأهل والأحبة .

جلست وديدة وحيدةً ، فوق المصطبة فى حوش الدار ، تبث اللبن الرائب فى الردة لأكل البط الصغير ، وتنتظر موعد غداء محمود . خلا المكان من الجميع . ذهبت مساعداتها بعد أن انتهى العمل الصباحى مبكراً، حتى أمينة التى لم تكن تبتعد عنها ليلاً أو نهاراً عادت إلى دارها .

لم تعد أمينة أبداً هى أمينة التى عرفتها وديدة أم عبد الله طوال حياتها ، كانت كمن يخفى سراً يخاف أن يطلع الناس عليه . لم تعد تحزن لعودتها إلى الدار كل يوم ، ولم تعد وديدة تحتاج أن تحثها على

الخروج من الدوار . للمرة الأولى تصمت ، وتطيع ، ثم تذهب . حدث هذا التغيير لمجرد أسبوعين قضتهما وديدة فى القاهرة مع أولادها للعلاج .

اكتشفت أمينة خصوصيتها داخل الجدار الحى فى دارها الصغيرة ، وكانت تظن أن مالها هو فى هذا البناء ، وهذه المرأة وهؤلاء الأولاد ، والأحفاد . لم تشعر أبداً بالغربة عنهم ، لكنها تعرف الآن أنها تمتلك شيئاً خاصّاً مغايراً ، ليس مرتبطاً بآل المصيلحى .. شئ ألهاها عن التفكير فى ابنها سالم ، وفى وحدتها ، وغربته فى العراق وسط الحرب مع إيران ، التى لم تسمع عنها فى حياتها من قبل .

تلطعت عينا وديدة فوق جدران الحوش . صَمْتُ الطوابقِ كلها ، ذكرها ببيلا ابنة حيدر ، التى تقسم فى كل زيارة لها أنها ستعود لتعمر بيت أبيها :

ـــ كبدى يا ابنتى ، عشتِ غريبةً طوال العمر .

تذكرها فى اليوم الأول لدخولها المدرسة ، حين سألها مدرس الفصل عن اسمها ، فأجابت بتأفف شديد ، واستنكار :

ـــ أنا بيللا بنت سيدك حيدر .

ضحك الرجل قائلاً :

ـــ سيدى وتاج راسى ، اجلسى .

ظلوا أياماً يتندرون بالواقعة ، ويعيدونها فى كل وقت ، وكان يحلو لطه أن يناديها ، ويجلسها فوق ســاقه ، ويدللها ، كما لم يدلل أحداً من أبنائه ، ويقول لوديدة ضاحكاً :

ــ كان لابد أن ترضعيها ؟ كنا زوجناها لأحد الصبيـــان ، وإلا كنت تزوجتها أنا !!

تذكرت وديدة زواج حيدر من كريمان ، وميلاد حكم ، وكيف نسيت كريمان الكل ما عدا صغيرها بعد ذلك ، وتوقفت عن الاهتمـــام ببيللا ، حتى أنها حاولت أن تقص شعرها ، تخلصاً من تضفيرهـــا كـــل صباح ، وهو ما دعا وديدة للتدخل لإنقاذ الشلال الأســـود الربـــانى . كتمت وديدة توجساتها ، حتى فوجئت بنعمة تفجرهـــا أثنـــاء إحـــدى زياراتها للدوار :

ــ هذا الوضع لا يعجبنى يا وديدة . زوجناها وهى تعلم أن لـــه ابنة.

هزت وديدة رأسها دون كلام ، واستمرت فى تصفيـــف شعـــر بيللا.

ــ فريتى كبدى ، تكلمينه أنت أم أكلمه أنا ؟

ــ البنت يا نعيمة فى عرضك . اذهبى يا بيللا وانتظرى أبـــاك فى الشكمة .

التفتت إلى نعيمة :

ـــ مهموم يا حبة عينى من يوم التأميم . والمكتب بـــلا زبـــائن . أخبرنى الصبيان أن التجارة إذا ركدت تجرجر المحاماة من ورائها .

ـــ تلم حالها يا وديدة ، كلنا كنا فى رغد وتغيرنا مع الأحوال .

نزلت كريمان إلى الحوش تطمئن على هدايا زيارتهـــا لأهلـــها فى القاهرة ، جلســـت أمامهما فى الجهة المقابلة ، وأخذت حكـــم الـــذى اعتلى كتف مربيته رغم أنه تجاوز الرابعة بجوارها ، سألت فى ضيق :

ـــ أين ذهب السائق ؟ نريد أن نصل مبكرين . لم أعـــد أطيـــق الحبس هنا ، لو تزوجت الواحدة منا "عســـكرى" فى القـــاهرة؛ كـــان أحسن من شغل الفلاحين وهمومهم .

استفزت نعيمة :

ـــ وما منعك ورماك على الفلاحين وقرفهم ؟

ـــ عيشة والسلام .

قالت وديدة : البطر على النعمة سوء يا كريمان .

قالت كريمان : لماذا نبقى هنا ؟ حيدر محامى ، يفتـــح مكتبـــاً فى القاهرة أحسن ، الأرض مؤجرة ، والفلاح راكبها وانتهى الموضـــوع ، الدوار كئيب ، عتمة من المغرب ، وماء من الطلمبة ، ونزح مجـــارى ، وناموس . ليت حيدر يوافق على نقلنا لمصر .

قالت نعيمة : (اللى شايل قربة مخرومة .. . !!)

دخلت ستيتة ، وكريمان توشك أن ترد ، قائلة :

ـــ السيارة جاهزة .

مرت الأيام ، وتمكنت كريمان من إقنـــاع حيـــدر ببيـــع الأرض والانتقال إلى القاهرة . تنهدت وديدة تبعد آلام الذكرى ، سمعت أصوات ركض فى الدهليز ، فانتبهت إليها مستطلعةً ، ســـعيدةً بالقـــادم الـــذى سيكسر الملل . دخل حفيدها علاء ، وارتمى فى حضنها ، فلما حـــاولت تقبيله ، ابتعد قائلاً :

ـــ لا يانينا ، أنا كبرت !

وضحكت ليلى ، أرملة عبد الحميد ، وهى تقبل يد حماها ، قائلة:

ـــ حد يكبر على جدته ؟ تعال هنا .

قالت وديدة، التى فوجئت بدخول ليلى وبنورة والأولاد :

ـــ يا صلاة النبى ، مبكرين على غير العادة .

قالت بنورة : عندنا عطلة قلنا نقضيها معكم . أين محمـــود ؟ إن شاء الله يكون بخير .

ـــ بخير والحمد لله .

حانت الساعة .

دروب القرية المتعرجة مزدحمة بأصوات عـــودة مبكـــرة ، قبـــل المغرب. همهمات تتوافد من كل صوب ، همـــــهمات ودودة ، ولـــودة بالكلام . عن بعد ؛ أشـــباح تتأرجح ، يلفها تعب النهار . ولد يزيـــح أمامه بطات صغيرات "تحاجى" أمهن عليهن من كل جانب . يهشـــــهن أمامه إلى باب الدار ، يدخلن فرحات مرتعشـــات الذيـــول ، دجاجـــة تصيح كاك ناهرةً كتكوتاً شارداً . أنفـــاس مترعـــة بالغبطـــة تســـفح الابتســـامات ، وتهرقها ، ويظل رنينها عالقاً يمطر الدفء على السائرين. كهول افترشوا الحصير أمام الدور . كوانين تطقطق وتأكل الحطب . النار صلت فى العرصات محاشر[1] الأرز ، والطبالى تدحرجـــت إلى وســـط الدور. الحمام يرفرف ، يحوِّم فى جماعات مثلثة ، يحرث السماء ويعـــود للانطلاق نحو الأفق كسهم شحذ سنه على حجر صلد ، ثم يعاود الظهور

---

[1]) محاشر: صوانى

فوق سقف القرية بعد قليل . قبرات وزرازير تستحلف الضوء أن يبقى، ويعطى للعائدين من الحقول الفرصة ليصلوا بسلام ، قبل موعدهم اليومى بقليل . الليلة ليست أى ليلة ، صرير مبكر ، ونقيق مبكر، وعصافير بالمئات ، تشقشق فى صوت واحد متقطع ، وهى تعتلى خيوط السلك التى امتدت للمرة الأولى من أعمدة الكهرباء ، تجرب أن تقف فوقها ، ثم تطير جماعات ، وتختفى وسط الشجر ، مطلقةً ضجيجها اليومى البهيج . النهار يشيح بوجهه بخجل احمرت له السماء، ويفسح الطريق لليل . أفواج الفلاحين تخطط الأرض الممهدة فوق الجسر بمحاذاة النهر . جاموس ملول لا يعرف شيئاً عن الحدث الكبير ، حمير محملة بالبرسيم ، وبقر يفور الزبد فوق شفاهه السوداء الغليظة . شجر شعر البنت يمسح وجه النهر ، تاركاً جروحاً تلتئم بسرعة النسيم ، والصفصاف ناشراً أجنحته الصغيرة ترفرف .. أبواب الدور مفتوحة للأخبار ، والكلاب تنبح ، ثم تزوم وتصمت ، تدور حول ذيولها ثم تجلس تحت النوافذ . كروان يشرخ صمت السماء "لك لك لك لك" . شهور منذ دخل العمال المنتهى ليحفروا الأرض بجوار الطريق ، وينصبوا أعمدة الكهرباء . حوم الفلاحون حولهم بالأسئلة ، ناوشوهم بأكواب الشاى وأرغفة الخبز الطرى ، وقطع الجبن القريش ، ومنحوهم فى بعض الأيام عسلاً أسود . أكلوا معهم جذور اللفت المخلل ، وفحول البصل والفجل .

قالت صبحية لرئيس العمال ، حين شرع يخطط بالجير قريباً من دارها :

ـــ والنبى تزحزح العمود حد الدار .

قال ضاحكاً بصخب ، وهو يرتشف كوب قرفة ناولته له :

ـــ أى عمود فيهم ؟ هو عمود الدار بطّل يشتغل ؟!

لكن العمود بقى على حاله كما خطط له المهندس ، ونامت البلدة تحلم كل ليلة ، وفى الصباح تسأل : متى ؟

كسبت القلوب الشافية الفرحة ، وأخرجت بيوت الأزقة التحايا، كأنما زفة عروس ، وغنى الصعايدة مع الفلاحين :

هيلا هيلا ليصا

يابت ياللى بتحبى ... مالك كدة ماشية تدبى
أنا لا فى جيبى ولا فى يدى ... هيلا هيلا يا الله
يابت ياللى بتعومى ... استنى لما اقلع هدومى
ده انا سمارة من يومى ... هيلا هيلا يا الله

سهروا على المصاطب بعد آذان العشاء ، يتصورون شكل القرية بعد دخول الكهرباء . قال محمود الفحام :

ـــ غدا تصبح المنتهى مثل المدن ، ماكينات كهربائية ، ومصانع

ولمبات فى البيوت بدلاً من الجاز والصماد والهباب ، ويمكن سينما !

علت الضحكات ، تذكر عبد المهيمن أمراً ، وسأل بصوت خافت لفت لرعشته الانتباه :

ـــ أين تسكن الجنية إذا أضاءت الكهرباء الليل ؟

قال مسعد : صحيح ، النور يحرقها .

قال أبو كحيلة : أعمدة النور ستلف الناحية . والغيطان ستبقى كما هى ، والجنيات تعشش تحت السواقى والجسور ، مالنا ومالهن ، يكفينا الله شرهن .

سأل مرسى بشغف : متى تضاء كشافات الشارع ؟ العمل انتهى، فلماذا الانتظار ؟

قال بسيونى غفير طه المصيلحى : سمعت من عبد الله المصيلحى شخصيًّا أن الكهرباء ستدخل يوم الخميس ، قبل فرح محمود ابن العمدة بأسبوع ، وأن التجارب ستبدأ فى النهار قبل ثلاثة أيام .

وقد حدث . نورت الأعمدة عند صلاة ظهر الثلاثاء لمدة خمس دقائق ، هلل الناس رغم أن الضياء كان باهتاً ، و لم يستطع أن ينافس الضياء الربانى ، ثم عاد يشع فى اليوم الثانى والثالث . اقتربت اللحظة المنتظرة ، "عدى" النهار الذى حلموا برحيله .. الريح تمسح خطواتهم من فوق السكة ، والأقدام تخطها بشقاوة . قرروا دون اتفاق مسبق أن يقفوا تحت الأعمدة ساعة آذان المغرب، حتى لا تفوتهم اللحظة .

وصلوا قبل الميعاد بوقت كاف ، إلا سعفان ، لم يستطع أن ينهى الرى فى غيطه إلا قبل الغروب بدقائق . عبر شرايين الحقل التى دهسها آلاف المرات راضياً عن تقسيم فنواته الهندسى الدقيق ، تأملها بشغف المحب . فرحته بزراعة النصف فدان الذى أخذه من الثورة لا يعادلها حتى ليلة "دُخلته" على نفيسة ، ولا رزقه أولاداً ثلاثةً جاءوا كسراً فوق رؤوس بعض، حتى بعد أن قطعت نفيسة الخلف . حمد الله على عطيته ، وعلم أولاده فى المدارس . حلم لم يخطر على بال جد جده الذى بالكاد أدخل حفيده الكُتاب ليحفظ جزء "عم" . قضى النهار يروى ، قال لنفسه : البقرة موجودة ، والساقية موجودة ، ولا لزوم لأجرة نفر . دين فى رقبته يسدده بالعمل المتصل عند الخلق ، ويترك لنفيسة تدبير الحال فى الغيط حتى يعود إليها بعد شقاء النهار ، فيخلع جلبابه الكالح، ويعمل فى أرضه ، وتعود هى بالبقرة للدار ، حتى يستطيع تدبير نفقات الأولاد الذين سيرحلون بعد سنوات إلى القاهرة ليلتحقوا بالجامعة . "ياسلام لو يتحقق الحلم !!" . شرق بأمنيته ساعة لقاء السيل المندفع من النهر بفصوص الطين ، زغردتها حين تنتفش وتطفئ عطشها فتنتشع النباتات بالندى .

اشتهر حقله بالنظام والنظافة ، ينقيه من الحشائش ، ويقلبه بعناية حتى عرف "بالحرتفة" [1] وسط الفلاحين . يضحك على ملاحظاتهم قائلا :

---

[1]) الحرتفة : شدة النظام .

ـــ حد طال ما طالنا ؟!

سعادته أثناء جمع المحصول لا تزيد كثيراً عنها ، وهـــو يعـــزق أو يحرث ـــ هذه توصل لتلك كانت فلسفته ـــ نظر إلى عبث الرصـــاصى الذى يتلوى فى السماء ، ويبتلع البرتقالى . وتذكر أنه تأخر عن موعـــد وصـــول الكهرباء . غذ السير ليلحق بالجماعة . الشمس تسحب أشعتها وتترك براحاً دافئاً تنفثه بمحبة ، لهب يســـافر ولا يمـــوت ، شخصـــت مخلوقات صغيرة إلى السكون واستسلمت لرحيل الوميـــض . صدّقـــت الثعالب أن وعداً قادم ، فأخرجت رؤوسها من الحفـــر متلصصـــة ، ثم عادت مترددةً إلى الجحور . شاغبت الريح الصفصاف ، فعادت عيـــون الثعالب لترنو إلى الفضاء المسحور بالنبوءة ، وسرت فى الحقول نـــداءات لمخلوقات لم يسمعها سعفان . حمل فى المقطف المربوط بحبل فى كتفـــه : خس وز [١] ، وفجلاً ، وأنتود المحراث [٢] . خايلته أشجار المانجو عـــن بعد ، قبل أن يصل إلى طـــريق المعاهدة ، المحاذى للنهر ، القرية البعيدة ما زالت باهـــتة تحت الضوء الراحل بسرعة . أخبرته نفيسة أن العمود الذى جاء بالصدفة أمام بابهم سينير الدار كلها ، خاصة إذا فتحوا الشبـــاك ، وأن سلك نور واحد يمتد إلى الحوش يساعد العيال على المذاكرة . ردد : "نعمة ، والله نعمة" . لاحظ هرج سرب أوز يسرع بالسباحة فى النـــهر نحو القرية يقلقه شئ ما ، قال : حتى أنت متعجل !!

---

[١]) خس وز: نبات برى يشبه الخس .

[٢]) أنتود المحراث: قضيب خشبى يستخدم لربط جزئى المحراث .

ــ مساء الخير ياأبو سعفان ، شيِّلنى الله يسترك .

التفت إليها ، رآها منحنية فوق "الزلعة" [٣] على حافـــة النـــهر وسط الغاب . لم يعرف صوتها ، رغم أنه يعرف نساء المنتهى كلـــهن ، فأجاب قبل أن يتبين ملامحها :

ــ مساء النور ، حاضر .

قبض على أذن الزلعة بيد ، وعلى قعرها بيده الأخرى ، وســندتها هى بكفيها ، ثم رفعاها معاً ، فوق الحواية [٤] التى تعتلى رأسها . اهتزت فاندلق الماء ، وأغرق جلبابها المشجر بورود صغيرة . تأمل القماش ، الذى شرب دفقات الماء بسرعة ، وذرفه دموعاً تتلألأ . شريط الخرز يلمع فوق كشكشـــة القماش على صدرها ، الفتحة المربعة تظهر عنقاً يلفه عقد من الكهرمان الخالص . هاله جمال عينيها الفاجرتين . لم يستطع أن يســـألها "بنت من أنت ؟" . ساعـــدها على استقرار "الزلعة " الـــتى كـــادت أن تقع، فصرخت من طرطشة الماء فوق وجهها ــ فلقـــة قمـــر ــ ردد فى نفسه ، وهو يزداد تمسكاً بجسم الفخار المنتفخ . الشمس رحلت ، والليل غزل زفرات شهباء ، خشخش الغاب حولهما وتلاعب . سندت الزلعـــة المائلة بيـــد ، وأراحت يدها الأخرى على كتفـــه لتصعـــد المنحـــدر ، طـــوحت جسده بدلال ، فألفاها فى حضنه ، أزاحته لتتقدم نحو الطريق، راودته رغبة أن يترل بها إلى الماء . أنزلت "الزلعة" من فوق رأسها فوقعت

---

[٣]) الزلعة : الجرة .

[٤]) الحَوَّاية : قطعة قماش توضع فوق الرأس لتحميها من حمل ثقيل .

الطـــرحة ، وفاحت رائحة استحمامها فى النهر طرية . شعرهــــا حـــد كعبيها . بوغت ، فتراجع إلى الوراء خطوة وتقدمت هى .

ـــ يوه !!

ـــ تاخدى رطوبة .

ضربت صدره براحة يدها ، فلم يحتمل . شمر جلبابها فكشف عن قميص أبيض "باتسيتاً فوق جسد بض . سددت إليه نظرةً قتلت إمكانياته فى المقاومـــة ، التى لم تخطر له على بال . مد يده إلى صدرها ، فتمنعت، ودخلت الغاب . انغرست قدماها فى الطين ، الماء يضرب حافة النـــهر ، وأعواد البوص الخضراء جارحة.

ـــ حاسبى !

ضحكت ، سرى صوت غنجها فى المدى بشقاوة أشعلت ناراً فى رئتيه . ركض وراءها حتى لحق بها ، منكفئة فوق البوص الذى يصفـــــر للغياب . لف ساعديه حول خصرها ، وراح يفتق القميص .

ـــ على مهلك !

ظهر منحوت من شهب ، يعكس لونه سحر الغروب الذى انطفأ.

ـــ يا ليلتك يا سعفان !!

قالها بشغف ، فازدادت ضحكاً ، دون أن تهاب سريان الصوت ، اطمأنا للسكون ، وفرحا به . حملها إلى أحجار قريبـــة ، مرصوصـــة ،

نظفهـــا الماء ، وانحسر عنها ، يحفها البوص من كل ناحية . كان قد ترك المقطف بجوارها حين هم بمساعدتها على حمـــــل "الزلعـــة" . مشغـــول بفلفصتها الماجنة . منّى نفسه بمتعة مجانية أرسلتها له السماء ، حلـــم أن يركب براقاً يلف بهما الكون إلى الأبد . سفحت جســـــدها لتمنحـــه كنزها المكنون، كلما لمسها برقت ونزت مسامها عسلاً فضياً ، توهـــج بالدغدغة ، واجتاحتها حمى نهمة ، وتضرعت خائفة بلهفـــة أن يســـرع لعناقها . دس رأسه فى حضن رؤوم ، ما زاده إلا شبقاً . التفتـــت إليـــه متوقدة الحدقتين، تهذى. عشقها كما لم يعرف العشق . مـــد أطـــراف أصابعـــه إلى وردتى ثدييها ، جائعاً ، زائغ البصيرة ، مطلقـــاً لفتنتـــها العنان. تأمل جسدها المدهون بعطر اللذة ، فارتجف من الرهبة . كأنهـــا مهرة جامحة ، متخفية فى جســـد امرأة . ابتسمت بخلاعـــة ، دعتـــه أن يتوغل ويتوغل . مفتون بالشـــهوة الجارفة ، بصوصوتها الفاجرة ، بالليل، بطزاجة الشهيق ، ونيران الزفير ، بصخـــب المجازفة . تقـــدم مبـــهوراً يريد أن يرتشف رحيق ثمرتها القرمزية. تحينت اختلاجة رأسه التى حملتـــه إلى غيبوبة سريعة قصيرة ، وتسللت إلى جسده ، وكشفت عما يواريـــه الخجل . دفعت عناصره إلى جحيم الهياج الخارق فاكتملت دائرة الغواية.

انكشـــف المكان أمام عينيه التى تغيب رويدا . رأى الجسد الممشـــوق ، وقد أضاء ممدداً يصـــارع جحيم الأعماق . برقت ربلة الساق البضـــة ، فضمها بعنف . ســـرحت نظراته إلى كاحلها ، تملّت العـــين فى صنعـــة الخالق العظيم ، فاصطدمت بقدم عنزة . ارتجف ، اختلج جسده ، فظنتها الشـــهوة، تعلقت به أكثر فأكثر : "ياليلة غبراء ، جنيـــة !!" ، ردد فى

نفســـه دون أن يجرؤ على ترطيب شفتيه اللتين تحجرتا فجأة . احتار ماذا يفعل ، ربت على ظهرها وهو يعدل رقدتها على جانبها الأيمن . قفـــزت إلى ذهنه كل الآيات التى يعرفها ، والدعوات ، وطالب ذاكرته بشفاعـــة النبى محمد ، ومار جرجس قاهر التنين ، وسيدنا المتولى . تذكر الأنتود فى المقطف ، مد أطراف أصابعه إليه بحذر ، حتى أن لمســـته ســـرت فى جسده كأنها صاعقة كهرباء ، تلوت بسببها مفسحةً له الطريق لاعتلائها. أمسك الأنتود ، فشعر به يحرق كفه من شدة الخوف . رشقه بمـــهارة فى موضع العفة فتأوهت . انسحب بهدوء حتى لا تفتح عينيـــها ، تراجـــع فلمست قدماه أرض الطريق ، طار بصخب إلى القرية ، مطارداً الظـــلام الذى أطبـــق على الكون دون أن يشعر به ، حافياً ، عارياً ، ناسياً الفأس والمقطف .

انتبهت ، صرخت عليه :

ــ ارجع يا ابو سعفان ، نسيته فىَّ

لم يلتفت ، ودقات قلبه تعزف لحناً إفريقياً ، قال :

ــ أنتود الحراث ، اشبعى به .

وصل إلى القرية لاهثاً ، لحظة أن ضغط شخص ما ، فى مكان ما، فـــوق زر النور ، فصرخ الفلاحون، وهم يرفعون الـــرأس نحـــو سمـــاء الأعمدة ، فى نفس واحد :

ــ يا صلاة النبى !!

سمع محمود صوت الجرس يعوى تحت ضربات متتاليـــة ليـــد غريبة : تن تا .. تن تا .. رفع الغطاء عن جسمه ، كانت العروس نائمة، يحلق عطرها فى سحابة تنفث زخات ناعمة .. تمطى .. الحمد لله أننى لم أغرق فى النوم . غفوة لم تكتمل . ترى من الطارق ؟ نبهته السعادة التى ترفرف حولها إلى الإســراع بمغادرة الغرفة ، وإغلاقها وراءه، ليوقف هذا الطرق قبل أن يوقظها . مر بالصالة ، فاجأته عقارب الساعة الفوسفورية التى تشير إلى الثالثة صباحاً . أدرك أنه نام لساعات طويلة ، فتح البـــاب متوجسا . كانت هى ، بلا رتوش أو مقدمات . كاد أن يلقى بنفسه إلى ذراعيها كما اعتادا أن يندفعا ليتلاصقا بعنف . أوقفته نظرة فى عينيــها ، يعرفها .. نظرة تسبق الوثوب المتحفز :شعرها غجرى ، تعود أن يلويــــه ويبهوشه حتى ينتفش ، ويتطاير بلا نظام . على وجهها سؤال أدركــــه ، ابتلع الهواء ، دفعةً واحدةً قبل أن يرحب بها. دخلت كعاصفة ، أزاحتــــه كأنها تعرف الطريق . أليست هذه شقته ؟! لم تسمع كلماته أو تنتظرها ، اخترقت حواجز عدم المعرفة باحثةً عن هدفها ، ثم أعلنته بوضوح :

ــ أريد أن أراها ؛ هذا حقى!!

كانا قد توسطا الصالة بضوئها الخافت السهران ، استدارت إلى الجدران .. كل التفاصيل توحى باهتمامه ، ولمساته.. تماما كما تخيلاه معاً . لم تشعر بغربة .. لكن بغيرة . اجتاحه هذا الشئ الهائل ، الذى لا يعرف من أين ينفجر داخله ، ويحتله بشموخ فى وجودها . كانت هي كما كانت دائماً ، حبيبة عمره المشتعلة . فى ضحكته التى اعتاد أن يرد بها على عواطفها المجنونة ـــ هذه اللحظة ـــ مرارة خنقته، لكن الضحكة البائسة انتشرت رغماً عنه ، لفهما رذاذها . اليوم ، دون باقى الأيام ، لا يستطيع أن يحتويها ، ويمتص فورانها فى جسده ، بموران معا كرحيً ، يدور ، يطحن نفسه ليتداخلا أكثر فأكثر حباً وكراهيةً . لم يعرف إن كان يريد إسكاتها بشفتيه ، بكل العنف الذى تجادلا به طوال الحياة ، أم أنه يفضل الصمت ، والانتظار . تعب من وطأة الرجرجة ، مرقت حربة الوجع تفتت أعضاءه . أعلنت بلا هوادة كم يحبها ، وأنه لا خلاص . أراد أن يقول لها أحبك ، وأن يحملها ، ويدور بها مجلجلاً فى الحقول ، كما كان يحدث بعد كل خصام بينهما . لا ، لم يكن حبه أكثر امتلاكاً لوجدانه من الآن .

سحبت كفها من قبضته ، وسألته متحدية :

ـــ أين هى ؟

أجاب بشهوة تحترق ، لم يخمد لهيبها يوما ، وكما لم يقل لها أحبك طوال حياته :

ـــ يا شعنونة .. يا ..

فرد جناحه ليتلقى دفئها ، كاتما الرغبة فى الصراخ ، ضاغطا على جسمها بكل آلام جرحه النازف ، تشبثت به بأصـــابع ســاطت ظهره، ثم اندفعا متباعدين ككرتين تصادمتا لتنفصلا ، ترنحا ممسوســين بصــاعقة ، أرادا البكاء ، "ماذا فعلنا بأنفسنا ؟!" ، اجترا الأنين معــا ، فلم يسمع فى البيت الهادئ غير صوت ضعيف يمزق ركام الحب المتصاعد دخانه : آآآآآآه!!

ارتعشت بين يديه اللتين أمسكتا بكتفيها ، سقطت رأسها، وهى تحاول أن تدارى ألما غير بشرى أطاح بكــل محاولاتهــا للتــوازن. رفرفت كطائر تمرغ فى وجدانه ، ينقر قدرته على التماسك . قبلها فوق خدها . استسلمت ، وجلست على أقرب مقعد ، لكنها لم تخفض عينيها عنه ، ضغط على مفتاح النور ، فاكتشفا كم هما بعيــدان ، غريبــان . ظهرت على العتبة فتاة ناعسة ، بريئة ، كمهرة لم تسرج بعد . ابتسمت للضيفة دون أن تسأل عن الوقت ، وسر الزيارة الغريبة ، تقدمت نحوها ، وصوت زوجها يعلن :

ــ نهى ابنة عمى .. صافى زوجتى ..

احتضنتها بود ألجم العاشقين ، وسألتها إن كانت قد وصلت مرتاحة ، ثم راحت بتلقائية شديد ، تبعث اليقظة فى أركان البيت النائمة. ولم تجد نهى غير إطار السيارة لتحمله عبء دخولها المفــاجئ فى هــذه الساعة .

لم تستطع أن تحضر حفل زفافهما ، لم تقو أن ترى غيرها فى المكان الذى حلمت به طويلا ، كانا قد خططا لكل تفصيلة ، صغــيرة

وكبيرة ، حتى تصميم فستان الفــــرح الملائكـــى ، والطرحـــة ، ورداء الوصيفات ، وقائمة المدعوين ، وفقرات الحفل ، ورسما شكل البيـــت ، وحددا ديكوراته، وألوانه ، واحتياجاتهما . جلست فى بيت أبيها الذى لا يبعـــد كثيراً عن الدوار ، معلنة أنها لا تهتم لزواجـــه ، وأن انفصالهمـــا كان حتمياً بعد أن أدركا أنهما لا يصلحان كزوجين ، تلبسها إحســـاس زائف بالكرامة، جلست تحت الشرفة تتأمل نقط الضوء الهلامية التى تنفذ من تعـــريشة الجهنمية الزرقاء ، وتسقط فوقها ، تبرقش المكان بلمعـــان ماسى، يتغير شكله مع كل هبة ريح . أمسكت غصنا جافا مدببا ، نزعته من الشجرة الأم ، حفرت فى التراب خطوطا لا معنى لها ، ثم سرحت فى دوائر تتســـع لتضيق ، وتعود إلى المركز . مســـــحت الأرض بكفـــها ، وعادت تدور حـــــول نقطة تخشى الاقتراب منها ، حتى رأت النـــــور الأصفر يتلألأ فى المصابيح التى أضاءت الدوار للمـــرة الأولى ، بعـــد أن ســـرقت الظلمـــة خيوط الشمس . رفعت رأسها تســـتطلع أصـــوات الدفوف التى تدق الصمت عن بعـــد . مر بها أفراد أســـرتها فى كـــامل زينتهم ، وأشـــاروا لها أنهم ذاهبون ، لم يستطـــع أى منهم ســـؤالها إن كانت قد غيرت رأيها لتصاحبهم إلى الحفل ..

أقفر البيت ، وسكت الطنين الذى كان يحتله قبل دقـــائق ، ارتعشت لبرودته ، واستمرت الخطوط التى ترسمها على الأرض تتوالـــــد وترتجف خاطرا وراء خاطر ، ادعت أمام نفسها ، والعائلة حـــين طـــال الخصام بينهما ، وتقدم لخطبة فتاة أخرى ، أن الأمر لا يهمها ، انتظرته ، دون أن تخطو خطوة واحدة ، لإصلاح ما فسد بينهما . كانت موقنة من

حتمية زواجهما ، وأن ما يحدث مجرد لعبة فى مسرحية لا علاقة لهما بأبطالها ، فلما حدد موعدا للزواج، كان الوقت قد فات لتتراجع عن موقفها .

فرقعت طلقات الرصاص فى السماء .. وصلت العروس .. ابتلعت ريقها بصعوبة كادت أن تزهق روحها ، وحركت كتفها فى حركة لا إرادية ، ثم أهالت التراب فوق رسوم انفجاراتها الداخلية . مسحت بأصابعها المساحة المتاحة أمامها ، وخطت بيتاً، وحديقةً ، ومدخنةً ، تصاعد منها حلم الدفء . رأت نفسها ممددة، ورأسها مرتكن على ساقه ، يعبث بشعرها ، صفاء لم يتمتعا به كثيراً . كم مرة أقسما ألا يتعاركا ، أو يحتدما دون جدوى . لم يعرفا أبداً من أين ينفجر الصدام ولماذا . كم مرة لامت نفسها على حدتها معه ، " لكنه لا يترك أمراً دون أن يحاسبنى عليه ، كل هفوة، هذه الغيرة اللعينة .. من أين جاء بها ، وهو يعرف أننى لا أحب سواه منذ ولدنا ؟!"

تسلل إليها خدر لذيذ ، سرى تحت أصابعه التى تعرف كيف تعزف على مشاعرها ، حين رقصت فراشة بين خصلات شعرها ، ولامست رقبتها . اشتهت أن تستدير ، وأن تعدل وجهها لتمكنه من شفتيها ، وأغمضت عينيها لتستقبل مروضها . دقت الدفوف بقوة ، غطت على صوت المطربة ، فوصلها خافتا متقطعا .

" على عش الحب وطير يا حمام "

ما زالت أصابعها تعبث بالرماد الجاف . جسدها ساخن . صوت الموسيقى يعبث بوجدانها . سامحته .. فتحت عينيها ، قالت بصوت سمعته وحدها :

- " قول للأيام أنا جاية أوام "

قررت أن تصالحه ، وأن يعودا معاً ، وأن يكون هذا عرسهما. قفزت إلى ذهنها صورته ، ممسكاً بعروس لا ملامح لها، رأت الحديقة موشومةً بلهيب الحب ، المقتول على مذبح العناد .

- هل يمكن أن يشاركه الغرباء هذا من دوني ؟! أنا وحدي لي الحق فيه ..

انكفأت تلملم أبنية الهذيان ، احتلتها صحراء ممتدة ، غلبها الحنين، لم تستطع أن تثبت الغطاء فوق مرجل أيامها أكثر من أسابيع بعد أن تم زواجه . في ليلة لم تحسب فيها ساعات الطريق إلى القاهرة ، قفزت إلى السيارة ، ووصلت إلى بابه ، لم تفكر في رد فعل العروس ، أو تتصور أن من حقه الاعتراض . أرادت أن تراها ، أن تعرف من هي هذه الفتاة التي اختارها ، لتعيش معه مدى الحياة .

مرت بحقول القطن ، حيث كانا يراقبان الجميعة ، ويتلصصان عليهم أطفالا ، ثم يحاولان المشاركة صبية . تعريشة العنب على النهر ، وهو ينهرها لأول مرة ويأمرها أن تعود إلى البيت . لم تتذكر سبب العراك، لكنها تذكرت أنها قذفت بكل الأسماك التي اصطادها مع الأولاد إلى النيل ، وتخاصما ، واستمرت جالسة مكانها ، حتى حلت الشمس جدائل شعرها ، ونشرتها قبل أن تنعس . فاجأها

باعتذاره ، لم تكن فى حاجة للكلمات ، سامحته لحظة أن وقعت عيناها عليه ، مرت بالعيـرن التى تفور أمام حديقة المانجو ، حيث حلمها أن يبنيا عشهما معا فى هذه البقعة لترى المدى الأخضر :

ــ أريد برجا عاليا يجعلنى أطالع رؤوس الأشجار .

عبرت السكة الحديد ، رأت صبية ترفض أن يساعدها على النزول من القطار الهرم الذى توقف قبل المحطة ، وكان عليهما القفز إلى الأرض .

وقف فوق القضبان ينتظر أن تقفز وحدها كما أرادت ، قال:

ــ هل تعلمين لماذا أحب اصطحابك معى إلي كل مكان ؟

ضحكت ، وهى تقفز فى الهواء :

ــ وهل كنت تستطيع غير هذا ؟

قال : لأننى لا أحب البنات المرتعشات .

لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة ، وهى بعد العاشرة بقليل، حين استطاعا وسط التقاليد الصارمة أن يفرضا رغبتهما فى أن يكونا معا دائما ، وألا يمنحا لأحد الحق فى مناقشة هذا . اكتسبا حنق رفاقهما ، الذين لم يستطيعوا التقدم للحصول على ما يريدون، أو مجرد المحاولة ، واكتفوا بحدود الممنوح لهم .

وهاهى تقتحم بيته فى الثالثة صباحا ، لترى العروس .

للنهر فى كياك سطح مدبب بموجـــات صغـــيرة ، منتبهـــة كأشواك صبار الصحارى . قليل الحيلة ، يضج بالملل ، فلا هو شحيــــح الماء صائم ، ولا هو عفى يفيض . ازرق لونه وهو يرتعش شوقاً للتجدد ، فى انتظار السيل الأحمر الذى يجرف فتافيت صخر الجنوب ، ويهرســـــها تحت وطـــأة ضرباته ، ويبعث الشباب فى أوصال النهر . فر الفلاحـــون من حوله ، وهجروا البورصة بعد أن شكشك البرد الأبدان ، ولم تفلـــح راكية النـــار فى حمايتهم من عصف الريح بعـــــد غـــروب الشمـــس . اعتصموا بالمزارع ، ونقل أولاد المصيلحى مجلسهم إلى الفيـــلا الصغـــيرة داخل أسوار الدوار ، جهزوها لاستقبال التجار ، وتركوا الشكمة لمحمود حتى لا يفضوا عزلته .

تنفس الليل فى أرجاء المنتهى ، باضطراب ما عهدته ، إلا فى أوقات شدتها . زفر القلق فى أزقتها ودروبها ، وبلغ مداه وسط الغيطـــان فى مزارعها ، إذ لم يصل خبر واحد عن سيارة أنابيب الغاز، التى خرجت مع بداية النهار ، كعادتها كل يوم تستبدل الفارغ . انعكس القلق علـــى البورصة ، التى دبت حولها الأقدام فجأةً على غير العادة فى هذا الوقـــت من الشتاء ، وترنحت بين الدوار وخارجه . قلب الفلاحـــون الأســـئلة ،

وأعادوها مرات ، حتى تأكدوا أن أوراق السائق سليمة ، وأن مستودع الغاز فى المدينة يعمل بكامل طاقته ، وأنه لا سبب للتأخير . تعلق فى سماء القرية احتمال وحيد ، هو وقوع حادث ، ولابد من مواجهته قبل أن ينتهى الغاز من الدفايات ، ويلح الاحتياج للأنابيب المنتظرة . أرسل إسماعيل سائقاً آخر للسؤال فى نقاط المرور على الطريق ، وفى المستشفيات ، إن استدعى الأمر .

علا رنين الهاتف الذى حبس إسماعيل إلى جواره ، وجاءه صوت حسين أبو كحيلة سائق السيارة ، يقول إن شرطة المرور فى المفارق ، على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً ، قد أوقفته ، واصطحبته إلى المركز ، وأن الضابط يريد ما يثبت أن هذه الأنابيب غير مسروقة .

ترك إسماعيل خبراً فى البورصة ، وآخر فى الدوار ، بأنه ذاهب لتحرير السيارة ، وانطلق .

رجَّت الريح النوافذ بأزيز غاضب ، منذرةً بليلة شديدة البرودة . هلت بشائر طوبة "التى تجعل العجوزة جلدة والصبية قردة" ، فبعثت الخوف فى قلوب أصحاب المزارع ، التى بدأ الغاز يشح بها ، وتجمع بعضهم فى الدوار بحثاً عن حل ، وخرج آخرون إلى الطريق بحثاً عن السيارة . لحق بهم عبد الله المصيلحى ، ولم يمض وقت طويل ، حتى التف عشرون رجلاً حول الشاويش ، يطالبون بالأنابيب . وصل الضابط المناوب إلى المركز ، بعد طول عناء فى انتظاره ، وسأل مستنكراً:

ـــ ما سر هذا الاهتمام بسيارة أنابيب ، اذهبوا وسنفرج

عنها فى الصباح ، عندما يأتى وكيل النيابة .

قال إسماعيل : منذ ثلاث ساعات وأنا أحاول إقناع زميلك أننا نحتاجها . ستموت الكتاكيت إذا انطفأت الدفايات . طلب ما يثبت ملكية الأنابيب ، وقلت أنا ضامن ، وأصحابها وصلوا منتظرين فى الخارج، ماذا نفعل لتصدقنا ؟

استراب الضابط فيما يراه من قلق وما يسمعه من أزيز ، كان جديداً على المنطقة ، ولم ير مزرعة دواجن واحدةً فى حياته . مر بينهم مستفسراً متفحصاً ، حاولوا إقناعه بالذهاب معهم لأقرب مزرعة ، ليشرحوا له الأمر على الطبيعة ، فلم يقبل ، ثم استدار فجأة إلى صول قائلاً :

ــ أرسل المخبرين ليفرغوا السيارة من حمولتها ، ويفتشوها قطعةً قطعة .

قال عبد الله : سنترك لك السائق والسيارة ، ونحمل الأنابيب فى سيارة أخرى ، إلى أن تنهى إجراءاتك غداً .

ــ فى الصباح .

ــ فى الصباح لن نحتاجها ، سيكون أكثر من مليونى كتكوت قد هلكت .

ــ هه ، دخلنا فى "الأونطة" .

صرخ عبد الله : سأحملك المسئولية الجنائية ..

ــ لا توجد مسئولية جنائية ، لى الحق فى الاشتباه فى أى سيارة تمر على الطريق ، والتحفظ عليها .

ضرب عبد الله كفًا بكف ، والرجال من حوله يهدئونه دون جدوى . خرج إسماعيل يتابع تفتيش السيارة ، واقترب بهدوء من أكبر العساكر سنًا ، ووضع فى جيبه مائة جنيه .

قال الرجل لزملائه : كافى . السيارة سليمة ، وكله تمام . .

ذهب إلى الضابط مستطرداً : تمام يا حضرة الضابط .

تنحنح الضابط الشاب ، وهو ينظر إلى عيونهم المتوسلة ، وصرخاتهم تملأ المكان : سقنا عليك النبى تحلها قبل ما تموت الفراخ.

قال الصول : الناس متعشمة فيك يا باشا .

زفر الضابط : اذهبوا .

ركضت السيارة على الطريق ، وخلفها هيصة وزيطة ، حتى وصل الجميع إلى القرية ، ووزعوا الأنابيب ، ودخل عبد الله إلى الدوار يجأر ، يكاد يفتك بإسماعيل :

ــ رشوة فى آخر الزمان .. يا نهار أغبر ..! رشوة ؟!

وإسماعيل الذى حايله طوال الطريق ، دون جدوى ، يرد باقتناع ودون خجل :

ــ مائة جنيه عمياء ، بدلاً من الخراب المستعجل .

ــ الرشوة رشوة يا عم إسماعيل ، لعن الله الراشى والمرتشى..

سمعوا صوتاً فى الخارج يردد بحزن : الغاية .. الغاية .. والوسيلة .

انتبهوا إلى أنه صوت محمود .

قال عبد الله : تعال يا سيادة اللواء ، احضرنا .

قال محمود مكملاً سيره دون أن يلتفت إليهم : تصبحـــوا على خير .

قالت وديدة ، التي أقلقها الغضب ، وهى تشرف على إعداد العشاء مع ليلى زوّجة ابنها الراحل عبد الحميد :

ـــ صلوا على النبى ، ربنا حلها ، والأنابيب وصلت ، مـــاذا تريدون ؟

دخل علاء الذى أصبح يشبه أباه عبد الحميد كثيراً ، وجلس بجوار عمه عبد الله منكساً رأسه ، محاولاً إخفاء بشرة وجهه التي تبرقشت بجروح صغيرة .

قالت أمه ليلى : ذقنك مصيرها تبقى غابة ، لكن لها أوان.

ابتسم الجميع ، واحتضنه عبد الله قائلاً :

ـــ كلنا عملناها ، وجرحنا أنفسنا .

قال علاء الذى غير مناخ الغضب دون أن يدرى :

ـــ نفسى تخشن .

ردت ليلى ضاحكة : أنف الريحانى .. يحلم طول الوقـــت بأنف الريحانى .

قال علاء وهو يكور كف يده فوق أنفه :

ـــ كبيرة ومفلطحة!

قالت وديدة ، التي لاحظت اكتئاب سوسن زوجة إسماعيل:

ـــ حد يطول السمسم ؟ أنت أحلى واحد .

غضب علاء : أنا حلو! هو أنا بنت ؟ والا عيل ؟

قال إسماعيل : مستعجل .. بكرة تكبر وتشبع وتشيل الهم.

استيقظ محمود المصيلحى ، برغبة عارمة فى الصحو ، دفعته للوقوف بحركة واحدة ، فوق أرض الغرفة ، مستنشقاً قدراً كبيراً من العبير الفواح للأزهار التى وضعتها وديدة فى المزهرية ، أمام صفوف الكتب المجلوبة من بيته فى القاهرة ، والمرصوصة بعناية من يعرف صاحبها، حتى خيل إليه أنه وضعها بنفسه ، من زمن طويل . لم يلحظ تراكم الألفة فوق الجدران ، ولم يعرف من أين تسلل الحنين إلى زمن يتوق إلى معرفته، مدركاً أن رحلته فى السفر الطويل ليست رحلةً واحدةً، لكنها مراحل ومحطات ، وأن خطوطها ليست مستقيمةً تماماً ، وليست نهائية . فالمحطة الواحدة تحتاج للمرور عليها أكثر من مرة ، وعليه أن يقبل بالخريطة التى يسير عليها القطار ، إذا كان يريد أن يصل سليماً معافىً ، إلى خط النهاية .

تطلع ، وهو يرتدى ملابسه ، إلى اللوحات المعلقة فوق الجدران . وترك عينيه تحنوان على صورة ابنه سمير الملتقطة له أمام شمعة سنته الأولى ، ثم تنتقل إلى العرائس الخشبية الصغيرة المتدرجة الحجم ، التى تحمل نفس الملامح للفلاحة الروسية ماترويوشكا ، أقلام الرصاص المبرية المجمعة فى كوب من الأبنوس الإفريقى الأسود، الشُّعَب المرجانية المتناثرة

فوق الكتب ، و"أباجورة" الودع التى تفِحّ بصوت البحـــــر ، وشوشـــةً وحســـاً . استعد للخروج يداعبه أمل ، يعرف الآن مصدره . على طريق المعاهدة ، شاهد الفلاحين يخلعون نبات الهالوك ، من جذوره ، من بـــين شجـــيرات الفول ، قال لنفسه : نبات جميل لكنه قـــاتل ، كثـــيراً مـــا أشرفت على حرقه بنفسى ، على رأس الغيط ، مع رئيس العمال .

وصل إلى سبيل الشيخ سلامة ، واستدار عائداً . أثار انتباهه نضارة أوراق الفول وقطرات الندى المتلألئة فوق أزهاره البيضاء ، الـــتى تخفى عيوناً سوداء ، محدقة ، وعاد إلى الدوار بمشية عسكرية ، واثقـــة ، استعاد فيها قامته المشرعة نحو السماء . قبل يد وديدة التى لاحظت صفاء عينيه ، ولم تعلق على استعجاله العودة إلى الشكمة. جلس إلى مكتـــب أبيه، وفتح الأوراق . دارت عيناه فى محجريهما، لتستقرا فـــوق العنـــوان المكتوب :

الرحلة إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٥

ناوشته صورة لمدينة أكبر من كل المدن التى رآها فى حياته، وازدحمت فى رأسه أسئلة هشها بسرعة ، ممسكاً بخيط الكلمات التى بين يديه :

لم أكن أعلم حين أقلعت الطائرة ببعثة الضباط إلى الاتحـــاد السوفييتى عام ١٩٦٥ ، وأنا من بينهم ، أن رغبتى فى الحصـــول علـــى أركان حرب ، ستتأجل مرات ، حتى أكون فى هذا الوقت بالذات خارج مصر، وأن أمر بما مررت به هناك .

لعبت الصدفة دورها فى دخولى امتحان البعثة . كنت قـــد تقدمت لاختبارات كلية أركان حــــرب عـــام ١٩٥٩ ، ورســـبت فى الكشف الطبى . خذلتنى عينى اليسرى ، تضايقت ، وحملت هـــمّ هـــذه العقبة التى ظهرت فجأة ، فلم أتقدم عند الإعلان عن الدورة التالية ، عام ١٩٦١ . فلما أعلن عن دورة ١٩٦٣ ، كان من بين شروطها أن يكون الضابط حاصـــلاً على دورة "قائد كتائب" ، وألا تقل مدة خدمتـــه فى التشكيلات عن خمس سنوات . ولم أكن مستوفياً للشرطين ، فلم أتقدم ، وانتهـــى الموعد . انتحيت جانباً بمدير شئون الضباط أثناء زيارته للكلية ، وسألته :

ـــ متى سأحصل على فرقة قائد كتائب ؟

ـــ لماذا تريدها ؟

ـــ لأحصل على أركان حرب .

ـــ ألم تقدم ؟

ـــ لا .

ـــ اكتب الطلب حالاً .

جمعت ما أستطيع من معلومات فى أسبوع ، وتقدمت مـــع ثلاثمائة طالب قُبل منهم خمسة وعشرون وكان ترتيبى التاسع .

كان من الممكن أن تستمر سنوات البعثة فى الاتحاد السوفييتى بين الدراسة وتعلم اللغة ، وأن تترك أثراً حســـناً فى حيـــاتى، بغناهـــا ، وعلاقاتها الحميمة بالطلبة الزملاء من مصر والعــــالم الثــــالث ، وأيضـــاً

بمدرسيها الروس ، لكن الأحداث العامة دائماً ما تــأتى لتعكــر صفــو اللحظة ، وتلوى أعناق المسارات .

حرصت من البداية على إجادة اللغة الروسية ، والتفاهم بها، وفوجئت بعد خمسة أشهر من وصولى ، فى الاحتفال بيوم المرأة العالمى ، بأن برنامج الحفل يتضمن كلمة الكلية الرابعة ، يلقيها الصــاغ محمــود المصيلحى "بالروسية طبعا !" ، رشحنى المدرسون بعدها لشرح كل مــا يصعب فهمه على الزملاء بسبب اللغة ، فكنت أعيد صياغته لهم بالعربية. أغرقت كل همومى الشخصية فى التعليم ، وعرف عنى أن لى نظرةً خاصةً وغير تقليدية فى دراسة التكتيك ، ودائماً ما كانت حلولى بعيــدةً عــن حلول هيئة التدريس وباقى الطلبة ، وكثيراً ما تبنوا الحل الذى أقدمـــه . وتقدمت فى الدراسة بسرعة أشعرتنى بالإشباع ، والتحقــق ، لكنــها لم تستطع رغم كل محاولاتى للهرب ، أن تمحو الأسئلة التى تلح على ذهنى ، حول صافى ، وكثيراً ما سألت نفسى : إن كان الابتعاد خارج البـــلاد يصلح ما فسد بيننا ؛ ودائماً ما أصل إلى النتيجة نفســها : هــى فــترة للتفكير بهدوء ، فى مصير العلاقة ، وعلى كلٍّ منا أن يتقبل القرار الــذى يصل إليه الآخر على حدة . صافى تلح على الانفصال بعصبية شديــدة ، فإذا أقدمت فعليًا على اتخاذ خطوة لتلبية طلبــها ، تراجعــت . أشعــر بمسئوليتى عن وحدها، ولا أستطيع كسرها . ربما لو رزقنابطفل ، لتغيرت حياتها . عــرضت عليها أكثر من مرة أن تربى أحد أطفــال العائلــة ، لكنها رفضت بشدة ، لأن الطبيب أخبرنا فى كل زيارة له ، أننا مستعدان للإنجاب ، ولا سبب عضويًا للعقم. فهل يعقل أن يتسبب الحاجز النفسى

فى الوقوف ضد إرادة الطبيعة ؟ هل يدس القلق الفناء فى البذرة ، فتدخلها ميتةً عديمة النفع ، رغم أنها تبدو صحيحةً فى المعمل ؟

تتهمنى بأننى أنشغل عنها متعمداً ، ولا تقبل تفسيراً آخر لوحدتها ، تثور لأتفه الأسباب ، ولا تهدأ حتى تصل إلى قمة الانفعال ، ثم تستريح دون سبب مفهوم .. آلية رصدتها وعالجتها، دون أن أستطيع تجنب الوقوع فى شراكها الجهنمية . أبذل طاقتى كلها فى إعادتها إلى السكون ، وأفقد فى الطريق إلى هدوئها صفائى وصبرى ، فأترك على عتبتها كل رغبة فيها ، وأغرق فى عملى ، ونعود إلى الدائرة نفسها ، دون حذر .

من يصدق أننى اخترت الزواج من صافى ، أخت زميلى سيد زيدان، بسبب رقتها وعذوبتها ؟ هل أخطأت حين تصورت أن خجل الأنثى ، وانغلاقها على عالمها الصغير ، سيعطينى ما لم تستطعه نهى ؟ اخترت امرأةً تتفرغ بكيانها لى . تمتص وجعى ، وترحم انشغالى ، تكون بحيرةً لا بحراً ، هل تسرعت فى اختيار لحظة الزواج ؟ هل حمَّلتُ صافى ــ دون أن أعى ــ مسئولية عدم زواجى من نهى ؟! مستحيل ، لقد اخترت الابتعاد عن نهى ، بكامل وعيى وإرادتى وليس لمجرد مشاجرة، كما خيل لبعض أفراد العائلة . كان الخلاف بيننا عميقاً ، وكنت صادقاً مع نفسى حين أدركته ، رغم أننى أحبها بكل كيانى . لا مجال للعتاب الآن أو العودة إلى ما لا يمكن استرجاعه .

وصلنى خبر زواج نهى من حلمى ابن عمى وصديقى ، ورفيق عمرى .

توقف عن القراءة ، ظهرت صافى على الكرسى "الفوتيى" المقابل للمكتب ، شم رائحة عطرها ، قبل أن يبصرها . بضة ، قصيرة القامة ، شديدة الاعتناء بجمالها ، وشعرها الأسود الفاحم ، المنسدل بنعومة ، فوق كتفيها . لاحظ خطوطاً مروحيةً تحيط بالعينين اللتين لفتتا انتباهه فى أول مرة قابلها مع صديقه حسن زيدان . لم يختف الحور الوحشى من مقلتيها ، لكن ارتفاع الخدود الذى جاء مع السمنة ، قلل من اتساع حدقتيها . نظرت إليه طويلاً بعتاب ، فلم تلحظ أن السيجارة فى يدها كادت أن تحرق إصبعها. تنبهت ، قامت وداستها فى المطفأة فوق مكتبه ، أمسك كفها ، وضغط عليها ، كما اعتاد أن يفعل ، ليوصل لها ما يريد ، دون كلام . قبض على فراغ ، اختفت ، تأمل صورة سمير المعلقة أمامه، وسمع ضحكته تجلجل :

ــ ولد لى سمير بعد عودتى من موسكو .

شعر بانتشار سخونة داخلية عارمة . حاول أن يحللها ، فاكتشف أنها كتلة متباينة لخليط من السعادة والحزن والقلق والراحة ، الطمأنينة والخوف ، الحب والكراهية . حاول أن يفككها ويعيدها إلى خيوطها الأولى . تتبع كل واحد على حدة ، فازدادت تلعبكاً ، تربص بالطمأنينة ، علها تغلف كرته ، التى راحت تتنطط بين حشاياه فى ثقة، اكتشف أن قلبها ليس مصنوعاً من " الكُلة " ، بل من حوادث مبهمة ، لم يتمكن من اصطيادها .

ـــ لم آمل أبداً أن تكون الدنيا داراً للسعادة . لم يخلقها الله جنةً ، ولا خلقها ناراً . الآن أعرف أنني لم أغرق أبداً فى لحظة ، لأنى أدرك دائماً أنها ستنتهى .

قام إلى وديدة فى الواحدة إلا خمس دقائق . دخل الحوش فى موعده تماماً ، متجنباً أخاديد الماء التى لم تتشربها الأرض من مطر الأمس، والشمس تلعقها وتمتصها ، بتغنج فاضح . رأى قزانات كبيرة ، تحتل ساحة المطبخ الداخلية ، والكانون المشتعل يحمل قزاناً يغلى ، ورائحة السمن الطازج تعطر الجو بدفء شتوى ما . التفتت إليه وديدة ، بعد أن وضعت "المقصوصة" ، المحملة برغاوى المُرتة [1] فى السلطانية هاشةً له .

قال لها : كل عام وانت بخير يا أمى .

انتبهت إلى أنها المرة الأولى التى يعلق فيها على شيء بعد الحادث . قالت، وهى تمنع عيونها من أن تدمع ، حتى لا يلاحظها:

ـــ وانت بخير يا ابو سمير ، القشدة عقدت ، أحسن سمن .. سمن طوبة ، الرُب [2] فيها قليل . خَزّنّا للدوار ، وعلى آخر الأسبوع نخزن لأخوتك .

قال ، وهو يدلف بجوارها إلى غرفة العيش ، حيث طبلية الطعام فى انتظاره :

ـــ ربنا يعطيك الصحة .

---

١) المرتة : ما يتبقى من الزبد بعد تحويله إلى سمن .

٢) الرُب : الريم .

قربت منه الطعام قائلة :

ـــ كل شيء يحلي فى طوبة ، المربة تعقد ، والسكر يزيد فى البرتقال ، أشغالنا ..!

ـــ والله .. أوحشنى سمير .

لم تستطع أن تمنع دموعها ، وارتفع صوتها على غير العـــادة بتهدج :

ـــ اذهب إليه يا محمود ، اذهب .

قال بصوت خافت ، وهو يميل ناحية أذنها :

ـــ كل شيء له أوان يا نينا .

خايلته نهى . تذكر فجأةً أنه لم يكتب مشاعره عن زواجـــها من حلمى ، وسأل نفسه : لماذا ؟

فاجأت نهى الجميع بزواجها من حلمى ، كما فاجأتهم بفسخ خطبة محمود لها . سنوات مرت دون ارتباط ، رفضت كل مـــن تقـــدم للزواج منها ، وفرضت على العائلة عدم التدخـــل فى شئونهـــا ، كمـــا اعتادت دائماً .

أحبها حلمى صامتاً منذ وعى وجودها ، استمتع بدبيب يلف الكون حين تكون بينهم ، بوحشة حين تختفى لأى سبب . فلما رحـــل إلى الإسكندرية ليلتحق بجامعتها ، وعصف به نزف الحنين إلى موطنـــه ، واجه نفسه للمرة الأولى . هدر بصوت عال :

ـــ نهى ، أريدك .

ولم يسأل عن المستقبل ، وهو يرى الكل من حوله موقن أنها لمحمود.

استطرد :

لماذا هى ؟ البنات من حولى يرفلن فى الحرير ، ناعمات ، لا مباليات ، يمرقن فى سماء الأسرة دون صوت ، ثم يختفين دون أثر . لماذا هذه البنت الموجعة البصمة ، الطاغية الوجود ؟ أأريدها لأننى أعرف أنها ليست لى ؟ أأركض وراء سراب ؟ أيكون الحب هو الهدف ؟ أأمارس الإحساس بذروة مشاعرى ، وأنا أعرف أنها مقتولة على مذبح صدها؟ لكننى لست مراهقاً أو هوائياً ، ولم تكن لى أبداً نزوات طفولية . سمعت أمى كثيراً ، وهى تحلم بزواجى من بنورة ابنة خالى طه ، لكننى لم أشاركها هذا الحلم أبداً، ولم أشعر ببنورة إلا كأخت صغيرة ، وكان فرحى بزواجها من نبيل يفسد حزن أمى التى لم تلتفت أبداً لمشاعرى نحو نهى .

رحلة الأيام تمر دونها ، تجمعهم محطة العطلات ، دون أن تتغير فى الصورة أماكن الأبطال . حاول الابتعاد ، لكنه لم يستطع، ثم استسلم لعذاباته ، وتركها تمرح داخله ، وهو على يقين أن حبيبته له فى نهاية المطاف . أما كيف يحدث هذا ؟ فلم يناقش ، وامتلأ بشعور جارف أنه لا يخدع نفسه . تقلّب أياماً يلعن هذا الحب المر ، وأياماً يشكر الدنيا أن ذاق حلاوة خربشاتها على جدار قلبه . دثر أيامه عطر الليمون الفواح، الذى ما عرف أبداً لماذا يذكره بها!!

اعتادت سنوات الطفولة المبكرة التى قضاها فى المنتهى مهاجمته بدأب . اجتاحه الحنين طوفاناً ، يدمر كل السدود التى ظن أنه بناها بصبر خلال أيام الدراسة التى تلملم أثوابها لترحل أشياء كثيرة مؤجلة ، وجدها فجأة قد اكتست شحماً ولحماً ، طرقت الباب ، دون استعداد لها . احتلته . حاول الهرب منها ، ادعى أنه فى حاجة إلى نسمة هواء ، لم تكن الإسكندرية قد استقبلت زوارها المصيفين بعد ، ترك البحر سماءه للنوارس ، تدور فى دوامات واسعة، وتحط فوق الصخور، وصوارى المراكب ، والشاطئ مقفر. استلقى حلمى فوق الرمال ، غير عابئ بذراتها التى تسللت بين حلزونات شعره الأحمر المجعد . تصور أنه تخلص من إجابة السؤال : إلى أين ؟

عادت صورة نهى تراوغه ، تركها تسكنه . أغلق عينيه الزرقاوين اللتين واجهتا أشعة الشمس المتكسرة ، لم يحتمل زيارالها المباغتة التى تلمع فجأة . داهمته باقة من الأولاد والبنات يركضون فى الحقول ، صحبةً واحدة لا تنفصل ، يسقطون ثمار المانجو الخضراء ويدفنونها فى التبن. يمسكون بالقراميط أيام الجفاف ، ينغرسون فى الطين ، ويصرخون فرحين بالفريسة ، ترميهم نهى بالطين ، وبكل ما يصل إلى يدها ، وتبتعد باكيةً ، يقفزون إلى النهر عراةً حين تختفى ، فى الصباح الباكر يفضون أمان العصافير العارية الصغيرة فى أعشاشها المختبئة بين فتحات الدرابزين فى الطابق الثالث المهجورة شرفاته ، وتصرخ نهى : اتركوها لأمها . كانت مثل الضمير تنبهنا ألا نفسد حياة الكائنات الأخرى ، لكننا لا نسمع .

نضجنا معاً ، متى نما الحب بين نهى ومحمود ؟ التصقا منذ سنوات لا أذكر عددها . فرض محمود نفوذه عليها ، باعتبارها ملكاً له ، دون نقاش ، واستسلمت هى ، لا ، نهى لا تستسلم ، لابد أنها رأت فيه ما يكملها ، لا .. هذا غير صحيح ، كان هو أول من عزف على وترها، فترك علامةً لم تقو على التخلص منها، عرفت الحب من خلاله ، عرفت طعم أن يكون لها رجل معه .

الحب الأول أكذوبة ، سرعان ما ستكتشف أنها فى حاجة لأن تقطع خيوطها لكى تنمو . ولماذا يكون الحب الأول أكذوبةً بالنسبة لها ؟ وحقيقةً بالنسبة لى ؟ لماذا لم أخبرها بعواطفى ؟ كيف هذا ؟ وأنا أسمعه يشكو لى لوعة عواطفه . محمود ليس مجرد ابن خال تربيت فى بيته، وفى كنفه ، هو ربيب العمر ، كيف أخون هذا ؟

تطلع حوله ، شئ ما ناقص فى هذه السماء ؟!

قام يتمشى . فض عذرية الماء ، هدأ الموج الذى يضرب قدميه ، ومات الزبد ، وهو يتنفس آخر محاولاته للحرية . مرقت ريح خادعة لها طعم اليود والملح ، كشفت عن صرير رفيع لطم بدنه بقسوة . أعلنت بصراحة : لا أريد رواداً فى مملكتى الآن . الشمس ترحل ، وأنت أيضاً. أغلق زر القميص فوق رقبته ، استأذن فى الانفراد بالمدى دقائق أخرى ، لكن الرياح أصرت ، وكشفت عن وجه قبيح . اعتصم بالمدينة على بعد خطوات من الكورنيش ، وتلقفه دفء ، ووجوه نسيتها حضارات ، رحلت منذ زمن طويل ، أرديتهم عتيقة تحمل

رائحة زمن موسر ، تغضنت وجــوههم ، وتكسرت ألسنتهم ، تحــت وطأة الحنين لعالم تسرب.. عجائز فى شرفات قريبة مـــن الأرض ، لهــا أسقف عالية ، وقع طلاؤها ، وتملــحت الجدران حولها . عطرت الجــو رائحة الياسمين الهندى المتفتح فوق الأشــجار التى تطل مـــن الأســوار الشامخة. نبهه الدفء المتسلل إلى حاجة يديه إلى الاختباء ، أخفاهمـــا فى جيبى سرواله ، ونزل الدرجات ليصــل إلى شــارع آخر فوق الهضبة ، قابلته حجارة أكثر قدماً، ونباتات متســللة بين الشقــوق . صعــد إلى الطــابق الثانى لمقهى صغير يكشــف البحر عن بعد . تلألأت الأضواء ، ورمى الصمت ثقله بفجور. انشغل صاحبا المقهى العجــوزان بالنظافــة وتجهيز المكان للرواد القادمين بعد قليل . راوغته إشارات سفينة تطلــب الإذن بدخول البوغاز ، وسفينة ، وسفينة : "لماذا لا أبقى هنا إلى الأبد؟". اختنــق عندما لم يستطع الإجابة . دفــــع الحســاب ، وخــرج إلى الشارع، تطلع إلى السماء : "إنها نفس النجوم المنثورة التى تصفو قـــرب الفجر فى الحقول ، ولكن المكان لا تفوح منه تلك الرائحـــة الممزوجـــة بأيامنــا ، المختلطة بالتراب ، والحلبة ، وتخثر اللبن، بالجميزة والسيسبانة، بالمانجو والتين والتوتة ، بالعرق . نحن فلاحون حتى النخاع وإن ارتدينـــا الجينز . اعشق رائحة المنتهى الممزوجة بالطمى الذى يـــزحف ويبتلـع الإسفلت فى الطرقات ، والأزقة ، رائحة غبار الشعير والقمـــح ، وهــو يذرى ، وأيضاً طعم التبن الذى يتسلل إلى حلقى مع كل موجة ريح تنشر

فتافيته . ورائحتها هذه الفراشة السمراء النحيفة الهيفاء ، التى تضرب بحصدة منجل كل مقاييسنا، تقاليدنا ومعتقداتنا ، السمراء الوحيدة بيننا .

زحفت ابتسامة غطت البشرة الحمراء للوجه الهادئ الدقيق التقاطيع ، أظهرت نحافة شفتيه أكثر فأكثر . "لا أنسى يوم عودة كوثر ابنة خالى من السعودية للمرة الأولى بعد رحيلها الاضطرارى، وكنا نحيط بها عندما دخلت نهى ، وقدمتها إليها نينا وديدة ، فدقت على صدرها قائلة :

ــ هذه نهى ؟ هذه ؟! كنت أتصورها مثل شق اللفت ..

وانفجر الجميع بالضحك إلا نهى ، التى ردت فى برود دون ظل ابتسامة ، وهى تشير إلى صدرها :

ــ أنا سمراء لأنى مصرية!

والتفتت تكمل حديثها مع لبنى ابنة خالى رشدى ، وكأنها لم تلق بقفاز فى وجه أحد . خطفتها كوثر من فوق الأرض ، وانهالت عليها تقبّلها اعتذاراً ، وتقول لها أنها أجمل الفتيات ، رغم سمارها ، وهى ترد فى وقار :

ــ هذه مسألة ذوق يا عمتى .

عبَر الطريق حتى وصل إلى الميناء . اعتلى الصخور الصماء، وتأمل الوجوه المتجهمة لمقدمات السفن . ربت على خشب المجاذيف المستسلمة ، داهمته رائحة الملح والصدأ ، تحرك قارب صغير ، فارتعشت المياه تحت وطأة الشق الذى أحدثته الدفة فى اللجة ، وتردد صداه دوائر انتشرت فوق السطح .

ـــ لماذا يكون طعم الحنين مرًّا ؟ أحتـــاج إلى الفطـــام ، ولا أريده ، أسمع نفسى أصداء تتردد فى جوف الزمن ، معنىً مسجوناً منـــذ آلاف السنين ، معنىً أبديًّا . لكنى لن أكون مثل الريح[3] المسافرة فى ديار الحكمة ، لا تعادى أحداً ، ولا تنحاز إلى شيء .. لن أكون كما كنت!! ضلّلتُ موجات الحب حتى لا تقتحم نهى ، حبستها فى قبـــو العـــدم ، وتركتها للصمت ، تترف عواءً يشوش الأثير ، ويبذر الأرق . للحـــب وهج ، هالة تحيط بالمحب ، دارة [4] تدثره : كيف لم تصل حرارتهـــا إلى نهى الشفافة ؟ هل صحيح أن مهارتى خدعتها ؟ أم أنها تتجـــاهل لأنهـــا مشبعة بآخر ، يخطف بصرها بريق زاعق ، بدائى وسطحى ؟

ـــ زائف .. . ؟ إن بريقها الطاغى يجعل منك ظلاً .

ـــ ليتنى لا أعرفها بهذا القدر ، فأغرق فى أحلام انتظارهـــا على الشاطئ .

ـــ إن قذف الموج ، بها ستصلك مجروحة . كلمـــا همـــت بالاقتراب منك ، حجبتها غلالة ألم ، تهيج ذكرى محمود .

عبقت رياح الشمال شعره برائحة الصباح النـــدى ، فتـــح قميصه من الصدر ، تقافزت الحوريات ربات المتع التى ســـكرت بفعـــل الشوق فى خلاياه . سمع أصداء ضحكاتهن الخليعة ، تتردد فى السماء .

---

٣) أنظر الهوامش .

٤) دارة : حلقة الضوء حول القمر .

ــ ما عدت أنكفئ على بئر زمانى الماضى حتى لا أرى وجهك منعكساً على أديمه . أى إثم وشمت به نفسى ؟ وأنا أسعى إليك مرات لكى تعودى إليه . أى إثم ارتكبته كى يعاقبنى زيوس ، أين قرأت أن الآلهة أكثر قسوةً من البشر ؟! ربما هى كلمات لمحب فى العهد القديم ، ولكل زمن آلهته القساة القلوب ، فلم تصنع أنسجتهم من رغبة ونشوة ، ولم تغلف عظاماً تقعقع من الحرمان . ستولدين ذات ليلة ، وقد أرهقك الرداء الذى ما عدت تحتملين!!

وصله خبر انفصالها عن محمود ، استقبله بهدوء ، لا يناسب عصافير النار التى تستوطن أحشاءه . كان قد تعايش مع آلامه ، يخصبها كلما همدت . تابع كل تفاصيل استعدادات الزواج ، دون أن يناقش أو يسأل نفسه : ماذا أنا فاعل ؟

فى المرآة[٥] ، رأى صورة العدو الوحيد . لم يستطع الخيال إحضارها إلى سريره ، ولا قضاء ليلة واحدة يشكو لها شغفه ، ولا تسلل بصيص نور من سنوات الصبا ، بأجنحة بيضاء ، باسطاً أشكال بيوت وشجر على الصخور السوداء ، لم يرمم أحد مجذافه، ولم يحمله ليشق اليم، ولم يفرد شراعاً إلى السموات السبع، بل تردد فى صدره صوت راكد أجوف مثل العزلة ، ولم يعرف إلى أين يصوب النظر . حتى رغبات جسده التى كان يبثها فراشه ، ويلقى بها إلى المراحيض ، جفت فى ينابيعها ، واحتلت بشرة وجهه ، وانتفخت فى كبرياء شمطاء ثرية ،

---

٥) أنظر الهوامش.

اعتلاها تاج أبيض، ولم يفلح الطبيب الذى منعه من الدهون والتوابل الحريفة والشيكولاتة ، وحقنه بمضادات حيوية قوية ، أن يوقف طوفان البثور الذى انفجر دمامل متقيحة ، وقال له فى النهاية :

ــ واجه المشكلة ، بدلاً من إلقائها إلى جسدك ليناطحها.

بحث عنها فى حفل زفاف محمود ، كان يتوقع وجودها كما عودته على غير المألوف : لماذا تسلك اليوم سلوكاً معتاداً ، وتخجل من ظهورها وسط العائلة ؟ سأل نفسه .

فى بداية السهرة ، اعتلى الترقب سحابةً جثمت على سماء الحفل ، هاجم المحتفلين شعور أن الفرح تنقصه العروس ، ثم توارى القلق، وتلألأت الابتسامات . فرغ الجميع من القصة التى يدور فصلها الأخير الآن ، إلا هو ؛ كانت معرفته بها تنبئه أن صمتها هو صمت الحوت ، حين توجه إليه ضربة قاتلة . ينتظر حتى يطمئن قاتلوه ، ثم يعود بضربة ذيل ليعتلى حطام السفينة . لم يرفع عينيه عن مدخل الدوار أو وجه محمود بالتناوب ، يراه مرةً شارداً وقد ارتحلت روحه على حطام من أخشاب سفن عطنة إلى مجرات صامتة مخيفة ، ويراه أخرى وقد تألق فى عينيه إيقاع فرح ، إيقاع حياة أخرى ، تتجاوز التماثيل المهشمة ، وتتعدى الأعمدة الأسيانة الخربة .

علت الدفوف ، أزاحت سنوات الوحدة . دفع الشباب العريس من صالة الدوار الكبيرة التى تجمع فيها الرجال ، إلى الحديقة ، فالبرزخ الضيق الطويل ، إلى الحرملك . اجتازوا العتبات، عتبةً وراء عتبة ، نصف ساعة احتاجها القطيع للعبور .. التصقوا ، تشابكوا ،

تلاحموا يغنون فرحين . سمعت النساء فى الطابق الثانى المديـــر . أرســلن الغوازى يرقصن أمام العريس ، وتحلقن فوق السباط حول درابزين مسقط النور ليشاهدن الرجال، وهم يدورون بالعصى فى ساحة الحوش الداخلية، المحرمة عليهم إلا فى مثل هذه الاستثناءات ، قالوا :

اللى يحب النـــبى يفتَّــح سعيد يا مـــســـــعد

سعيد يا مسعد ياللى أخدت البيضـــا

.

أطلقوا الدفوف حتى اكتفوا ، واستداروا ناحيـــة الـــدرج . اندفعت البنات الرافلات بالقماش المقصب الذهبى والفضـــى إلى بوابـــة السلم العليا يستقبلن الزحف . أطلت سهام الحب من العيون، وتبـــادل العشاق شوقاً صامتاً ، ورسائل أثيرية ، ومسحت نظرات الشبان الطوابق كلهـــا بحثاً عن جمال صاعق مختف ، ومنَّى البعض نفسه بإصابة من حربة عشق طائشة . نسى الجميع فى حين احتدمت النار فى الأصابع التى تدق الطبـــول ، وقفزت الفراشات السوداء منهبدات ، يتقصعن ، وأيديهن إلى أعلى ، يستعرضن جمال القوام ، وتقدمن الصفوف حتى اقترب الموكب ، وأصبحت الموجات على وشك التلاحم والتداخـــل . وقـــف العريـــس وصحبـــه على باب الدرج يريد اجتيازه إلى العـــالم المحـــرم ، ســـاعتها تشكلت البنات فى ثنائيات انبثقت فجأةً أمامه . صنعت سدًّا يمنع دخول

الرجال ، رافعات أيديهن ، ممسكة كل منهن بأنامل الأخـــــرى ، نحـــو السماء ، وأطلقن حناجرهن :

عريســـــنا الغنـــــــدور . كـُــل الحـــــلاوة فيـــــه
وطلعـــت لـــه القاعـــــة . بالمســـــك والســـــاعة
والبـــــت بدّاعـــــة . دارت تقلـــب فيـــــه
عريســـــنا الغنـــــــدور . كـــل الحـــــلاوة فيـــــه

وانطلقت الزغاريد تمسح أحزان الأيام ، وتنســـى القلـــوب المرارة بكلمات سمعتها أحجار الدوار مرات ومرات ، ورددها المسامير فى الأبواب الخشبية ، وقطع البلور فى الثريات ، التى اكتسبت مـــع الوقـــت شيـــئاً من عبق الأجداد . تقدم الموكب خطوةً خطوة ، وانحنى فى طريقه، حـــتى وصل إلى الساحة الواسعة قبل أن يصعد درجتـــين تفضيـــان إلى الصالة الكبيرة ، حيث العروس المنتظرة فى الكوشـــة غارقـــة فى خجـــل وحشى .

التفّت النساء والبنات فى حلقة واسعة حول العريس ، ومعه ثلاث من المتمرسات فى الغناء ، صفقن إيقاعاً اتفقـــن عليـــه بســـرعة ، وانفجر الكون من حولهن بغناء جماعى واحد يردد صدى لحنهن البدائى :

غنِّـــــى لاخوكـــــــى يـــــــا صبيــــــــة غنِّــــــى
خيِّـــــــك شقيقـــــــك حارسُـــــــه المتـــــــولى
غنِّـــــى لاخوكـــــــى ياصبيـــــــــة قُـــــــولى

تحررت عشرات الطلقات نحو السماء ، تفـــزع الطيـــور فى أعشاشها، وتُجَمِّع الدموع فى عينى حلمى ، الـــذى لم يعـــرف كيـــف استطاع حبسها فى آخر ثانية . اندفع التيار يجرف العريس أمامه ، حـــتى وصل إلى الكوشة، وجلس بجوار عروسه العارية الذراعين ، الملتفة بدثار فضى يتلألأ مثل ورق الشيكـــولاتة ، ويعكس وهجاً فاقعاً ، لا يخفـــى دفئهـــا ورقتها . كان كل ما فيها دقيقـــاً : شفتاهـــا ، وأنفـــها ، إلا عيناهـــا ذات الحور الوحشى الغارق بؤبؤهما فى بياضهما الواسع . شئ ما فى هاتين العينين يجعل من يتأملهما يرخى جفـــونه خجلاً . ربما نداء شهوانى مدثر بحياء حار ، وحقيقى، وقدّ ضئيل بض ، يعلوه تاج أســـود قصير ، مدببة حروفه المنسابة حول الخدود .

زعق الرجال والنساء معاً فى أنشودة حماسية ، قـــائلين أن لا أحد يقدر على فرحهم ، وإن طال العلالى ، حتى هدوا ، وتركوا المكان للغـــوازى ، ولمطربة جاءت خصيصاً بفرقتها من القـــاهرة . وتراجـــع الشبان المتمردون الذين حاولوا البقاء مع صديقهم ، لكـــن التعليمـــات الخفية كانت قد سرت : عودوا إلى الدوار الخارجى ، والشكمـــة مـــع عجائز العائلة الحكماء ، وكفاكم ما نظرتم من نساء. صغـــروا ، حـــتى استطاعوا العودة قبل الفجر بقليل كى يسلموا العروسين إلى عشـــهما ، ويطمئنوا أن كل شىء تمام!!

تأمل حلمى العروس : جميلة ، وديعة ، انسحبت الدفوف من أذنيه ، وسكنته موجة أسئلة غرق معها :

ــ لماذا يختار الرجل شخصيةً مختلفةً عن حبيبتــــه ؟ محمـــود يهرب إلى الهدوء . يأخذ راحـــةً .. هدنة ، لو كان اختار امرأةً قويــــةً، قريبة الشبه من نهى ، لكان اختياراً حرًّا غير مقيد ، أقرب لطبيعته .

ــ هل شفى حتى يكون حرًّا ؟ ربما قتل الحب على مـــهل ، وبقى خيط واه ، تهاوى فى النهاية وحده .. ربما .. ربما .

ولد القمر مرات كثيرة ، وتناسخ وجهه المضىء فى السماء، حتى أصبحت نهى زوجةً لحلمى . أقنعها بالزواج منه ، قال لها :

ــ انعتقى .. أبدلى رداءك ، انسلخى من قشرك القديم .

قالت له ، وهى تغالب رغبة فى النسيان :

ــ ما زلت مريضة ، ضعيفة ، لا أقوى على رحلة الحريــــة عارية ، ولا أعرف ما أريد!!

ــ سأكون دثارك ، تدفئى ، واخرجى فراشــــة جديـــدة .. ساعتها لن أفرض نفسى عليك ، وسأتركك تختارين .

ــ تستحق امرأةً تحبك .

ــ أحب امرأة ، وهى فى طريقها الآن نحوى ، لا تصـــادرى قدرتى على استمالتها ، هى لم تعرفنى أبداً .

ــ لماذا تحرمنى من صديق أشكو له آلامى ؟

ــ سأكون قنديلاً يثقب ليلك بجسارة المحارب .

ــ ليلى مختوم بالوحشة ، أوشك أن يتفسخ بالعزلة .

ـــ لا تكونى نهراً لا يحلم .. أنت امرأة رافلة بالتمرد ، لم تتخلين عن درعك ، وتواجهين الموت بالسكون ؟

ـــ تعبت من السفر إلى مزارات لم يعد لها وجود .

ـــ سأجعل عواطفى شلالاً يتدلى على كتفيك ، يفتت صخور القلق .

ـــ معجونة بشهوة الوجل ، ضائعة بين أشجار الوجد السوداء .

ـــ دعينى أدفئ أطرافك التى بردت من الصمت ، وأمسح تفصدات العرق التى ولّدها الألم فوق جبينك .

ـــ كل فجر موثق بالأغلال ، كل صخرة كستها طحالب الهجر .

ـــ البحر يقود إلى بحر ، اسبحى إلى الدفء ليسود .

ـــ استيقظت وبين يدى رأسى ، وأطلال أحلامى .

ـــ فى مكان ما حولك جزيرة تجدف إليك ، أقلعى إليها ، تدفقى ألقاً ، انقشى قدرك فى النور بألوان وإيماءات لأناس يحبونك. ابنى قلعتك فوق تجاعيد النسيان . وانفضى عن ذاكرتك الغبار .. اتركيها لزخات المطر الجديدة ، وومضات البرق التى حتماً ستخز المدفأة وتهيئها لبراد قهوة .. وبخار نستنشق عبيره معاً..

رعدت أجنحة العصافير الخضراء ، فى سماء المنتهى . أزاحت الرمادى من نبضات الفجر ، واخترقت الغيوم الكاذبة التى ملأت ذلك الصباح ، الذى لا يريد الانبلاج . نفثت بقوة زفيرها آهة صيف ساخنة ، ثم سادت صفحة السماء فى جلال ورهبة ، ألهبت الأفئدة . رفعت الفلاحات رؤوسهن المتكسرة نحو السماء ، يائسات ، وصلب الآباء أعوادهم التى انكسرت تحت رحى الهزيمة، اقتلعوا أنفسهم من الدور اقتلاعاً ، يدفعهم هذا التوق الوحشى للحنين ، ويكبلهم خزى فعل لم يقوموا به . تأرجحوا كأنهم غير ذاهبين للقاء الأحبة . لم يصدقوا أن تتخلق العصافير بهذه السرعة من الدم الحى الساخن ، المسكوب على طول البلاد ، كيف تركته رمال سيناء العطشى دائماً ينهض . للمرة الأولى تحفزت الأمهات بحق ، رفضن أن يتحول الأبناء إلى عصافير مثل سائر الأمهات من قبل . كن قد وطّنّ أنفسهن على انتهاء مجازر الشباب، تصورن أنه لا توجد فى العالم الآن قوة قادرة على الفتك بهم . راح ذاك الزمان وولّى ، كيف يعود ؟

تطلعوا جميعاً إلى عيون العصافير مندهشين ، غير مصدقين ، مترددين فى رفع الأيدى ، لا يفهمون ما حدث . مازالوا تحت رحمة سرعة النصل الحاد . قالوا فى صوت واحد تردد صداه :

كيف ؟!

ترنحت العصافير ، وهى تحاول أن تخفى مناقيرها بريشها الناعم . اكتشف الأهل كم أن الأجنحة قوية ، تشبه السواعد التى تحمل الفؤوس تحت لهيب الشمس الحارقة فى أبيب وتوت ، وتعزق الأرض فى برد طوبة. سدوا أنوفهم بقوة لا تناسب أجسادهم الصغيرة، محاولين ألا يغمضوا عيونهم . تلفت الفلاحون باحثين عن السبب ، محاولين أن يفهموا ما يحدث ، أرادوا السؤال إن كانت ريح كريهة تهب فوق القرية تخنق العصافير ، وهم لا يشمونها . تسمروا فى أماكنهم وما استطاعوا السؤال ، زعقت العصافير :

رائحة عفن .. الفساد يعشش بينكم ، الزرع لا يترعرع فى أرض لا يقلبها صاحبها ، ويفتح قلبها للشمس . طهروا البلاد.. طهروا البلاد .

كانت المنتهى قد طلت زجاج نوافذها بـــالزهرة الزرقـــاء ، ورصت أجولة الرمال أمام فتحات البيوت الضيقة . دخل الليل بســـرعة لم يعتدها أهلهـــا الذين عشقوا النور ، وتعلموا الجلوس أمام الـــدور فى ضـــوء الكهرباء، يتســـامرون ، ويلعبون السيجة ، ويحكـــون قصـــص الزمن القديم ، ويحلمون مطمئنين إلى القادم المبهر. عرفوا أسماء بلاد مـــا سمعـــوا بها أبداً تتحرر وتثور على ذل طويل المدى . فرحوا لها كـــأنهم أبناء عمومة . اتسعت رقعة العالم فى خيالهم ، ورأوهـــا علـــى شاشـــة التليفزيون فى الساحة ، وحفظوا خطابات الزعيم التى تبشرهـــم بوطـــن كبير، يتنقلون خلاله بحرية من المغرب إلى الشام .

ليل خبيث ، كسر النفوس ، حاول أن يعيدهم إلى المـــاضى. لكنهم حتى ما استطاعوا إحلال السؤال الذى بلا إجابة محـــل الحلـــم.. تغيرت القرية كثيراً . غاب الشباب فى الجبهة التى لا يعرف معظمهم أين حـــدودها ، وفرضت أسماء مدن القناة نفسها على صباحهم بأهلها الذين وصلوا فى البداية بأعداد قليلة ، وسكنوا تخشيبة المضيفة . استوعبت القرية مشاكلهم ، وساعدتهم على حلها، لكن معظمهم تركوهـــا بســـرعة إلى مدن أكبر ، ثم فوجئت المنتهى بهم يتوافدون عليها فى حالة بائســـة إثـــر

ضرب معمل تكرير السويس بالقنابل . أخرج الفلاحون من دورهم كل ما يستر هذه العائلات التى وجدت نفسها مكومةً بالعشرات فى بناء واحد ، فى التخشيبات أو المدارس التى أخليت، وبعضهم سكن الساحة الشعبية. نظرت القرية إليهم بعطف مشوب بحذر .

قال طه المصيلحى لأهله : هؤلاء تجوز عليهم الصَّدقة مهما علا شأنهم ، هذه كربة المؤمن التى يمتحن بها ..

التفت إلى الأبناء :

ـــ دبروا لهم عملاً ، ولا تكتفوا بمساعدة مالية ، تنسوهم بعدها . لا تدفعوهم إلى الذل ثم إلى الجريمة .

تساءلت نساء المنتهى :

ـــ كيف تنام البنات مع الصبيان الغرباء فى ساحة واحدة ، لا يفصلهن عنهم سوى ملاءات قماش .

فتشوا فى البيوت عن ألواح الصاج ، وأفرخ الكرتون ، وصناديق الشاى الخشبية ، وبنوا معاً سواتر هشة .

فتح الدوار أبوابه لعدد من العائلات ، نصبوا لهم خياماً واسعةً فى إسطبلات الخيل الفارغة إلا من عدد محدود . طلبت وديدة وسط حزنها على استشهاد ابنها عبد الحميد أن يختاروا الأسر التى رحل عائلها بحثاً عن عمل ، وأردفت :

ـــ آتونى بالبنات .

تمكن عبد الله من العثور على عمل لعدد من الرجال فى شركة مقاولات الوادى ، ورحلوا معه تاركين الأهل ينتظرون ، فى طابور المساكن الشعبية ، الذى أصبح شغلهم الشاغل ، كل يوم للحديث فيه.

انتعشت الحياة أمام الساحة الشعبية ، وازدحمت . نصبت نساء المهاجرين مناشر خشبية لأكوام الغسيل تحت الشمس ، على حافة النهر الذى استبدلوا البحر به . وعرفت المنتهى للمرة الأولى حكايات الصيادين عن البحر الكبير ، والأمواج العالية ، والعواصف ، وأيضاً الرزق، والتفوا معاً حول راكية النار فى ليالى الشتاء الباردة ، التى امتدت لسنوات ، يستمعون إلى السمسمية وأغانى البمبوطية . ورأوا البنات يرتدين زياً قصيراً مشجراً بورود فاقعة اللون ، يظهر من تحتها بنطلون قصير ، ضيق ، جميل . تأملوا الاختلاف ، ثم قبلوه فى النهاية مرتاحين. انتشرت ماكينات الخياطة والتريكو ، وراحت البنات يعلمن الفلاحات أشغال الإبرة، واستحدث المهاجرون فى القرية فصولاً خاصة لتعليم فنون التطريز، راحت إليها البنات بعد المدرسة نظير قروش قليلة ، وأحيانا أرغفة خبز ، أو مكاييل ذرة أو قمح . وعرفت المنتهى ، للمرة الأولى فى حياتها ، بيع اللبن ، الذى كان يتنقل مجاناً بين بيوتها قبل التهجير، إذ لم تستطع المنتهى إمداد هذه الأعداد الغفيرة من المهاجرين باللبن ــ الذى يتحول الفائض منه إلى جبن ويباع ــ مجاناً . عرف الفلاحون أيضاً قصص الشباب البعيد ، وانتشرت أسماء المجندين بينهم ، وانتظرتهم المنتهى فى العطلات كما تنتظر أبناءها .

دبر عدد من المهاجرين أعمالا ناجحة فى القرية ، افتتح أحدهم متجراً واسعاً نقل إليه البضائع من الأسواق البعيدة ، وبنى آخر مركباً شراعياً نقل به المسافرين القادمين من وإلى السكة الحديد ، ثم اشتهر فى القرية عم خليل الذى بنى صندلاً كبيراً استقر أمام الساحة الشعبية ، نقل به الناس إلى قرية مسيس المقابلة . اكتشف الفلاحون كم أن مسيس قريبةً ، وكانوا يقطعون مسافة كبيرة حتى العيون ، ليعبروا الجسر، ثم يعودون فى الطريق المقابل ، لكنهم لم يكتشفوا الحل من قبل على بساطته . انتعشت التجارة أمام الساحة ، وظهر سوق جديد ارتادته القرى المجاورة لمسيس على الضفة الأخرى من النهر ، وسرعان ما تغيرت خريطة المنتهى، وبنيت على عجل محلات صغيرة بجوار الساحة، أطلقوا عليها محلات السويس .

تحول عم خليل إلى مدير لشئون المهاجرين . كان نحيفاً ، صلب البنيان ، يميل إلى القصر ، له ملامح دقيقة ، وعيون صغيرة عسلية عميقة النظرة ، وشعر أكرد بنى ، وجلد جففته الشمس فى المدى الواسع، ولونه البحر بسمار "قادح" ، يتكئ على قدمه اليسرى بعرج خفيف إثر إصابة قديمة فى حرب ١٩٥٦ . اعتاد العمل منذ بنى صندله عند شروق الشمس ، وحتى موعد وصول آخر قطار يمر بالمنتهى ــ بعدها ينشر شباك الصيد على امتداد الشاطئ ، ويجمعها عند الفجر ، لتدور نساء المهاجرين بالأسماك الصغيرة على البيوت ، ويبعنها للفلاحات .

هشت المنتهى أصوات الاستغاثة التى تطرق بابها من آذانها، واستسلمت للنوم . لكن الزئير الذى بدا أول الأمر غاضباً كأنه صوت

وحش هائج وقع فريسة مصيدة ، ما اعتراه التعــب ، فأرســل صفــيراً مستكيناً سرى مع نسيم الليل الذى جثم على المنتــهى بعــد الغــروب مباشرة، وطرق أبواباً ففتحت له ، وهى تستعيذ بـــالله مــن الشيطــان الرجيم. تقلقلت الأسِرَّة تحت حركة الناعسين ، القاعدين من النوم فجأة، ووخــزت أعواد الساس [٦] أجساد المتعبــين فــوق قبــاب الأفــران ، وطرحتهم أرضا . فتحوا الأبواب وهم يرتجفون بخليط من الخوف والألم. اكتشفــوا جميعاً ، فى لحظة واحدة ، أنها حقيقــة ، وليســت وهمــاً . تشاوروا على عتبات البيوت، والصوت الذى أوضحه صفاء الســكون يشير إلى النهر .

ــ حصان ؟

ــ ليس صهيلاً !

ــ ذئب فرمته عجلات القطار ؟!

ــ لا يمر قطار الساعة .

ــ مؤكد ذئب مجروح .

ــ تغير الآن ..

تقدموا ناحية النهر الذى لم يظهر لونه ، بل عكــس ســواد الليل القاتم ، وارتعش بترددات الصوت كأنه قيثارة ربانية ، تعزف لحنــاً جنائزياً فى الفضاء الواسع ، استسلموا له مندهشين ، سكنوا، ملتصقــة

---

٦) الساس : هو حريد النخل بعد تفكيكه إلى أعواد رفيعة ويستعمل فى الحاشية الفقيرة .

أجسادهم يحاولون الاحتباء من برد الفجر الذى أوشك أن يهل . صـــاح ديك مغامر ، أيقظته الجلبة المفاجئة :

كوكو كوكووووو

انتبهوا ، وقرروا الرحيل إليه . مشوا فى طريق المعاهدة الذى يوصل إلى محطة القطار ، لاحظوا جماعة المهاجرين عند باب الســـاحة ، دعوهم للانضمام ، انفتحت الدور أمامهم ، واستقبلوا المتدفقــين منــها رجالاً ونساءً وأطفالاً . حملوا فوانيس صغيرة ، ومشــــاعل ، وفؤوســاً دفعهم الخوف لحملها ، ومن ورائهم الخفر ببنادقهم الخالية من الرصاص . تبادلــوا النظر دون كلام ، وهم يلاحظون خفوت الصــوت ، كلمــا اقتربوا من مصدره . اهترأ وسط التعب ، وراح ينازع اللحظات الأخيرة. هرولوا رافعين المشاعل أمام العيون، وجدوه والصبح يشق السماء ، تطلع إليهم بعيون اليأس .

قال عم خليل : لا تخافوا .. أغلقوا أبواب العيون كلها ..

تجمعوا فى مراكب صغيرة ، ودفعوه بقوة حتى خـــرج مـــن العين، التى انحشر بين جانبيها ، وجروه بشباك الصيادين إلى الشــــاطئ . غاصــوا فى الماء حوله ، وقد تخلصوا من الرهبة ، وتحسسوا جلده الأسود الذى يبرق بالقصب ، مع خيوط الشمس الأولى . ربتوا فوق ظــــهره ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وظل ابتسامة يزحف . رأوهـــا ، وأقســم بعضهم أنه تبادلها معهم ـــ ظل زحف على الوجه الغريب لكائن مائى لم يروا مثله من قبل .

قالوا وجلين : سمكة!!

أجاب عم خليل بهدوء : نعم ، لم ينسنا البحر . هو حلال، لكنه يحتاج إلى تجهيز .

جروه وراء مركب كبير حتى رسوا أمام الدور ، وانشغلت نساء المهاجرين بسلخ جلده ، والرد على أسئلة الفلاحات عن كيفية طهوه ، وعم خليل يقطع بسكينه شرائح كثيرة ، قضوا نهارهم فى توزيعها. وعند المغارب التفّت كل الدور حول طبالى العشاء أمام صوانى الطعام ، وتذوقوا "صيادية" سويسى "معتبرة" محشوة بالبهارات، والكسبرة ، وسمك مدفون فى طواجن الأرز ، قالوا إنهم لم يذوقوا مثل حلاوتها .

وترددت فى التخشيبات أغان هادئة ، لها رنين حزين ، تستجدى الغد ، وتغازل سؤالاً كبيراً عن العودة إلى الوطن ، يراوغها ويهرب ، ويستجلب مع رحيله دموعاً تود لو ولدت مرتاحةً فوق الخدود، تغزل الصبر مع الكلمات التى تسبح فوق قطرات النغم المنهمرة من السمسمية

يا بيوت السويس　　　　يا بيوت مدينتى
أستشهد تحتك　　　　وتعيشى إنتى

يابيوت السويس

جلس محمود فى "الشكمة" ، فى نفس المكان الذى شهد شيخوخة أبيه الشيخ طه المصيلحى ، يستجمع ذاكرته ، ويستنشق عبير ما بعد المطر . علمته الحركة فى طول البلاد وعرضها أن لكل أرض رائحةً مختلفةً تبثها مع أول زخات الماء ، تخفت فى الصحارى لكن المجرب يحسها.

هل يأتى يوم أستطيع فيه أن أجمع الأثر بالصورة ؟ أن ألملم الشتات فأصل إلى الحقيقة ؟ تعاقبت الأيام، والغزل مهلهل ، والخلايا التى أبصرها أحياناً حيةً تراوغنى ، كأنها فقاعة . ماذا فى حياة هذا الإنسان ليرفض الحياة ؟ حتى الآن ، ما قرأته وما تذكرته لا يعدو أن يكون مشاكل طبيعية ، لرجل عملى جداً ، فمن أين جاء الوجع ؟

تنفس الهدوء ، وترك لعقله فرصة راحة اكتسبها من قراءاته الكثيرة لليوجا ، لكنه فى هذه اللحظة لم يكن يعرف لماذا يفعل ذلك .

فى الصباح عاد نشطاً إلى أوراقه .

كنت وزملائى نعرف نقاط ضعفنا ، لكننا لم نتصور، وللحظة واحدة ، أنها ستؤدى بنا إلى الهزيمة . كبرت نقاط الضعف أمام أعيننا ، وتضخمت ، وازداد إحساسنا بضرورة التغيير من الجذور ،

وإعادة البناء . كان تفكيرنا جماعياً ، وشعورنا جماعياً ، وحتى الحزن والانفراد والعزلة ، فيه بعض من الآخر ، اتخذنا قراراً فورياً بالعودة من البعثة ، وحالت ظروف الطيران دون تنفيذه . ضغطنا بشدة حتى يدبروا لنا السفر فى أسرع وقت، وأنذرنا بالاستعداد للرحيل ، وتأجل الموعد أكثر من مرة حتى انتهت الحرب ، واستمرت الدورة .

أرهقتنى الأخبار ، شعرت بها غرباناً تقتات من جرحى الحى، سأحتمل ، ولن أترك الحقائق تنزلق بعيداً عن السكين . يجب أن أواجه أول الأسئلة :

من المسئول ؟

وأن أكون شجاعاً ، لكى أعترف أننى أحد المسئولين عن الهزيمة ، أنا محمود المصيلحى ، مدرس التكتيك ، لمدة أربع سنوات متتالية، فى الكلية الحربية . تخرج من تحت يدى أربعة آلاف ضابط ، هم قادة الفصائل فى الحرب . درست لهم التكتيك ، ودخلوا الاختبار العملى وسقطوا . فمن السبب ؟ لن أهرب من مسئوليتى ، حتى لو لم أكن موجوداً فى مصر وقت الحرب . ويجب أن أحقق فى هذا الأمر بنفسى ، وأن أعالج الخطأ ، إذا كانت هناك فرصة للمشاركة فى إعادة البناء .

عرفت يوم ٩ يونيو أن جمال عبد الناصر سيخطب فى السادسة مساءً . خرجت من مبنى الكلية ، وكنا نسكن أحد مبانيها ، همت فى الشوارع محبطاً وغاضباً ، لا أريد أن أسمع ماذا يقول . احتلت الأسئلة السكينة ، حفرت خنادق فى القلب والعقل، سكنها الشك . كيف استحال الماء حريقاً ، والوطن خجلاً ، حلماً فى أول النهار ، قبراً

فى أول الليل . عدت فى الثامنة فلم أجد فى البناء لا الضباط المصريين ولا ضباط العالم الثالث ، خرجوا جميعا . توجست ، وذهبت إلى اليوزباشى الروسية لأسألها عما حدث :

ــ أين الجميع ؟

قالت فى دهشة : ألا تعرف ؟! إلى السفارة المصرية .

عادوا معاً ، وسألونى غير مصدقين : لماذا لم تأت ؟ كل أبناء العالم الثالث الموجودين فى موسكو ذهبوا إلى السفارة . مظاهرة لم تشهدها العاصمة إلا فى أيام الثورة البلشفية .

قلت يائساً من كل شىء ، وأنا أسمعهم يتحدثون عن التنحى، وهم متحمسون للإبقاء على الرئيس : إذا لم يكن فى مصر غير جمال عبد الناصر واحد ، فهى لا تستحقه .

تصاعدت الأصوات حولى تجأر بأنه ليس وقت العتاب ، قلت : ليس عتاباً . لقد آمنت أننا كلنا جمال عبد الناصر . أشعر الآن أنه كان مجرد شعار صدقناه ، وكان يجب أن نكونه .

حاولت الانسحاب والاختلاء بنفسى ، لكن الصوماليين انفعلوا بكلماتى ، واحتدم النقاش مع الباكستانيين والهنود والأفغان . دافعوا عن عبد الناصر بشراسة ، رغم أننا كنا نتحدث لغةً واحدةً ، وكنت مقتنعاً بما قالوا ، لكننى كنت خائفاً جداً من الاعتماد على الفرد ، ومن الارتباط الشديد به ، فسألتهم غاضباً :

_ ماذا إذا غاب ؟

_ كلنا هو .

_ يا خوفى أن ننفرط !!

لم يكن هذا الرأى مناسباً بأية حال فى وقت التيار فيه بعيد كل البعد عن الواقع ، طالت المناقشات حتى الصباح .

قضيت أيامى محبطاً ، وحزيناً ، ومصمماً على ضرورة الخروج من هذا المأزق بالعودة إلى مصر ، حتى جاءتنا أوامر باستمرار الدراسة إلى أن انقطعت بعد ثمانية أشهر وعدنا ، بعد أن علمت متأخراً باستشهاد أخى عبد الحميد فى الأيام الأولى للحرب.

بحث فى الأوراق التالية عما كتبه عن عبد الحميد ، مر بالعودة ، والاستنزاف ، وحتى ميلاد سمير ، دون أن يعى شيئاً . بعد دقائق كان قد أدرك أنه لم يخط حرفاً واحداً عن مشاعره تجاه استشهاد أخيه .

شاهد حركة أحد خيوط الحوصلة ، التى أتقن تكفينها بعناية فائقة فى بئره ، يخز القلب مباشرةً .

الآن أعرف أن المرارة أكبر من التعبير عنها . أستطيع أن أتتبع أول خيط ، وأن أفصله عن الشبكة التى تعقدت ، وأن أخرجه إلى النور!!

لم ينم ليلته ، ولا ذاق طعاماً . لاحظت وديدة شروده ، وعودته إلى حالته الأولى بعد الحادث . أدركت أنه مس أحد الجراح . ربتت فوق كتفه :

ـــ عبد الحميد يا محمود ؟

ـــ لا بأس .

خرج إلى الفضاء من أول النهار ، انتظرته بصبر ، وجلست قبالته ساعات . وتكرر هذا لأيام طويلة ، لا تنطق ، تصارع لهفتها على إعادته إلى ما كان قد وصل إليه ، وحزنها الذى طغى فوق اللجة ، وقلقل المواجع كلها . هى الراضية بقسمتها ونصيبها مـــن الحيـــاة ، المدركـــة لصيرورتها ، الآن لا تريد من الدنيا إلا استعادته . تذكرت رغبته فى رؤية سمير ، وفكرت أن تطرح عليه اقتراحاً باستدعائه . صافى لن ترفض لهـــا طلباً ، أم أن الأوان لم يأت بالفعل ؟ اتخذت قرارها ، واتصلت بابنتـــها قمر ، فأجابها زوجها فريد شوكت بأنه سيذهب بنفسه إلى صافى .

فى المساء ، حين حملت إليه صينية قهوة ، قال لها :

ـــ لا تتعجلى يا نينا ، لا أريد سمير الآن .

لم يرمش لها جفن ، ولا سألت نفسها من أين علم . كانت تعرف هذه الطاقة فى عائلتها . قامت إلى التليفون ، وألغت ما اتفقـــت عليه مع فريد شوكت ، ونامت مرتاحةً لأول مرة منذ شعرت بانتكـــاس حالته ، وسهر هو يفكر فى سؤال واحد :

ـــ ما فائدة جلد الذات بالسياط ؟

الشىء الوحيد المنطقى هنا ، هو أن أعرف ما يخفـــى هـــذا الصدر .

قضى أطفال عائلة المصيلحى صباحهم كله جالسين تحت التوتة ، أمام السلاحليك الفارغ من الذخيرة يخططون ، كيف يخرجون محمود عن صمته الذى زاد بشدة فى الشهر الأخير ، حتى أنه اعتزل لقاء أخوته باستثناء غداء الجمعة معهم بعد الصلاة ، ثم يلوذ بغرفته . وصلوا كالعادة يوم الخميس مع عائلاتهم ، وانطلقوا إلى الغيطان مع أول إشراقة شمس ، لكن شمس أمشير المضطربة أعادتهم مع أول وخزة برد ولفحة ريح ، إلى خميلة الشاطئ ، فتحصنوا بالجدران . رسم هانى الطريق من "الشكمة" حتى الحرملك فى خطوط على الأرض مستخدماً فرع شجرة .

قال إسلام : غداؤه فى الواحدة تماما . يحتاج إلى خمس دقائق كى يصل إلى نينا وديدة . لم يبق لنا إلا القليل ، هيا نتخذ مواقعنا .

دخلوا الدوار من باب الزريبة الخلفى ، حتى يتجنبوه ، اعتلوا سطح مخازن الغلال ، واختفوا خلف حزم الحطب ، محتملين وخزاته ، محافظين على السكون المستحيل وسط هشاشة أغصان القطن الجافة .

أعطى علاء من فوق سطح الفيلا الإشارة الأولى ، حين عبر محمود درجات الشكمة ، متجهاً إلى الرواق . وصل التحفز بين المتربصين إلى أعلى درجة ، طقطقت أجسامهم الصغيرة تحت رحى الإثارة .

جذب هانى حبلاً ، فوقعت قوالب طوب ، على بعد خطوة واحدة من محمود ، محدثةً ضجيجاً وغباراً ، فرفع عينيه إلى أعلى ، ولاحظ رعشة الحطب ، وخشخشة تكسر فروعه ، واهتزاز ظل ما فى الناحية الأخرى . ركن فتافيت الطمى ، المتناثرة من الطوب اللبن بجوار الحائط ، ومضى فى طريقه كأن شيئاً لم يكن، ثم انحرف فجأةً ، واحتمى بالجدار الجانبى الذى يفصل المخازن عن الرواق قبل أن يعبر بوابة الحرملك ، وتجنب بهذه الحركة المفاجئة بذور المانجو التى انهالت من السماء . عبرها ودخل إلى الحوش ، وانضم بهدوء إلى العائلة ، واختفى وسط طنين الإعداد للطعام .

لاحظ فرحة أمه بوجود ليلى زوجة أخيه الشهيد . تذكر أن عبد الحميد لم يتزوج ليلى إلا لشهور قليلة ، رحل بعدها ، تاركاً علاء جنيناً فى بطنها ، "ما أجمل روحك يا ليلى ، كأنك ولدت هنا ، وعشت حياتك كلها ، وكأنك أنت وليس علاء الامتداد الحقيقى لعبد الحميد" . تذكر سمير ، وهز رأسه .

قالت وديدة لابنتها بنورة : تنقصنا نازلى يا حبة عينى . دائماً غائبة ، رضينا ببعد كوثر ، ولا حيلة لنا فى الغربة . متى يفرجها ربنا على نازلى ، ويرضى الدكتور موسى أن تأتى لقضاء الأجازة معنا ؟

قالت بنورة : أعيد عليك كلمات أبى يرحمه الله .. اتركيها لحياتها ونصيبها يا نينا .

قالت وديدة : نصيب!

اكتملت العائلة ، وتحلقوا حول الصوانى ، واتخذ محمود مكانه بجوار هانى ، الذى بوغت حين رآه يقترب منه بهدوء ويقول بصوت منخفض :

ـــ لا تبعثر هداياك بهذه الطريقة .

تلعثم الصبى ، وهو ينظر بخوف ناحية أمه ليرى إن كانت تلاحظ الحوار الدائر ، ثم سأل محمود بصوت خافت :

ـــ أنا ؟

أجاب محمود : لا بأس .

أقسم الأولاد أن محمود كامل القوى ، وأنه لا يرغب فى الحديث معهم ، وأن ذاكرته وملاحظاته أكبر كثيراً مما يعتقد الجميع .

عدت إلى مصر ، وعينت رئيساً لعمليات فرقة . حرصت على سؤال كل من أعرفه عن الحرب : أين كان ؟ وماذا رأى ؟ وكيف تصرف ؟ لم ترحني الإجابة ، فقد اكتشفت أن أغلبهم لم ير العدو ، أو يصله أمر بالانسحاب . لم أعف القيادة من المسئولية، لكنى تأكدت فى نفس الوقت أن المسئولية عامة . ولهذا قررت أن أركز على معالجة هذا الخطأ أثناء إعداد الضباط لمواجهة الحرب ، وأن أحرص فى نفس الوقت على صافى، التى قابلتنى برغبة حقيقية فى مواصلة الحياة معى . غرقت فى دوامة مشروعات الفرقة، من السادسة صباحاً حتى الثالثة من صباح اليوم التالى ، وفاجأتنى صافى بحملها . أعترف أننى فرحت لها بشدة ، أكثر من فرحى لنفسى ، بالامتداد فى آخر . ومع ذلك ، لم أستطع أن أرعاها رعايةً كافيةً ، لأن الهزيمة تدفع بنا إما إلى النصر، أو إلى الموت . وكنت مصمماً على أن أهب ابنى ، القادم بعد شهور ، حياةً حرةً ، وهو ما قصر حياتى على الوجود فى المعسكرات ، بين الجنود .

نُقِلَتْ الفرقة إلى السويس ، فى أكتوبر ، بعد أيام من معركة المدابح ـ أول اشتباك بالمدفعية عبر قناة السويس ـ وتهيأنا نفسيًّا وعمليًّا للدخول فى الاشتباكات مع العدو بعنف ، لكن الظروف تغيرت خلال

ساعات بعد أن ضربت إسرائيل مخازن البترول فى الزيتية ، ثم نسفت محولات الكهرباء ، فى نجع حمادى ، وأصبحنا فى حاجة إلى هدوء يتيح إصلاح المحولات ، وتوفير موارد البترول. رزقت بابنى الوحيد سمير ، وأنا أتمزع بين السكون الجبرى ، الذى نعيشه ، والذى استغلته إسرائيل لبناء خط بارليف، والقلق الذى يرعى بين الضباط ، والذى تحول إلى خطط لتدمير دشم العدو . عرضت على قائد الجيش ، فوافق عليها ، وعممت على القوات المسلحة ، وبدأنا التنفيذ فى ٧ مارس ١٩٦٩ . وفى اليوم التالى ، استشهد عبد المنعم رياض .

.. ..

.. ..

ما حدث فى الجيش المصرى ، بسبب هذا الاستشهاد ، لا يمكن التعليق عليه .

نعم ، لا يمكن التعليق عليه ، فالجرح ما زال غائراً رغم مرور كل هذه السنوات .

هكذا ردد محمود الكلمات بصوت عال ، وهو يستعيد الأثر للمرة الأولى ، الأثر الذى كان يبحث عنه ، فى الصورة التى يقرأها .

نجح الألم فيما فشلت فيه العناصر الأخرى . الألم الذى دفع عقله دفعاً للصيام ، كما اكتشف ذات يوم .

حولنا الغضب لعمل وتدريب ، واستغرقتنى وزملائى دراسة العدو تماماً . جمعنا معلوماتنا عن نظامه فى الضرب ، وردود أفعاله ، وحجم الضرب الذى يوجهه لنا ، لكى نخسر شهيداً أو جريحاً ، ونوع

السلاح المستخدم . فحصنا القنابل التى لم تنفجر ، وفحصنا شظايا القنابل المنفجرة . درسنا أماكن هجومه ، وحللنا ملاحظاتنا ، وبنينا خططنا فى الهجوم والدفاع بناءً عليها . لهذا ، نجحت خطوات السرد عليه ، وإصابته فى كل مرة . إذ لم أشجع تبادل الضرب حين يهاجمنا ، بل كنت أختار هدفاً معيناً ، أقدّر وجود تركيز كبير للعدو فيه ، وأحشد ضده أكبر عدد من الأسلحة ، ونضربه جميعاً ، فى وقت واحد ، بحيث لا يعرف من أين يُضرَب ، وتنتهى مهمتنا بهذه الضربة .

تعلمت الكثير من الصحراء ، وأنا أتأملها ، فى تقلباتها المختلفة ، جلست فوق تبابها الرملية ، أتابع تمددها أمامى بلا نهاية ، بلا عتمة ، تكشف لى عريها بلا خجل .. سماء جرداء بلا سحب ، تلسع الهواء فيرتفع قليلاً فى خيوط تنتفخ ، شفافةً ، لكنها مجسمة ، مثل زجاج أو مرايا حية مراوغة . تسربت مع الرمال إلى مواطن أسرارها ، وناجيتها:

ــ تجاهلناك زمنا ، فحقت علينا الغربة ، وحق القصاص ، والانتظار على عتبتك للسماح بالدخول .

ــ تكلم من ؟ تكلم الصحراء ؟ أم نحن ؟

ــ الصحراء ، بمنطقها ، بمنطق أسرار العراء ، يكون اختباؤنا ، ويكون تربصنا بالأعداء ، ويكون وجودنا ، بقاؤنا أحياء..

أما نحن ، فأعترف أن الصحراء دلتنى إلى مفتاح فهمها ، وإلى التسامح مع ما فعلناه بأنفسنا . علمتنى الصحراء أن أقبل الكائنات بشروطها هى لا بشروطى ، وأن أقترب منها بالقدر الذى يسمح به تكوينها هى ، لا ما تخيلناه عنها . أعرف أن الوقت قد فات لهذا الدرس،

لأنني لن أستعيدك يا نمى ، ولن أقترب منك ، بأى حال ، لكن وقت التعلم لا ينتهى أبداً .

صدرت أوامر للفرقة بترك موقعها ، والعودة للتدريب على اقتحام المانع المائى ليلاً ، واحتلال رأس كوبرى ، وعمل مشروعات فى الفرقة ، وأخرى فى اللواءات ، وإعداد الموقع الابتدائى للهجوم ، فى أربعة أشهر ، وحتى أكتوبر .

لاحظ فضاء الغرفة المعبأ بالدخان ، والإضاءة المخنوقة أمامه. قام بفتح النافذة ليجدد الهواء ، اصطدم بدوامات الريح التى هاجمته بضراوة ، تريد منفذاً للدخول ، فأغلق النافذة بسرعة ، وعاد إلى قهوته وسجائره ، وأوراقه التى اعتلاها الذبول من شدة ضغطه عليها وهو يقلبها. شعر بها دافئة .

كانت مشكلتنا فى هذا الوقت ، هى الزمن ، والصراع معه. أخبرنى قائد الفرقة أن ما لن نستطيع تغطيته الآن ، لن نستطيع تغطيته بعد ذلك . وكانت مشكلة الساتر الترابى تمثل عبئاً على تدريبنا ، إذ اكتشفنا أن أول دبابة لن تعبر القناة قبل ست ساعات من الحركة الفعلية، وتدربنا على هذا الأساس فى مشروعاتنا . بعدها ، استدعانى رئيس هيئة تدريب القوات المسلحة وأخبرنى أن الفريق فوزى أبلغه بضرورة التزامنا بالمعدلات التى وضعتها القوات المسلحة ، وأن مشكلة الساتر الترابى ستحلها القيادة العامة ، فنياً ، وتكتيكياً ، قبل بدء الهجوم ، واستمرت الفرقة تصارع الوقت .

فى الصيف ، قدم لنا المهندس باقى زكى يوسف ، رئيس مركبات الفرقة ، وكان يعمل من قبل مهندساً فى السد العالى ، فكرة مدافع الماء ، لاختراق الساتر الترابى ، التى استقاها من خبرته فى العمل فى السد . شرح قائد الفرقة الاقتراح فى الاجتماع الأسبوعى للقادة مع جمال عبد الناصر ، فأمر بدراسته ، وبدأت العجلة تدور ، ورآها الرئيس بنفسه، ورأيتها على الواقع بعد ذلك بسنتين ، فى يناير ١٩٧٢ .

انشغلنا فى الإعداد للموقع الابتدائى للهجوم ، وكلنا أمل أن يبدأ . لكن ما حدث غير كل الأوضاع ، إذ أغارت إسرائيل فى سبتمبر على جنوب العين السخنة ، وأنزلت عدة دبابات ، فى وقت كان جمال عبد الناصر يحضر مشروعاً غرب القاهرة ، فأصدر قراراً بتغييرات كبيرة فى القوات المسلحة ، منها رئيس الأركان ، وجاء للفرقة قائد جديد لم أتمكن من فهمه ، أو التعاون معه ، وانتهى الأمر بنقلى .

رفع رأسه عن السطور ، قائلا لنفسه بوضوح وثقة :

ـــ أعرف لماذا اختلفت معه . أتذكر ذلك جيداً . كنت أعمل لمدة عشرين ساعة يومياً ، وهو يفكر فى كل الخطوات المظهرية ، يريد الخريطة ملونة ، لكن ماذا فى الخريطة ؟ لا يهم . خطة مجلدة ، ماذا فى الخطة ؟ لا يهم . اصطدمنا ، وبدأت ملاحظاته على سجائرى !

ابتسم . عاد بكرسيه إلى الوراء ، وللمرة الأولى تشهد الحجرة ضحكة مجلجلة ، قال :

ـــ طار صوابه من تدخيني أمامه ، كنت أدخن مائة وعشرين سيجارة يومياً . نقلت لأركان لواء مشاة فى منطقة بئر عديب شمال العين السخنة .

نظر إلى المطفأة المتخمة بأعقاب السجائر ، وقام يفرغـــها ، شعر بسخونة ، رغم أنه يسمع مشاجرات رياح أمشير خارج البناء . فتح حزام "الروب" ، وحل زر قميصه الصوفى عند الرقبة.

عاينت موقعى الجديد فى بئر عديب ، سهل مخنوق بين جبال ثلاثة ، ينتهى إلى البحر . غرفة بثلاثة حوائط ، على اليمين جبل الجلالة ، وعلى اليسار جبل عتاقة ، ومن الخلف جبل وادى حَجُول . كان اللـــواء يواجه خمسين كيلو متراً ، يشكلون قلقاً للقوات المسلحة ، لأن المنطقـــة بعيدة عن القوات الرئيسية ، وفيها محطة رادار ، تسعى إسرائيل لضربها . أعدنا تنظيم القوات ، حتى نواجه كل الاحتمالات . تعرفت على أرضى، وصادقتها ، وكان علىّ أن أعرف أسلوب العدو ، حتى أبدأ المراوغـــة ، طالما أنى لا أبدأ الهجوم . كنت أعلم أن فى الثبات الهلاك ، وأن الصيـــاد يرصد فى فريسته الاعتياد . يتتبع خيط الخطوات التى تبدو فى غفلتها أنها الحكمة ، وقمة التخفى . وقع العدو أسير أسلوبه الثابت ، فلم يستطع أن يصيب الرادار مرةً واحدةً فى وجودى . درست طريقتـــه فى الهجـــوم ، لاحظت أنه يرسل طائرة استطلاع على ارتفاع كبير لتصور الموقع ، وبعد يومين ، وقبل آخر ضوء تأتى طائرة ثانية ، على ارتفاع أقل ، لكنـــها لا تضرب ، وفى الصباح التالى يبدأ الضرب ، فى التاسعة وخمسين دقيقة ، أو

العاشرة وخمسين دقيقة ، وهكذا ، حتى الواحدة إلا عشراً . فإذا تأخرت الطائرات عن الموعد الأخير ، لا يكون هناك هجوم .

وضعت خطةً بسيطةً :

أترك الطائرة الأولى تمر دون تغيير فى موقع القوات ، وكذلك الثانية ، وبعدها أعطى الأمر بنقل المحطة، على بعــــد ثلاثــة أو أربعــة كيلومترات ، فى موقع تشغيل آخر . هكذا استطعنا أن نحافظ على المحطة، إلى أن أيقظتــنا الرياح ذات يوم ، وهى تصفــع الشكنـات بالرمــال ، دوامات تدور فى الفضاء ، تحمل نباتات جافة، وبقايا أوراق ، وأشواك ، وحصى. عواء يغرى بالسكون ، والتقوقع داخل الملاجئ ، وهدير ينبــئ بوصول شئ ، نذير الصحراء وصوتها ، حين يكشف عـــن وحشيتــه ، وتردده بين جــنبات الجبال الثلاثة ، ثم هدوء مفـــاجئ ، وصمــت ، تسربت خلاله أسراب من التراب الناعم ، والغبار الأصفر ، حتى انعدمت الرؤية تماماً ، وجفت الحلوق ، وارتدت الوجوه أقنعة من الأصفر الجيرى، وبدا الجنود مثل خيالات باهتة ، كائنات صحراوية حقـــة، وتذوقــت ألسنتنا طعم الملح الذى حمله الهواء رغماً عنه . لم يكن أمامنا إلا الامتزاج بها ، والاختفاء فى رحمها العريض ، حتى تصفو ، ويهطل المطر . ومـــع قطراته الأولى ، التى روضت الغبار ، جاءت طائرات العدو ، وجاء لنـــا أمر بتغيير موقع اللواء مع لواء آخر .

كان المنطقى ، فى وجود القصف المكثف ، أن نتحرك ليلاً، بدون إضاءة ، حتى لا يكتشف أمرنا ، ونصبح لقمةً سائغةً لضرباتــــه ، وهذا الحل معناه سرعة بطيئة ، واحتمـــالات حــوادث . لم أوافــق ،

ووضعت خطتي على أساس الحركة نهاراً ، وبأقصى سرعة على أن تنتهي حركتنا قبل يومين . تحركنا وفوقنا طائرات العدو تضرب أهدافاً أخرى ، ولا تضربنا ، وسط تخوفات من تغيير خطتها ، حتى وصلنا إلى موقعنـــا الجديد بسلام . كنت قد درست أسلوب العدو ، وعرفت أنه يحتاج على الأقل ليومين ، للقيام برد فعل ، فإذا اكتشف أن اللواء يغـــير مكانـــه ، سيحتاج إلى يومين لضربه ، ونكون نحن قد وصلنا إلى موقعنا .

استكملنا معاركنا حتى وقف إطلاق النـــار ، في أغســـطس ١٩٧٠ .

توقف عن القراءة ، وضع كفه مطبقة الأصابع تحت ذقنه :

ـــ أين حدث لى التحرك ، تحت النيران ، فى غير هذا الموقع؟

فى ١٩٥٦ . نعم فى ١٩٥٦ ، حين عدت إلى السيارات التى تعطلت على الطريق ، من القاهرة إلى القناة ، وتمكنت من نجدة زملائى ، ونقلهم بالسيارات السليمة ، وطائرات الدول الثلاث المعتدية تزأر فوقنا ، ولا تضربنا فى طريقها لضرب المطارات .

رأى حادثاً آخر ، طائرات تضرب ، فوق سيارات نصـــف مصفحة، فى إحداها ، ضابط يشـــبهه تماماً، صورة مـــهتزة لطـــائرات تقصف حول السيارة ، وهو يردد الشهادتين ، ويستمر فى الحركة.

حاول أن ينقل الصورة التى أمامه إلى كلمات ، فلم يستطع. تنفس بعمق ، ومسح عينيه بأصابعه ، ثم عاد للقراءة .

أعطانا قرار وقف إطلاق النار فرصـــة أكـــبر للتدريـــب فى السويس ، رغم أن منطقة بئر عديب ، التى جئنا منها ، أتاحت لنا وقتها

مكاناً مثالياً ، أرض واسعة ، فيها كل ما نريد ، فلم نحتج إلى نقل القوات إلى مناطق بعيدة . ومع هذا ، مكننا الهدوء من التوســـع ، وغرقنـــا فى التدريب ليل نهار .

حلم يتكرر ، يتلوى ، يتلون ، يراوغنى ، وفى النهاية يكـــون أنت ، وأنا ، والأفق ..

أرانى فوق رابية ، مستلقياً ، أتابع الفراغ ، تتمدد الصحـــراء حولى ، كوحش خرافى ، تومئ السحب لى أن أنتبه للأفق ، أراك يا نهى هناك ، على حافة التحام السماء ببدن الأرض . أركض ، أشق الصحراء إليك، أناديك ، أقترب فتبتعدين . أقطع السهول اللانهائية ، كلمـــا لاح أفق جديد ، تعتلين سماؤه ، والأفق يلد أفقاً آخر ، ويحملـــك معـــه ، لا أتعب، أركـــض أكثر ، يتملص منى الأفق، ويدبر لى مكائد الضيـــاع ، فلا أيأس، وأستنطق إشارات الصحراء المجبولة على الصمت . أســـتحث رموزها واستحلفها . تسلط قسوتها علىّ ، فأتذكر قانونهـــا الأبـــدى ، وأصرخ فيها أنا ندٌّ لك . سأصل لحبيبتى ، أسير فى الوديـــان المراوغـــة ، وأعتلى السفوح، دون أن أعير الريح التفاتاً ، أتدفق مع كثبان الرمـــل ، دون أن أتحول إلى هباء ، وأصل إلى خلاء جديد ، أراك على حافتـــه ، يراوغنى السراب ، يتغنج ثم يهرب ، حاملاً إياك على جناحيه ، فـــأمضى فى طريقى دون كلل ، وأعرف أنى ملاقيك ، وأصحـــو مـــن نومـــى ، وأكتشف أن حلمى هذا يفاجئنى حين تختفـــين عـــنى ، فى صحـــوى ، وأنشغل بالتدريبات ، ولا أجد القدرة على استدعائك.

كان طه قد شرع فى ترميم الدوار ، بعد أن وصلته موافقة أخوته دون إشارة واحدة لمساهمات مالية. حسب التكاليف ، فقرر أن يكون العمل بهدف الحفاظ على البناء الأساسى ، وتخليصه من أمراض الرطوبة ، والفطريات التى اعتلته، فبدا مثل كُلة [٧] مطرزة . فإذا تبقى بعض المال، امتد العمل إلى التجديدات .

نبشت أرضيات ، ودفنت مواسير الماء ، وأزيلت الطلمبة من وسط الحوش ، وأعادت الفوضى التى عاشت فيها الدار ذكرى الفيضان الذى اضطرهم ــ ذات يوم ــ إلى تعلية أرضيته بطبقات من التراب فوق الرخام الجميل ، فضاع بذلك إلى الأبد . أخفيت أسلاك الكهرباء بمهارة عن العيون فى شرايين الحوائط ، واعتلت بلاطات القيشانى الحمامات ، وطليت الجدران الداخلية للدوار الخارجى بالزيت حتى منتصف المسافة للسقف، مُنهيةً بضربة فرشاة ، جمال الرسوم والنقوش البديعة التى كانت تميزه . ولولا قلة الإمكانيات ، التى منعتهم فى اللحظة الأخيرة من استكمال الدهانات فوق باقى الجدران والسقف ،

---

٧) الكُلة : هى ستارة السرير

لانتهت إلى الأبد ملامح السـقف المطعمة بنقوش الخشـب المذهـب .
تركوا الثريات الخزفية التى كانت تضاء بالكيروسين فى مكانها للزينـة ، بجوار لمبات الكهرباء ، التى تدلت كعنقود صغير مختال .

زرعوا عموداً أسطوانياً من الحديد ، ينتهى إلى دعامة عرضية، وسط الحوش ، ليحمل الشرفة الداخلية التى تطل على وسط الدار ، أمام شقة حيدر ، بعد أن أعلنت عن أنينها ، وانخفضت أرضيتها . بدا العمود كائناً قبيحاً ، جرح منظر الخشب المطعم بالصدف ، والمخـرم برسـوم هندسية تنافس الدانتيل فى رقتها، وأوجد لمتولى الكلاف ، مربطاً جديداً للجاموس ، عند حلابة الفجر ، وحلابة المغرب .

أما فى الطابق الثانى ، الذى سكنه عبد الحكيم يوما ، والذى قرر طه أن يزوج ابنه إسماعيل فيه ، فاختلف الحال ؛ إذ أزيل كل ما يمت للماضى ، ونقل الأثاث إلى أماكن متفرقة ، وطليت جدرانه بالكـامل ، ونزعت ثرياته الفاخرة ، واختفى بعضها فى مخـازن الفـول ، ووجـد الأطفال ذات يوم لمبات من "السيفر" فى حظيرة المواشـى ، واحتلـت مكـانها ثريات ضعيفة من الزجاج الهزيل ، تمثل آخر صيحة فى الديكور، ونُزعت الستائر القطيفة ، انتظاراً لوصول أثاث العروس الجديدة ، التى لم يتم اختيارها بعد .

قالت وديدة : اتركوا كل ما يخصنى على حاله ، واهتمـوا بشقة العريس . لكن فرشاة الجير ــ التى راحت تعبث بشقـاوة فـوق الجدران ــ التهمت صماد الأفران ، وبعثت نـوراً أبيـض مشعـاً، فى الحرملك الذى طال انتظاره للعناية . تجددت دواليب الحائط ، ودخلـت

الشمس للمرة الأولى إلى الغرفة التى تختر فيها وديدة الألبان ، وتخزن فيها المتارد الدافئة ؛ إذ غيروا النافذة التى تطل على الإسطبلات بعد أن اختفت منها الخيل ، وقربوها من حدود الرؤية ، وكانت تنفتح قرب السقف .

أنعش الطلاء المكان ، وتساءلوا فى دهشة : لماذا لم نكن نقوم بهذا الترميم ، ولو كل سنتين ؟

استمرت الفوضى شهوراً ، ودخل العمال وخرجوا ، يصفون ما رأوا فى الداخل ، بعد أن غاب جيل الآباء ، المحرم عليهم الكلام ..

رفعت حرب الاستنزاف معنوياتنا ، أثبتت لنـــا أن إجراءاتنـــا فى إعادة بناء الجيش صحيحة ، وأن استبدال الجنود غير المؤهلـــين بخريجـــى الجامعة عمل على استيعاب الأسلحة فى وقت قياسى ، وكذلـــك كـــل أنواع التدريب ، وتنفيذ الخطط الموضوعة . بروق من الحيوية بعثـــت فى أوصال الجيش القوة ، والتصميم على النصر ، ولاح لنا فى الأفـــق أننـــا نوشك على بلوغ الهدف .

تأكلنى الوحشة إلى المنتهى ، رغم أننى أستطيع أن أبنى حياة فى كل مكان أحط فيه . لا أختلف كثيراً عن البدوى ، الذى أقابلـــه أحيانـــاً ، حاملاً معسكره بالكامل فوق الجمال ، أتأمل بساطته ، وسرعة حركته ، وأراه خفيفاً ، طائراً ، يمر بالأرض ، دون أن يتجذر فيها ، عيناه علـــى البعيد دائماً . أقدر حياته ، لكنى أعشـــق المنتهى ، والفلاحين ، والثبات . أتخيل نفسى عائداً إليها يوماً ، لا أعرف كيف ؟ ربما لأن الضابط لا يبقى كثيراً فى الخدمة ، وربما لأننى لم أرتبط بالمدينة أبداً .

أسعدتنى أخبار التحديدات فى الدوار ، رغم الفوضى التى عانيت منها ، فى آخر زيارة لى للأهل ، لكن يبدو أن الدوار سيصلب عوده مرةً ثانيةً ، وسيعود فتياً عما قريب ، كما كان ، "دُرّة عائلة المصيلحى" ، على حد تعبير عبد الله ، فى خطابه الأخير لى .

أفقنا ذات صباح على وفاة عبد الناصر ..

كنت نائبا لرئيس أركان حرب اللواء ، وكان رئيس الأركان فى المستشفى ، وجدتنى مسئولا عن الحفاظ على استعداد القوات وحفظ النظام ، فى لحظة مجنونة بالمشاعر والتخبط . جاءت ضربة الفقد فأطاحت بأغلى ما يملك كل منا . ورحت أجتر الألم فى مرارة وأصرخ دون صوت، ليس فى هذا الوقت ، بعد أن اكتملت استعداداتنا ، وأصبحنا على وشك الحرب ، ليس فى هذا الوقت .

تقطر الألم بأحزان أعمارنا جميعا ، باغتيالنا الغادر فى ٥٦ ، وهزيمتنا فى ٦٧ ، بشراسة الوحوش التى تتأهب للانقضاض علينا . خبأت حزنى فى زاوية من بدنى ، وتركتها تحرق الداخل. كفنتها لأحافظ على طزاجتها ، والكفن تاريخ مسار وحياة ، وارتديت زى الجندى المسئول ، لأواجه حريق الآخرين . هستيريا وتخبط ، بين الضباط والجنود ، حالات ذهول كامل ، أصابت محسن محمود، فريد عبد المسيح ، وجابر مرعى، فقدوا النطق ، والقدرة على السمع . بكاء وصراخ ، تحول المعسكر إلى شىء أشبه بحلقة ذكر. خيالات متشابكة تنهبد على الأرض . تقوم وتقعد، كأنهم فى رقصة بدائية مجنونة ، موسيقاها الفزع ، والرعب من المستقبل .

تيتم الكبار ، وما أشد إيلام اليتم ، إذا كان الإحساس بالفجيعة للراشدين، أنهم أطفال ، فى حاجة إلى الأب . انقض الخوف علينا فجأة ، كذئب وسط قطيع من الخيول، يحيطها سور لا تستطيع الهرب من قبضته. فتاك بنا فى ثوان ، غاب الفارس ، احتاج كل منا إلى الإمساك بالشراع الذى مزقته الريح ، صدر جسمه ليغطى ألواح الخشب ، حتى تسير السفينة فى العاصفة ، ولا ينكسر الصارى ، أو تضيع الدفة .

أصبت فى هذه اللحظة الدامية بالتيفوئيد ، ارتفعت درجة حرارتى فلم أبال . استمر عملى ليل نهار، فى تدريبات تعيد الجنود إلى الصواب، وتدفعهم إلى مجرى الواقع . تعاقبت الشهور ، دفع الجماعة يمنعنى من التوقف والتأمل . تسربت خيوط خفية إلى نفسى ، شرنقتها باليأس ، دون أن ألحظها . احتوت أعضائى وأرسلت فيها الوهن ، فسقطت فى إعياء شديد ، ونقلت إلى المستشفى . حاصرتنى أعراض ذبحة صدرية ، ووقف قلبى فى عناد، يعلن التكذيب . أظهر الرسم أنه سليم، ليس قلبك إذن أيها المحارب ، هو شئ آخر عليك أن تخرجه ، بدلا من كتمانه فى بئرك يرعى ، ويتسلق ليخنق جذوة الحياة . احتار الأطباء ، وتركونى للراحة . تقلبت على نار الإحباط ، بعضى يأكل بعضى ، هزمنى جسدى الذى تصورته قادرا على الصمود ، تسلحت طوال الحياة بإجادة دورى ، تاركا للقوى الأكبر مجالها ، الذى تدور فى فلكه، فماذا حدث ؟ ولماذا أدفع كل الأثمان ، لى وللآخرين ، دفعة واحدة .

اتصل بي مدير شئون الضباط ، وسألني عن المكان الذي أود الانتقال إليه ، لأنه لا يستطيع ترك مكاني شاغرا . أخبرته أن يختار لي أي مكان في الجبهة . عين آخر مكاني ، دون أن ينقلني إلى أية جهة .

شهور أربعة مرت في المستشفى . أصارع فيها آلاما غير مرئية . آلام تخز الأعضاء . توجعها ، وتتركني غير قادر على الحركة . سرح الهزال في جسدي ، دون سبب ، أصبحت أشبه بلاعب ماراثون ، بذل آخر جهده ، حتى يصل إلى خط النهاية ، ثم وقع مغشيا عليه . سألت نفسي بإلحاح : هل هذا هو آخر شوطي ؟ هل هذا هدفي ومبتغاي ؟

رفع رأسه عن الأوراق ، وعقد كفيه ، ومدد ساعديه إلى الأمام ، فاشتد جذعه صلابة مفسحا لرئتيه استقبال دفعة حذرة من الهواء .

ليست المرة الأولى إذن أيها الجسد المتعب لمحارب عتيق ، ثقل الزمن عليك . ترصدت الروح الجراح، فحماها الجسد ، دخل إلى متاهة الألم يبحث عن نجمة تبدد انتشار الظلام ، وتمنع قضم الذاكرة . فكيف خرجت من هذه المتاهة ؟ وما الذي أباح ذاكرتي بعد ذلك للالتهام ، حتى الفضيحة ؟ وكيف خرجت منها بريئا ، صافيا كمولود بلا جذور ، مفرغا كحقل ذرة مباح للقوارض ؟ تأتيني أمي بأوراق ، ببرهان من نار ، تبيحني للأرق فأصلى فيه ، وأصحو كل صباح على صورة جديدة مغايرة لكائن كلما توغلت في معرفته ، ضاع مني . أسفر عن عريك أيها المحارب المدهون بالصلابة ، المحفوف بالجراح . سنلتقي حتما ، سنلتقي ، وكما فعلت قبلا .

رقعت عيناه على صورة انفجار الشرنقة ، وخروجه إلى المـــدى ، متجددا ، لدورة قادمة .

ضقت بجسدى ، ومللت الرقاد ، وكرهت البوتقة التى وجدتـــنى فيها بلا مناسبة ، فقررت أن أطيح بكل الآلام ، وأن أتحرك ، وأقـــاوم . زارتنى القوة ذات صباح . أزاحت الأوجاع بحنو، تسربت إلى مســـامى فملأتها ، خرجت من المستشفى مصمما على العودة إلى الجبهة .

تدافعت آلاف الأفكار إلى رأسى ، غزلــــت خيوطــا كثــيرة ، نسجتها، واستحال النسيج جدارا ، اتكأت عليه ، فوهـــب جســـمى عمرا جديدا !!

اعتدل فى كرسيه وقال بحماس :

سأصالح بعضى ، وأعبر إلى شاطئ أو غابة ، مســـتنقع أو واحـــة خضراء . سأعبر إلى الحياة .

اتصل بى نائب مدير شئون الضباط ، وعرض أن أعين قائدا لجناح تكتيك المشاة بالكلية الحربية . جاء ردى سريعا وحاسما بالرفض . شهور وأنا أخطط للعودة إلى الميدان ، كيف أقبل البعد عنه . حددت موعـــدا للقائه فى اليوم التالى ، ثم أفقت فى مكتبه على سؤال من أحد الزملاء :

ـــ أليس لك أهل ؟

وضعنى أمام مواجهة لا أريدها . وقبل أن أجيب ، قـــال زميـــل آخر:

ـــ هذه فرصة للبقاء فى القاهرة فترةً ترعى فيها بيتك وعائلتك .

قلت : الجبهة فى حاجة إلى جهد كل منا . أعطتنى الإجازة فرصة جادة للتفكير بهدوء .

قال صديق : جرب أن تعرفهم . ضاعت حقوقهم وسط عملك المتصل .

تلاشت كلماتى وسط تجمعهم ، وطال النقاش عن صحتى، دون أن أقبل الرضوخ لاختيارهم . قام نائب المدير نحوى قائلاً بحسم :

ـــ جرب ، وحين تشعر أنك تريد الانتقال ، تعال ، وسأنقلك فورا .

هزمت أمام إصرارهم . عدت مدرسا مرة أخرى ، كأن التدريس قدر لم أسع إليه . يتربصنى منذ تخرجت ، وحلمت بالميدان .

وضعت فى هذه الفترة من حياتى هدفا وحيدا ، نصب عينى، أن أطلق عنان تفكير الدارسين فى الجناح حتى لا يتقيدوا بقوالب جامدة . علمتنى سنوات الجبهة كيف أفجر طاقات من حولى ، ثم نقلت إلى هيئة العمليات فى القيادة ، وعملت فى مركز العمليات الرئيسى ، واشتركت فى مشروع استراتيجى كبير ، كان موضع تقدير من الجميع ، ثم جاءت المكالمة التليفونية التى كنت أنتظرها :

ـــ هل تقبل العمل كقائد لواء فى الجبهة ؟

ـــ مستعد فورا .

نقلت إلى بور سعيد فى يناير ١٩٧٢ ، وقررت أن أزور المنتـــهى لأطمئن على عائلتى . دخلت القرية مبكـــرا كعادتى ، فاجأنى خلوها من أهلها ، كان الجميع فى بيت أبى صالح كما حكـــوا لى بعـــد ذلـــك ..

لاحظ أبو صالح ، وهو عائد من الجامع ، بعد صلاة الفجر، طقطقة السواد تحت وخزات الضوء ، خطوط رفيعة من النور تهرب إلى السماء ، انتبه فى الأيام الأخيرة إلى المحيط الغامض حوله فى الليل بعد أن اقتحمت حياته أحداث غريبة ، عرف منها أن الدنيا ليست هى ما نراه ، وما نفكر فيه فحسب ، ولكنها عالم أوسع من خيالنا . قال بصوت خافت مراعياً السكون حوله:

ـــ يا رب العباد ، لك حكمة . أشد السواد فى لحظة بزوغ الفجر، الليل يقاوم ، رغم أنه مهزوم مهزوم .

انشغل عن الطريق بزحمة أفكاره ، حتى دخل الدار ، تنحنح وهو يفتح باب الزريبة ليأخذ الحمار الجديد الذى لم تسترح امرأته لخلقته الجهمة ، ونفرته التى يعلو صوتها فوق حشرجة ماكينة الطحين .

قال بصوت عال سمعه كل من فى الدار ، إلا خديجة ، التى لم يلحظ غيابها :

ـــ استعنا على الشقا بالله .. قوم قز ، النهار طلع .

امتص الصمت كلماته ، هدوء مريب ، لم تشهده الزريبة منذ دخلها ذلك المخلوق . استراب ، وعيناه اللتان تحاولان اعتياد الظلمة اصطدمتا فجأةً بالمكان الخالى . فركهما ، وبحث عنه ، فرأى الجاموسة، راقدةً فى سلام ، وبجوارها العجل الصغير جاثياً ، وأكوام التبن فى الركن البعيد ، وسمع صوتاً وحيداً لهديل حمامة. قفز مدركاً ما حدث ، فانزلقت بطة هاربةً من قدمه فى آخر لحظة.

ـ يا نهار اغبر ، الحمار .. الحمار هرب .. الحمار ياخديجة.

اكتشف غياب زوجته ، بعد وصول أبنائه الثلاثة فزعين من نومهم.

ـ عملها وفط ، لكن كيف ؟ وأنا رابطه بيدى فى المساء.

سكت للحظة ، مرت بذهنه ومضة أشعلت ناراً فى جسمه، فراح يزعق ، ويضرب رأسه بيديه ، ويرتفع وينهبد ، والأطفال مذهولون لا يفهمون شيئاً ، ويحاولون تهدئته دون جدوى .

ـ عملتها بنت "الرفضى" .. عملتها .. ضحك عليها .. ضحك عليها !!

بكى طفله الصغير ، وأمسك بجلباب أخته ، فحملته فوق كتفها ، واستدارت تستقبل الوافدين . امتلأ باب الدار المفتوح عن آخره بالجيران، لم يمنعهم برد الفجر ، ولا نداوته ، من الوصول إلى أبى صالح ، رغم أن القرية لم تكن قد أكملت صحوها بعد . ردت النساء على استغاثته

بأصوات جلجلت مثل جرس كبير فى سماء المنتهى ، قبل أن يعرفن مـــاذا يحدث . صرخات وخزت الأطفال الذين كانوا ما زالوا مدثرين بالأحرمة الصوفية ، فوق قباب الأفران . ركض الرجال ، وجاء العيال متـــأخرين على غير عاداتهم فى الوصول إلى مركز الأحـــداث . تجمعـــوا فى الـــدار الصغيرة، وخارجها ، وســـألوا عن المصيبة ، فلمـــا عرفـــوا ، بهتـــوا ، وطالبوه بالحكى فى هدوء لا يناسب السعير الذى يحرقه . قـــال الرجـــل المكلوم فى حماره :

ـــ أردت اللحاق بقطار الفجر . بكرت قليلا حـــتى أصلـــى فى المحطة. كان الليل سادلا ستره على البلد، والمسافة بعيدة، وأنا أســـرع، حتى لا يفوتنى الوقت . رأيت حمارا عن بعد ، ســـألت نفســـى: مـــن الذى نوى السفر ؟ أسرعت ، وغبشة الفجر تراوحنى، وتجعله يختفى عنى، رغم أن المسافة كانت تقصر بيننا . هجمت على الدنيا بشبورة مراوغة . موجات ثقيلة تغطى ناحية ، وتكشف ناحية ، قلت "اللـــهم اســـترنا" . خفت من الوقوع فى حفرة أو زلق ، فجأة رأيته أمامى ، وحيـــدا بـــلا راكب، شئ إلهى جعلنى أتحسس المسلة فى "سيالتى"، سألت : حمار مـــن هذا ؟ تفحصته ، فلم أر علامة واحدة فى جسمه تدلنى على صاحبـــه . أعجبتنى قوته ، كان أقرب للبغال ، وهو ليس بغلا ، "جتته ملبســـة" ، والنفرة خارجة من أنفه مثل نفثة عربة العمدة ، سالكة وســـط الضباب. قلت إنه رزق أرسله الله ، وقررت أركبه ، وأقطع الطريق ، واســـتعنت على السميع العليم ، وقفزت فوقه . وقبل أن تلمس مقعدتى ظهره الخالى

من البردعة ، وأتمكن منه ، سمعت خنفرة ، ورأيت حافره يحك فى الأرض بعصبية وزرجنة .. قلت "شي يا .." لم أكمل الكلمة ، ووجدتنى أنقلب على ظهرى، فتشبثت فى آخر لحظة برقبته ، وهو طالع إلى السماء .

ردد الفلاحون مبهوتين : السماء !!

أضاف : انخلع قلبى ، فأمسكت به بكلتا يدى ، وثبت قدمى تحت بطنه ، ورحت أصرخ : أعوذ بالله ، أعوذ بالله ، وأدركت أننى وقعت فى فخ ، وصرخت فيه بقوة حتى لا يدرك خوفى وأنا أرتعش :

ـــ عملتها يا شيطان ؟

. سمعته يقهقه قهقهة تهد الجبل . كأنها فرقعة رعد جمال الشتاء ، وهى تركض وراء جمال الصيف .

قالوا فى نفس واحد : يا نهار أغبر ؟ .. شيطان !!

تصاعدت همهمة : اتركوا الرجل يكمل .

قال أبو صالح ، وهو مسلوب الإرادة :

ـــ وجدت السماء تنفتح أمامى ، رأيت الشفق البرتقالى عن بعد ، والدنيا فى لون الرصاص . عقلى مسحون بالخوف ، وقلبى انحشر فى بطنى، ولم أعد أعرف يدى من المركوب فى قدمى، وهو يتلوى ، ويضحك حتى أقع ، لكنى قرصت على رقبته، وقلت أشوف آخرتها ، وأنا ضامن المسلة فى جيبى . المنظر من فوق طير عقلى ، وسحرنى ، نسيت الخوف ، ونسيت أنى راكب شيطانا ، وكأنى راكب فرس النبى .

كانت البلدة مثل نقش بيت واحـــد له مائة باب .. فرحت لما رأيـــت النهر يتلوى مثل خط جميل لآخر الدنيا ، والأرض الزرع فيها ، منظـــم يسبح ربه ، كأن كل عود برسيم عارف مكانه ، والشجر تماما مثل نجف قصور الباشوات . عبرت البلد فى لمحة ، أمرته أن يهدئ سرعته ، حـــتى أشاهد بيتنا من فوق ، استسلمت للعبة ، فزعق ، ورجعنى للدنيا .

ـــ أنت تأمرنى ، فاكر إنك ملكتنى ؟ طيب تعال .

زادت سرعته إلى أعلى ، وتراجعت البيوت ، وشفتها فى حجـــم النملة ، حتى وصلنا إلى السحاب .

تقلقل أهل المنتهى ، الذين اكتمل عددهم عدا المســـافر ، حـــتى المريض جاء مستندا إلى أكتاف أهله ، وسمع أبو صالح الكلمة تتردد مثل صدى الصوت :

ـــ سحاب .. تقول سحاب .. ؟ يا نهار !

قال بصوت واهن حزين :

ـــ لا تقاطعونى .. حاسس إنى انتهيت ، وموتى محقق اليوم، نعم ســـحاب ، تماما مثل القطن ، كأنى وقعت فى محلج ، نتف جميلة بيضاء ، كأنه ما شاف ترابا أبدا ، ولا شمسا غيرت نصاعته .. لكنه بارد ، بـــارد لدرجة أنى عرفت أنى متجمد بالصقيع متجمـــد . وقـــررت أن أنهـــى المســـألة كلها ، وتذكرت فى ثوان كل الحكايات التى حكاها أجدادنـــا عن الشياطين والجن ، وترحمت على أبى الذى علمنى أن أحمل مســـلة أو

سكينا فى جيبى إذا خرجت ليلا ، مدى الحياة . لكن الشيطان وسوس لى، "من قال لك أن المسلة ستنفع ؟ قد تكون أحلام الأجداد صورت لهم أشياء خيالية، ولربما نسبوا البطولة لغير أهلها حتى يعيشوا فى اطمئنان !!"

بلع ريقه ، ونظر فى عيونهم ، واحدا بعد واحد ، وقال :

ـــ بينى وبينكم ، سمعت صوت طرقعة عظامى من الخوف، وأسنانى خبطت بعضها ، وأدركت أن الشيطان سامعها، ورحت أخرج المسلة من جيبى بالراحة وأنا أرقب عينيه الناريتين ، وهى تضوى باللون الأحمر ، وسط البياض ، وغرزتها فى كتفه فى غفلة منه . صرخ :
ـــ اخلعها ، اخلعها وإلا أرميك من السماء ، فتموت فى الحال .

لكنى كنت أحس اهتزاز جسمه ، وهو يتلوى ، وانتفاضته من الألم ، فأمسكته أكثر وأكثر ، حتى انصاع لى ، وكأنى ملكته، وروضته ، وتحولت عفرتته بقوة قادر إلى رفرفة ، وأمرته بالنزول فنزل بسلام ، كأنه حمامة خفيفة ، سبحان مغير الأحوال . وكلما اقتربنا من الأرض ، رأيت القرى القريبة ، والعزب المجاورة . وزنى عقلى أن أبقى طائرا ، ولو لدقائق، وأتفرج على ما لم يره إنسان حتى من طائرة ، لكنى قلت لنفسى انفد بجلدك يا ولد حتى تصل بالسلامة ، وتروض الشيطان ، وبعدها يفرجها الذى لا يغفل ولا ينام ، ومن يعلم أنه رزق بعثه رب العالمين .

تنهد ببطء ، وهو ينظر فى عيونهم واحدا واحدا ، دون أن يراهم ، مستدعيا تتابع الصور الذى راح يمر فى ذهنه بسرعة ، ويخلع قلبه

وأحشاءه، وينشر نشوة ما فى أعضاء جسمه . استطرد:

ـــ ووصلنا . لم أصدق أننى أمشى فوق الأرض ، شكـــرت رب العالمين على النجاة ، وتأملت ما حولى غير مصـــدق . مرت الحكايــــة كلها فى ثوان ، كأنها ما حصلت ، ولا كانت . سحبت الحمار من أذنه، وأدخلته إلى الزريبة ، وأخفيت السر عن أم العيال أحسن ما تفضحنــــا ، وأخبرتها أن القطار تعطل ، والسفر تأجل ، وأنى اشتريت الحمـــار مـــن السوق ، وخلعت هدمتى ، وأخذته إلى الغيط .

سكت ، وأطرق مركزا بصره على يديه المعقودتين فى حجره .

نظر إلى أهله وجيرانه ، لاحظ أنهم كلهم يشبهون بعضا ، وجوه شـــاحبة ، مشدوهة ، تتلقف كلماته بنهم ، وقد أدركوا ، بحدسهم ، ما حدث ، خرجوا لنجدته ، بخرق النوم العتيقة المرقعة بقماش ملون ، وآثار النوم تطبع علاماتها فى بشرتهم . عرف قدر محبتهم له ، وقدر محبته لهم .

ـــ أعطونى شربة ماء .

ناولته أم السعد كوزا من الزير ، وانتظروه حتى ارتوى ، دون أن يجرؤ واحد على سؤاله عن شئ ، رغم أن نظراتهـــم صرخـــت بـــآلاف الأسئلة .

ـــ اشتغل معى بمائة حمار ، من فرحتى ركضت وراءه دون تعب ، كلما أكملنا تســـبيخ خط ، سبخنا غيره ، ورجعنا آخر النهار ، وأنـــا أجر قدمى ، كأنى ســـافرت الصعيد ماشيا . قلت أكرمه ، لكـــن هـــل

يأكل الشيطان ؟ لم أعرف . هداني عقلي ، "إذا هو في هيئة حمار أضع له تبنا" ، وضعت التبن أمامه ، وحاولت أعلفه ، لكنه لا أكل ولا شرب . ونمت وأنا صاح من القلق ، كل ساعة أقوم أفتح باب الزريبة، وأطمئن أنه موجود حتى غلبني النعاس ، وطلع النهار . أخذته مرة ثانية إلى الغيط ، وسبخنا قراريط كانت تحتاج من النفر أياما ، وكان في بالي بعد انتهاء الشغل في أرضي أن أساعد المحتاج ، لكن إرادة ربنا ، قلت لخديجة..

تلفت الناس حولهم ، فتذكر المصيبة على الفور ، ولطم خديه ، ثم سأل دون أن يتلقى إجابة :

ــ أين خديجة ؟ ليتني أخبرتها .

ربت عم خليل فوق كتفه قائلا :

ــ نصيبك وانتهى ، كيف هرب ؟

ــ لا أعرف ، رجعت من صلاة الفجر ، كانت الزريبة خالية ، لا حس ولا خبر !

سمعوا نهنهة آتية من بين الحطب فوق سطح الدار ، انتبهوا لها بغتة، ورفعوا رؤوسهم نحوها . ركض بسيوني صاعدا الدرج ، وجد خديجة مكومة تبكي ، علا صوتها أكثر حين رأته ، وراحت تندب حظها ، ورفضت النزول معه ، صاح :

ــ خديجة هنا ، تعالى يا أم السعد ساعديني .

مشت بينهما مطأطئة الرأس ، أفسحوا لها مكانا فوق المصطبة فى حوش الدار ، ردت على أسئلتهم ودموعها منهمرة :

ـــ لم أعرف ، كرهته أول عينى ما وقعت عليه . كان فيه شر ، لم يكن إحساسى وحدى ، لكن والله حتى الجاموسة والحمـــــام والعجـــل الصغير، كان يتقلقل من الخوف كلما دخل الزريبة ، وكـــانت الفـــراخ منكمشة فوق بعضها ، كل مخلوق كان يمسه شئ فيجفل .

أجهشت ببكاء طويل ، وهى تمسك بطرف طرحتـــها ، وتخفـــى وجهها وتسمع مصمصة شفاه النسوان وســـط الســـكون ، ولم تسكت إلا بعد أن أقسمت جارتها أن تشرب من يدها عصير الليمون .

راحوا يعيدون كلمات زوجها ويتناقلونها ، كأنه ما حكاها منـــذ قليل ، غير مصدقين ، وردد بعضهم :

ـــ حق والله حق ، حتى الشيطان رزق يا أولاد ، أين ذهب ؟ هل يعود مرة أخرى ؟ هل نوى لنا على الشر ؟ خاف ؟ هرب ؟ خطـــف ؟ نبلغ الحكومة !! المركز فاضى يحقق فى الشياطين يا أهبل ؟ تفتكروا كـــم فدانا يقدر شيطان يسبخها أو يحرثها أو يبذرها فى يوم واحد ؟ مائـــة ؟ ثلاثون ؟ ألف فدان ؟ ما هو شيطان!!

أنهت خديجة الكوب ، قالت لها أم السعد :

ـــ حد يطلع السطح فى الفجر ؟ كنـــت وقعـــت لا سمـــح الله، استهدى بالله ، طلع لك فى صورة بنى آدم ؟

أطرقت ، وطرفت بعينها نحو زوجها ، وقالت :

ـــ دخلت الزريبة ، وبالى خال ، قلت أسرجه لأبي صالح، علفته ، لا أكل ولا شـــرب ، وحملت البردعة وثبتها فوق ظهره ، وأنا أعدلهـــا عنـــد كتفه شكنى شئ (شلب) الدم من كفى ، صرخت ، ورأيت مسلة مغروزة ، وسمعت نفرته محشرجة ، قلت "يا ساتر يا رب ، لـــك حـــق تتوجع ، أنا ظلمتك ، وأنت يا حبة عيني تعبـــان !" اســتعنت بـــالله ، وخلعتها .. خلعتها ..

تطوحت يمينا وشمالا :

ـــ خلعتها ، يا ليتنى ما اقتربت منه ، ولا شفته فى نهارى.

ضربت بيديها فوق فخذيها :

ـــ ليت اللى جرى ما كان . نار ، نار خرجـــت مـــن عينيـــه ، وزوابع لا أول لها ولا آخر ، اغبرت الدنيا كأنه يـــوم عصـــف ، ولا مذراة الغلة ، طار التبن فى الســـماء ، وركب الحمار مائـــة عفريـــت ، تحول بقدرة قادر لألف حصان طار فى الهواء ، وقلبنى على بطنى كـــأنى خرقة ، لا حول ولا قوة ، سامحنى يا رب .

انفلت أبو صالح من بين الرجال ، وأمسك بخناقـــها ، يريـــد أن يقتلها . خلصها الرجال بصعوبة ، وهم يتعجبون من القوة الغريبة الـــتى هبطت عليه وهو يضربها .

أخذوه إلى الجامع ليتوضأ ، ويصلى ركعتين لله ، وصوتها الواهـــن

يتردد فى عقله ، لا يسامح :

ــ منك لله ، تدخل الدار شيطان ؟!

تناقلت المنتهى الحكاية . تمنى بعضهم أن يمسك بالشيطان مرة أخرى ، راحوا يحلمون بقوة خارقة يروضونها فتساعدهم على إنجاز أعمالهم الشاقة ، والسفر فوق ظهره لرؤية نتف القطن المتوهجة فى السماء. وسرحوا يحلمون بالمدن البعيدة ، الجبال ، والصحارى . وسأل بعضهم إن كان ما حدث حقيقة أم أنها أحلام أبو صالح بعد أن سافر ابنه صالح ، وغاب سنوات فى الجبهة دون أمل فى عودة الأوضاع لمسارها الطبيعى ، وعودة الابن الشاب ، والساعد القوى لغيطه ، فحلم بتسخير أى كائن ، حتى لو كان شيطانا !!

أسرعت وديدة إلى التليفون ترد على كوثر التى تحدثها من السعودية :

ـــ لم ترسلى إجابة على خطابى .

ـــ أرسلت ، وأنت عارفة .

ـــ ألم يغير محمود رأيه ، ويبيع لمحمد سليم أرضه التى أمام الجسر ؟

حاولت وديدة أن تنقذ صبرها من الانهيار ، قالت :

ـــ مرة ثانية يا كوثر ؟ قلت لك ألف مرة لن يحدث . لن تباع أرض محمود لمحمد سليم . ألم يكفكم ما اشتريتم ؟ الدنيا واسعة ، فلماذا أرض محمود ؟ ماذا بك يا كوثر ؟ إنها أرض أبيك، وهذا أخوك .

ـــ غرضنا الخير يا نينا ، محمود لا ينتفع بالأرض ، ومحمد يحتاجها ليبنى لنا بيتا فوقها .

قالت وديدة بحسم وعصبية ، فاندلق الفول الذى كانت تلقطه للحمام من يدها وهاجت حولها الطيور :

ــ تبنون بيتا فوق كل هذه الأرض ؟ هى كلمة ، ولن أكررها ، لن يحدث هذا طالما أنا على قيد الحياة يا كوثر .

ــ أرض الغنايمة موجودة ، ومعروضة لنا بسعر معقول ، سنشتريها ، ونبنى البيت .

ــ تغيرت كثيرا يا كوثر .. أصابتك الكتمة بالعتمة ، والغربة بالجحود . أين كوثر الدلوعة ، المرحة ، المحبة للحياة ؟

ــ ماتت يوم خرجت ، فى أنصاف الليالى من البلد ، لمكان لا تعلمه ، ولا يعلمه إلا الله ، خائفة ، وغريبة ، ومطرودة ، من غير سبب !

استرجعت وديدة فى ذهنها كل المناقشات التى فجرها سفر كوثر، هاربة إلى السعودية ــ مع زوجها محمد سليم ــ من احتمالات القبض عليه مع الأخوان فى نهاية ١٩٥٤ . برقت المناقشات فى ذهنها للحظة ، قالت :

ــ بسبب أو من غير سبب ، لن نفتح مواضيع انتهت ، وربنا فتحها عليكم ، وكانت سبب الرزق والخير كله ، ورب ضارة نافعة .

صرخت كوثر :

ــ أرجوك يا نينا ، لا تقبلى هذا الاستسلام ، ولا تطالبينى بالتسامح معه . راح شبابنا يا نينا فى الغربة. كل دقيقة دفعنا ثمنها غاليا .

ــ ارض بنصيبك يا كوثر ، وابدئى حياة جديدة .

ــ فعلا ، سنبدأ حياة جديدة ، لكن لا يلدغ مؤمن من جحر

مرتين !

قالت وديدة ، وآلام هائلة تعتصر فؤادها بنذير شؤم :

ـــ يا خوفى يا كوثر أن تكون السكة غلط .

قالت كوثر ، وقد تغيرت نبرات صوتها إلى هدوء مراوغ ، شعرت به وديدة على الفور ، فلم تلحظ الحمام الحائر الواقف أمام كفها مثل طائرة مشرعة ، يهز أجنحته منتظرا خروج حبوب أخرى من جيبها ، كما تفعل دائما :

ـــ ما رأيك فى أرض عمى عبد الحكيم الله يرحمه ، ابنته عديلة لن تعود ، أعطونا نصيبها فى الأرض، ونضع ثمنها فى حساب باسمها فى البنك؟

قالت وديدة ، التى وصل استفزازها إلى مداه آمرة :

ـــ المناقشة انتهت يا كوثر . سلمى على أولادك ، وأنا لى تصرف آخر مع محمد سليم . مع السلامة .

أشاحت بيدها تدرأ فكرة مرت بخاطرها ، فطار الحمام فزعا . راحت تسأل نفسها :

ـــ ماذا يحدث حولى ؟ ما الذى يرتب له محمد سليم وكوثر ؟ وكأننا لسنا عائلة واحدة . هل المسألة خطف ؟ كأنهم "مسروعين" ، كل تفكيرهم أن يحطوا أياديهم على كل ما فى البلد، حتى لو فتتوا العائلة ،

وبأى ثمن . يا رب من ينجدنى ويفهمنى قبل ما عقلى يطير .

تحسست جيوبها بلا وعى ، فعاد الحمام يحوم حولها ، ثم وقف فى انتظار الفول .

ـــ متى تخرج يا محمود يا ابنى من أزمتك ؟ وكل شـــىء يرجـــع لحجمه الطبيعى ، وكل واحـــد يعـــرف مقامـــه ، وتدخـــل الفـــئران جحورها؟ يا رب ساعدنى حتى لا أخبره ، كلها ساعة على ميعاد الغداء، وحتما سيكتشـــف غضبى ، ولا أريد الوقيعة بينه وبين كوثر أخته ومحمد سليم بن خاله ، لكن ما باليد حيلة ، لابد من تحذيره .

حصلت على إجازة من الجبهة لمدة خمسة أيام متصلة ، وهو شئ نادر الحدوث . وعدت صافى أن ألهى لها احتياجات كثيرة موجلة . عدت من النادى فى الصباح المبكر ، بعد أن أديت تدريب اللياقة ، لكى أصحبها للخروج . داهمنى شعور ما بالكتمة حين فتحت باب الشقة، تستطيع صافى إرسال ذبذبات التوتر إلى الهواء فى ثوان . اعتدت الانزلاق وسط التوتر دون أن يمسنى ، لكنى فى هذه اللحظة توجست ، لم أعد أستطيع فى الفترة الأخيرة التعرف على أسباب انفجارها . هل هى مجرد تفاصيل صغيرة ، أم موضوع حقيقى . كان على الانتظار حتى أعرف . خطوات ثلاث قطعتها إلى وسط الصالة ، وسمعت الرد على تحيتى .

ــ مطلوب فى قيادة قطاع بور سعيد غدا صباحا .

ــ طيب يا ستى ، حاضر ، أسافر .

ــ معقول ؟! هل هذا معقول يا محمود بهذه البساطة ، وهذا الهدوء ؟

ـــ أنا عسكرى يا صافى ، وهذا استدعاء فى زمن حرب .

ـــ خمس سنوات ؟! الحرب لا تطول خمس سنوات . أين الحرب يا محمود ؟ أراك متحمسا ، متعبا ، مسافرا إلى الجبهة ، تعمل ولا تنام ، فأعرف أن الحرب بعد ساعة . تغيب شهورا ، وتغيب سنوات ، وكل شئ حولى جامد ، الناس طهقت ، كل أموالهم تذهب إلى المجهود الحربى، وتصرف على الجيش ، ونعيش على الإعانات من الدول ، ولا نرى نتيجة. أولادنا لا يعودون ، كأنهم مؤجرون لسخرة فى الصحراء ، عائلات بكاملها لا تجد مأوى فى قوائم انتظار المهجرين ، وأنتم ماذا تفعلون ؟ بالله عليك لا تقل لى أنك تحارب .

انفجرت فى بكاء ، فاحتويتها صامتا ، وأنا أعرف أنها بداية لنوبة اكتئاب طويلة ، والآلام ستصاحبنى فى البيت ، وسأحملها معى إلى الصحراء .

وصلت قيادة القطاع ، عرفت أن الاجتماع مخصص لبحث استعداد القوات المسلحة للقيام بعملية هجومية . انخرطنا جميعا فى التخطيط للعمليات بحماس .

سألونى : هل يستطيع اللواء بحالته هذه الاشتراك فى الهجوم؟

قلت : نعم ، لابد أن نشارك .

وقفت أمام الخريطة ، واخترت نقطة للعدو عند الكيلو **١٩** من قناة السويس . طلب من الجميع وضع قرارات سرية لتنفيذ الهجوم ،

وتسليمها بخط اليد فى نفس اليوم . نفذت الأمر ، وعدت إلى القـــاهرة مرتاحا لخطتى ، لكنى لم أستطع أن أفك الاشتباك الذى بدأ مع صـــافى ، رغم أن معنوياتى كانت مرتفعة لأقصى حد . أخيرا سنحارب ، تحملتها، وصبرت عليها ، وتجنبت كل ما يمكن أن يثير أعصابها ، لكنها كـــانت قـــد انزوت إلى الداخل ، ولم تفلح كل خططى لإخراجها واستعادتها .

لم تكن هذه المهمة مجرد استعداد للهجوم على نقطة للعدو، كانت تتويجا لرحلة شاقة من العمل فى إعداد هذا اللواء الذى شكل مـــن قبـــل لحراســـة الأهداف المدنية الهامة ، عندما ضربـــت إســـرائيل محـــولات الكهرباء والجسور ، مع ضم العناصر المستغنى عنها من اللواءات الأخرى، وأطلق الجيش عليه ســـاخرا "لواء الجلاليب" . واجهتنى بعـــد تعيينـــى قائدا له مشكلة تحويله إلى لواء عادى ، فبدأت بتغيير الأفراد ، وطلبـــت عددا كبيرا من الضباط والجنود الأكفاء ، ولكن ظلت سمعة اللواء كمـــا هى . ولهذا لم أكن مستغربا حين ســـئلت إن كـــان اللـــواء يســـتطيع الاشـــتراك فى الهجوم ، فلم يكن متوقعا له أية قدرات فى وقت بســـيط. ألغيت كل المظاهر، ووضعت خطة لإعادة البناء فيما ينفع لواء ســـيدخل الحرب ، وأعتقد أننى نجحت . اعتبرت تنفيذ مهمة الهجوم محكا حقيقيـــا لمجهوداتنا . لم أترك شيئا للصدفة ، وكما هى عادتى فى تاريخى العسكرى كله . أردت أن تكون الحلول غير تقليدية ، ونابعة من الواقع الفعلـــى . صحيح أننى كتبت الخطة بخط يدى ، وســـلمتها للقيـــادة ، لكـــنى لم أدربهم عليها مباشرة ، بل اجتمعت بالقادة ، وسألتهم :

ـــ ماذا يفعل العدو إذا هجم المصريون عليه ؟

انهالت الاقتراحات . أمسكنا بها ، ورحنا نتدرب عليها جميعـــا ، نختار أفضلها ، ثم أعدت السؤال فى اجتماع آخر :

ـــ كيف نهجم نحن على العدو ؟

وتركتهم يضعون الخطط ويصححونها ، حتى توصلوا بأنفســـهم لخطتى السابقة . لكن بقيت بعض المشاكل التى اختلفنا فيـــها ، وتغلبنـــا عليها فى مشروعات كتائب اللواء .

قدت سيارتى كل يوم إلى موقع النقطة فى **الكيلو ١٩** ، وتأملتها عن قرب : كومة من التراب على حافة القناة . مواجهة تصل إلى مائـــة وخمسين مترا . فوقها نطاقان من الأسلاك الشائكة . أقف أمامها ساعات أسألها : آكلك من أين يا بطة ؟ أتسرب إليها مـــع رمـــال الصحـــراء ، اتحسس موقع السلاح ، ونوعه . هل توجد فيها دبابات ، كما تقـــول تقارير المخابرات العسكرية ؟ أحاول تحديد أماكن الألغام ، أين تبـــدأ ، وأين تنتهى ؟ أين المداخل والمخارج ؟ وأكتـــب ملاحظـــاتى ســـاعة بساعة، لأكتشف عدد الأفراد .

تعاقبت الأيام ، وأنا فى طريقى إليها ، عشقت تدميرها ، راودتنى تلك المراودة التى تنشأ بين المنتقم وهدفه ، نما بينى وبينها حوار ســـرى ، غلفتنى ذبذباته كما غلفتها ، فكشـــفت دون أن تدرى عن أســـرارها . تمتد الأسلاك الشائكة حوالى مائة متر . وتظهر فتحة ضرب النار أعلـــى الرمل ، فوق غرف من الخرســـانة والحديد للنوم والراحة . بجوارها موقع

للدبابات يتيح للدبابة الدخول إليه والضرب منه ، بالإضافة إلى باقى المرافق . تتسع النقطة لثلاثين فردا ، وفيها مكان للمطبخ ، ودورات مياه، ومخازن للذخيرة ، والطعام والوقود . وهى متصلة بكابل تليفون ، وأجهزة لاسلكية ، وملجأ لقائد الموقع . أدركت بمرور الوقت أنه لا توجد دبابات رغم وجود موقع لها ، لأن الدبابة تحتاج إلى تسخين ، وإذا سخنت يصدر عنها صوت . ودخان ، وهذا لم يحدث لمدة طويلة .

تأملت المكان وأنا مرتاح . نزعت الشمس اللاهبة الحياة من الكائنات التى تجاسرت ونازلتها قبل أن تنطفئ وتغيب ، هربت الزواحف من جحورها احتفالا بالظلام والصمت والحرية . رقصوا رقصة الصحو بعد أن تخلصوا من سجن الشمس ، وسطوتها . كشفت الصحراء فى ليلها عن سحر آخر ، هبت نسمة محملة برذاذ البحر ، ولمعت النجوم بقوة لا يعرفها غير أهل الصحارى ، وبردت الدنيا . كتبت آخر ملاحظاتى ، ورحت أرسم النقطة فى صورتها الأخيرة كما تخيلتها : الآن ، امتلكتك، وأستطيع أن أدمرك فى لحظة ستأتى ، وأنا الآن عطش ومشتاق. فهل يطيق المشتاق انتظارا ؟!

استدعيت نهى ، وكثيرا ما استدعيتها حين أقف على عتبات الأشياء ، فى كل مفرق من مفارق حياتى : شعنونة ، مفعمة بالحياة ، ومحبة لها ، تريدها كلها حتى الثمالة لا بعضها . لا أعرف إن كنت أحببتك لأنك مثل هذه الصحراء الحادة فى تقلبها.. رغم أننى لم أكن قد رأيت الصحراء حين أدركت مشاعرى نحوك وأنت ترافقين رحلة

طفولتى وصباى ، كنت أراك مثل الخضرة والسماء وطزاجة الزرع والثمر فوق الشجر . ترى هل احتفظت بوضوحك ؟ بصخبك وصمتــــك ؟ أم عجنتك المدينة بمائها ، فتقلبت بين الأبيض والأسود ، وتشبهت ببـــــاقى البشر ؟! لا أشعر بمرور الزمن حين أقابلك صدفة وسط العائلة ، ولا أرى التغيير الناتج عـــن اختلاف الظروف والتراكم ، بل أراك كمــا كنــت دائما بالنسبة لى : أمل لا يمكن الوصول إليه. هدف كان ملء يـــدى ، تركته يتسرب ، وعشت الحياة كلها أسعى إليه ، رغم أننى لا أعـــترف كثيرا بذلك .

انفلت الزمن دون أن أشعر به . انشق ليل الصحراء عن أفق بدا فى غبشة الفجر كأنه جدار مرسوم فوق خط النهاية ، يبشر ببداية أخـــرى جديدة لعالم آخر مغر . رحت أناجى الســكون الســيناوى الجليــل ، وأشعة الشمس تتلامس مع بدن الأرض بحذر ، وأنا أقف على عتباتهـــا تفصلنى القناة عنها .. ما زلت يا سيناء قادرة على إدهاشى ، رغم أنـــى كثيرا ما تصــورت أننى أعرفك جيدا . أنت أنت أكثر المخلوقات غواية، لولا الورقة والقلم أمامى يحددان مــلامحك ما قـــاومت نــداءك ، ولا قهرت إغواءك . ستـــلدين فى كل لحظة أفقا جديدا يـــأمرنى بإتباعـــه ، وأنت تخفين خلف وضوحك الخادع ســكين اليأس الذى يغزو القلب ، وهو يندفع إلى هذا الانفلات ، وهذا العرى وشـــراكه الجهنمية . نعـــم نحن نستحق النفى عنك ـــ بما فعلناه نحن أو غيرنا ـــ حـــق علينا قصاص الغربة ، وعلينا أن ندفع هنا ثمن الوقوف على عتبتك ، نتوســـل غفرانك، حتى تقبلى دخولنا وتباركينا.

أنار عقلى وضوح كشف لى كل التفاصيل الخافية عنى . انسحبت عائدا إلى المعسكر ، لا أعرف إن كنت سعيدا بمعرفتى الكاملة الآن لدشمة الكيلو "١٩"، أم حزينا لاكتشاف الخبيئة الملفوفة بحذر فى الأحشاء . دفعنى الحماس لتجريب آخر خطوة فى دفع القلق عن الجنود . أشعلت النيران فى الماء ، ودربتهم على احتمال استخدام إسرائيل للنابالم لتمنع عبور قواتنا لا يمكن أن يقوم العدو بأكثر من هذا .. وانتظرت النتيجة . ضاع القلق ، وارتفعت المعنويات لأقصى حد ، ورحنا ننتظر إشارة البدء بالهجوم . جاءتنا لجنة لبحث استعدادنا ، قلت لرئيس اللجنة:

ــ نحن الآن مثل جندى نشن ، وضغط الضغطة الأولى على الزناد، وكتم أنفاسه ، لكنه لم يخرج الطلقة ، ولم يخرج النفس .

ضحك قائلا : صبرنا كثيرا ، والقرار فى الطريق إن شاء الله.

ظهرت نتيجة التفتيش : حصل اللواء على المركز الأول ، وسبق جميع اللواءات . انسحبت حزينا إلى غرفتى ، فلحق بى رئيس أركان اللواء متسائلا فى دهشة :

ــ لماذا ؟ المفروض أن تكون أسعد الناس !

قلت : نسبق جميع اللواءات بتدريب ثلاثة أشهر ؟ معنى هذا أن باقى اللواءات تلعب ، ولا تعمل ، ونحن ندخل الحرب جيشا بكامله ، وليس لواء فحسب !!

أضفت هما آخر إلى همومى الكثيرة ، وتأكدت بعد ستة أشهر فى

١٥ سبتمبر ١٩٧٣ نفس النتيجة، وحصل اللواء على المركـــز الأول فى الاستعداد ، وانتهى آخر مشروع ، وصدر فى نفس اليوم أمر بنقلـــى إلى لواء آخر .

أشارت الإجراءات الكثيرة من حولى إلى قرب موعد الحرب ، ربما بعد أيام ، وكان على أن أعرف الأرض التى سأحارب فوقها ، جنـــوب غرب الإسماعيلية . الفرق كبير بين الحرب فى مكان درسته وخططت له، ومكان أراه الآن فحسب . ازدادت الصعوبة حين بدأت الحرب الفعلية ، وتفكك اللواء بســـبب طلبات اللواءات التى عبرت قبلنا ، ودخلنـــا فى مهمة جديدة فى كل دقيقة تمر تحت طلقات المدافع ، ونيران الطـــيران ، حاولت الاحتفاظ بهدوئى .

انسحب إلى سريره ، متعبا ، مفتوح العينين ، مشغـــولا بذهـــن مسكون بقلقلة هدير الدبابات ، فقرر أن ينام رغم كل شئ.

طرقات ريح فوق النافذة تطل بخبث ، تخفى شهوتها فى اقتلاع كل ما لم يتجذر فى الأرض . وقت تطمئن فيه إلى سفر النهار ، تسفر فجأة عن فعل أمشير الأخير ، تتحصن الكائنات فى شقوقها . يأتى بكاء طفل يمرق فى المدى ، يحسر الأفئدة على وحدته ، ينتبه محمود فى رقدته — التى لا تسلمه إلى نوم ، ولا تشبع جوعه للراحة — إلى صوت يشك إن كان ألما أو نداء ، أو غواية . يزداد انتباهه :

— آووو .. آوووو .. سرراى .. سررية .. داووود

يغمض عينيه على إدراكه لأغنية الغزل . على إفريز النافذة من الخارج قطة متكئة على مقعدها كملكة تلاعب بذيلها الراقص شهوة ثلاثة ذكور من القطط ، تتحرش بقط رابع ، منتفش الفراء، مقوس الظهر. قفزت إلى الأرض وركضت ، فبدأت اللعبة .

استند محمود على وحدته ، وسحب سيجارة ، أشعلها ، وراح يتابع انفلات دخانها إلى مدن ، ورقص وخز جسده ، وشهوته . عاد النداء ، مواء الغواية ، يسقط على أبواب العشق ، لا ينهكه التجوال ،

رحل إلى ذاته يناجيها ..

متاريس الذاكرة تنفتح على أسطورة بعيدة ، بكاء على زمن لص، شـاطئ زحف البحر عليه ، كلما هممت بلقائه رحل . الليل حديقة لعناق قط وقطة يموءان : **سرية . داوود** . ازدهرت الغواية فى صوتيهما ، وقتلت عذابهما وشوقهما . فمتى أغتال سجنى ، وأبدأ رحلتى ، وأهـدم الأسـوار التى تحول بينى وبين نفسي؟ ذاكرتى تنام فى سرير الريح ، ترتاد السهوب المجهولة ، أنادى عليها صارخاً : وحشة ، وحشة . حضـور ، ولا حضور ، الليل أوصد الأبواب ، والقمر يترف أشعته الخافتة علـى الجدران ، ولا ينفذ إلى وحدتى ، وتطرد الأسئلة الأشباح ، من يسـمع غنائى ؟ ومن يجيب ؟ أنا المنتظر معجزات الله . من يضـىء شـمعةً للولى؟ ويطمر شـقوق الصمت ؟ فتنبعث الروح لهباً ، ميلاداً جـديداً ، أو احتراقاً بالموت ، تشق السكون بحربة سؤال ، تجيب على ما لم يقلـه الورق البالى ، الملتف على فجيعتى بمهارة . كلام رماد ، لا يبـوح ، ولا يحمى من صقيع ، مكان مأوى ، مسحور بالانتظار . أحـداث مكفنـة باليومى ، بالعادى ، وأنا محموم ، أريد أن أخرق الحجـب ، وألتقـط قطـرات حليب من ثدى سحابة تمطر الحقيقة ، ولو كانت من حنظل . المر ، النار ، السـر ، الحب فى سلتى ، فى مخدعى ، فى الجب المظلـم ، فمن أين تأتى قبلة ترطب شفتى أو تروضها ؟

يا الله !

كيف يطمئن المنفىُّ إلى زنزانته ، وإن غطوها بالزنابق ؟

يرتحل الوقت فى كهفى ، يبحث عن نجمة ، والنجمة فى سماء راحلة ، مسافرة ، تدور دورة وتضحك . تلتمع التنبؤات فى وجهها فتتغنج . أحاول اللحاق بثوبها . أركع ، وأصلى ، وأنذر نذراً . عينى على سوسنة ، أبحتها ذات يوم لليم ، وانتظرت طيور البحر أن تأتينى بخبرها ، سرقتنى الهواجس ، رأيتها فى المدى تضىء وتنطفئ ، نسيت قدمى فوق رمال ينحرها الموج ، فوجدتنى أصارع اللجة خائفاً ، مستلقياً فوق ورق قديم لرجل قديم ، يجمع خريفه الذابل ، الذى يشيخ دون أمل فى مشكاة ، تشتعل برائحة زمن كان له . من يضىء نذراً للولى ، ويرفع الأنخاب لصوت ناى، أو قيثارة تعيد طفولتى ، شبابى ، أحلامى، أو أوهامى . تعيد السحر إلى الملحمة التى كف غناؤها . تعيد الفارس إلى صهوة الجواد ؟

سكن المطر رحم الريح ، وامتص غضبه حتى هدأ ، واشترك فى عزف قطراته ، لق لق لق ، ثقلت غفوة محمود ، والدقات تباعدت ، وخفتت حتى تلاشت .

دخلت ، ينثال شعرها بالمطر ، حافية ، تركت ملابسها بثقة فوق حافة سريره ، والمقعد . تسللت إلى فراشه عارية تخفى وجهها بوشاح "تل" ، فتح عينيه ، فلم ير غير الظلام ، والسخونة التى تسرى إلى أعضائه المدثرة بصوت ناعم ، أباح له ضوء جسدها رؤيةً ، و لم يبح اعتراضاً ، و لم يعرف إن كانت يقظةً أو نوماً . حررت ملابسه بأصابع مدربة بالعشق ، وسرحت فوق جسده شفاه مختومة بسحر ، فحركت رغبةً

قديمة ، طمرها الزمن بطلسم . سحبت مفتاحه وسط دهشته من معرفتها بسره ، فقام المارد من رقدته ، غفوته ، مزلزلا الحجرة التى سكنها الصمت .

برقت نجمة سؤال فى عينيه ، فقال :

ـ من أنت ؟

فرشت جسدها ، وتسلقت أصابعها شفتيه ، منعته عن الكلام . عرف فى عينيها المغللتين "بالتل" ، شهوة ما عرفها قط . منوم ، مسحوب بجدائل الشعر المبلل ، سأل مسحورا ، يتمنى ألا تطير كدخان :

ـ لماذا ؟
همست بصوت شعر به ، أكثر مما سمعه :

ـ أردتك .

ـ لكن ..

ـ شش شش شش

حرر شفتيها من الشبكة الرقيقة ، منعته أن يكمل غزوه لوجهها . أصابع مجنونة حرثت جسده المتلهف للمسة حانية ، لهث وهو يراقب لهفته لوصولها لتنينه الذى ينفث لهبا وشوقا . هدأت حركة أصابعها وهى تداعب رغبته بحنو ما احتمله . ما شعر برغبة قط ، مثل رغبته فى تلك اللحظة فى أن تقتنصه ، انفلتت موجة شهوته ، وحملته إلى أقصى مدى. فرد أجنحة جسمه ، وتلقاها فى حضنه بشغف ، قبلها بعمق ، غاص

فى أسره. لاحظ مرونة الجسد المرمرى حين أزاحت الغطاء ، وشعر بهـــا تتلوى باستمتاع سرقه من عقله ، فأعاده بالإرادة ، واحتـــار ، أيراقـــب المشهد الذى يلعب فيه الدور الثانى ؟ أم يترك جسده للبروق التى تمزعـــه إلى آلاف الأشلاء ؟ هربت مقاومته ، وانزوت فى ركن قصى . قـــرر فى اللحظة الأخيرة أن يراها قبل أن يغيب . امتدت أصابعـــه إلى زر النـــور الكمثرى ، بجوار الوسادة ، أضاءه فى لمحة ، وقبل أن يســـتوعب الرؤيـــة ضغطت فوق كفه ، وأعادت الحجرة إلى الظلام . هم بالكلام .

ــ شش شش شش

تدحرجا بتهور فى مسافة أقل من متر ، كأنهما إطار منفلت مـــن سيارة مسرعة ، يصده حائط ، فيعود إلى الدوران فى الجهـــة المقابلـــة . التهمت النيران أحاسيسهما ، فسمع فى الحجرة صوتا منظما ، لطقطقات انفلات وحشية ، وشبق محفور برغبة برية ، بدائية ، أثبتت أنه لا ضرورة لطريق طويل كانا يجب أن يقطعاه قبل أن يصـــلا معا إلى هذه الحميمية، التى لم تخطر لهما على بال ، كأنها ألفة تراكمت فى ألف عام .

نزا رغبتيهما حتى الثمالة ، وأهرقاها بسخاء ، وغرقـــا فى عـــرق اختلط بماء المطر الذى جلبته معها إلى فراشه الدافـــئ . دارا فى دائـــرة ، كلما انتهت بدأت . شـــعرا كأنهما يركبان أرجوحة الصناديق التى تشبه الساقية فى دورانها ، ارتفعا وهبطا ، ارتفعا وهبطا ، شربـــا المتعـــة فلـــم يرتويا، وعاودا النهل من نهر متدفق ، فـــائر، عفـــى ، حـــتى اســـتنفدا قدرتيهما، ولم يستنفدا الرغبة . استكانت فى صدره ، كأنها لم تكن المرأة

التى كانت ، غفا براحة ما عرفها منذ رحلـــت ذاكرتــه ، وتركتــه إلى المتاهة. رآها تلملم ثيابها ، وتغطى جسدا ما ذاق عرامته من قبل . أراد أن يقول لها شيئا ، مد كفه نحوها ، وبصره يتابع أصابعها التى تعيد "التـــل" إلى شفتيها، عادت إليه ، فقبلها صامتا ، شاكرا ، وممتنـــا ، وغـــاب ، وخطواتها ترحل .

هطل الفجر نقيا ، فيه من رائحة الربيع الكثير . اصطدم إدراكـــه للصباح بعريه ، قفز من فراشه ، تلفت بحثا عنها ، أبحرت مثل حوريـــة عابثة ناسية خرمشاتها فى روحه .

ـــ من هى ؟

بعيون فاغرة على الدهشة ، التقى بالماء الساخن فوق جســـده ، وابتلع الشاى الدافئ ، والفطير المشلتت مع الجبن القريش ببطء ، وهـــو يقلب أصابعه التى ما زالت عروقها تحمل رائحتها ، وتبـــث شذاهـــا . انتقلت دغدغة إلى جسمه ، وأحس بطعم العسل مختلفا ، كأنه يتـــذوق عسلها السائل إلى شرايينه . انطلق إلى الطريق، خطواته تزيح الندى العالق بالمدى ، خايلته عن بعد طبقات من الشبورة : بنت فى السادسة عشـــرة تعتلى جاموســـتها.. تأمل صباها ، جلبابها المـــورد بالبرتقـــالى ، فـــوق النسيج الكحلى ، وهو يخفى فوران ثدييها النافرين . اختفت فى الغبشة ، وظهرت غارقة فى إيقاع الخطوات الأربع ، تاركة نصفـــها الأســـفل ينبض فوق ظهر الجاموسة . هش إدراكه متسائلا فى انزعاج :

ـــ ماذا حدث لى ؟

استعاد مشيته العسكرية ، مصدرا صدره للريح . تذكر امرأة الليل المجبولة بالشهوة . استمرأ استعادته لجنونهما ، قابضا على الهواء داخل رئتيه ، رافضا خروجه قبل أن يمس آخر خلية ، مغلقا عينيه على سره . زفر بعنف أباح له استعادة مشهد الصبية التى غاصت فى جسدها ، مطمئنة إلى خلو الطريق . تسلل بصره إلى ثدييها المنفلتين كحبتى مانجو ناضجتين . أعاده هديل حمامة ترفرف إلى الصحو . ما زالت خطواته منتظمة ، وعقله يعيد ترتيب أحداث الليل .

فى الصوت الهامس بحة ، يخيل لى أنى أعرفها . من تستطيع أن تدخل الدوار ، وتفتح باب "الشكمة" ؟ هل هى من أهل البيت؟ ضيفة ؟ جارة ؟ فلاحة ؟ المؤكد أنها تعرفنى .

حافظ على المسافة بينه وبين الصبية . تعلقت روحه بحركتها ، شغف بخصرها ، ردفيها ، خلخال الفضة القابع أسفل رمانة الساق . تأملها : خمرية كحلت عينيها مثل أميرة فرعونية ، تطل من جدران معبد. خداها توردا بالشبق ، كسرات فى شعرها المطل فوق جبينها من تحت الطرحة . عاد نداء الشهوة يغويه . تذكر الأمس ، شعرها مبلل بالمطر، محلول ، مباح ، يقطر الرغبة، فمن أنت ؟ البنت مهتاجة ، ارتكزت بردفيها فوق نهاية السلسلة الفقرية للجاموسة ، ومكنتها منها . مالت للأمام ، واستندت بيديها على ظهرها، واستسلمت للنبض المنظم . عيناه تتابعان ارتعاشة جسدها البض ، ما هذا الفوران فى جسدى ، انتبه لصوت رجل ينهرها بعنف :

ـــ همى .. ضربة فى

كأنى كنت فى حاجة إلى شرارة تضىء حاجات الجسد حتى أكتمل .. أشعر باقترابى من ذاتى ، باختفاء سواتر كثيرة كانت تحجب عنى ما لا أريد رؤيته .

ـــ خائف !

ـــ ربما .. لا ليس الخوف .. بل رهبة المعرفة ، مطمئن لمسيرة رجل جاد، ربى نفسه ، وروضها على الشدائد . اختار حياة شاقة ، وأسلم نفسه لمتطلباتها . لم أفهم حتى الآن لماذا تحول حب الناس لى ـــ الذى بدأ بالميلاد والرضاعة الجماعيةـــ إلى خوف ؟ لا أستسيغ أن تكون الصفتان وجهين لعملة واحدة . صحيح أننى أعجبت فى طفولتى بخيلاء عمى حيدر ، وساعدتنى قوتى الجسدية على ارتكاب حماقات صغيرة، أثارت الفزع ، لكننى لم أكن ظالما أبدا .

ـــ اعترف يا محمود ، لا ضرر الآن .

تتابعت الصور أمام عينيه ، "دللنى الناس ، فدخلت الدور كلها ، وأعطيت لنفسى حقوقا لم تهبها القرية لمخلوق ، ولم أفهم لزمن طويل كلمة أبى التى كان يلقانى بها دائما : على مهلك ، كل شئ له أوان . أعجبنى تصرفه مع سليمان عطية ، طلقة واحدة من عيار نارى فى طبق طعام منافسه على العمدية الذى راح يسمم المواشى ويحرق الزرع لكى يتنازل عنها أبى .. طلقة فى عقر داره ، أكسبته هيبة فى الناحية مدى الحياة. الشر لا يقابل إلا بالشر .. أعترف أننى توغلت كثيرا فى

استخدام القوة صبيا ، وساهمت برعونة فى تجريس السارق ، وضربت بعنف كل من سولت له نفسه ظلم الغير ، حتى جاءت لحظة فاق العقاب الجريمة .. أذكر ذلك اليوم . جاءت إحسان بنت سالم تشكو لأبى أخا زوجها شكرى الحسينى الذى يشاكسها فى الذهاب والعودة ، مصرا على طردهم من الدار ، بعد أن سافر زوجها ليعمل فى القاهرة ، ويمنعها من دخول الغيط الذى ورثاه عن أبيهما . طالبه أبى مرة أن ينتظر عودة الزوج، وأرسلت إليه مرة ثانية لكى يبتعد عنها، فاجأتنى بجاحته . أخبرنى أنها اتفقت مع زوجها ، الذى باعه نصيبه، على البلطجة ، فلم أصدقه. وفى المرة الثالثة ، اندفعت إليه وسط صراخها الذى ملأ القرية ، ومنعته من إلقاء حاجاتها خارج الدار ، وأمسكت به من ياقة جلبابه ، وهو يقسم أن لديه حجة البيع ، وأن النقود ما زالت لديها فى الدار . لم أسمع، ورحت أضربه وسط الناس ، لم يوقفنى عويل امرأته ، ولا بكاء أطفاله .. أعمانى ضربه لامرأة عن معرفة الحقيقة ، حتى فاجأنى دم ينفجر من فمه ، وإحسان تلقى بنفسها فوقه لتحميه ، وتعترف بالحقيقة . لقد باع زوجها له الأرض والدار ، واتفقا معا على ابتزازه .. حملته ، وركضت به إلى الطبيب ، ووقفت أمامه أراجع أحداث الطيش والتهور التى مرت بحياتى ، وتضرعت إلى الله أن ينجينى ، وأن ينقذه من الموت ، الذى يصارعنى عليه. اكتشفت ساعتها حجم المغالاة التى غاليتها فى الانتقام ، لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرى ساعتها ، كان يفرحنى أن يشير الناس لى قائلين : أن حادث سرقة واحدا لا يحدث فى القرية وأنا موجود بها .. أعمتنى الخيلاء عن رؤية الوجوه التى تبدلت ملامحها من الحب إلى الخوف.

ورغم أن حادث شـــكرى الحسينى غير مجرى حياتى ، إلا أنه وصمنى إلى الأبد فى القرية بالجبروت ، وأنسى الناس لزمن طويل أهم مـــن وهبـــونى الحياة .

يا الله .. كم يقطع الإنسان لكى يصل إلى نفسه ، ويتصالح معها.

تطلع إلى كتب الفلسفة والشعر ، والتاريخ ، وسير العظماء، مرر أصابعه فوقها ، وأمسك بالدفتر الصغير ممنيا نفسه بكشف آخر السواتر ، التى يستشعر معرفتها . قرأ العنوان :

ـــ الحرب .

قال بصوت عال : عظيم .

لم يكن اختيارى للموقع الجديد ، الذى نقلت إليه جنوب غـــرب الإسماعيلية ، صدفة . بل جاء إجباريا نتيجة لتطور الأحداث ســـريعا قبل الحرب . كان قائد اللواء الذى نقلت إليه يعانى من تضخـــم حـــاد فى الكبد، أرادوا تغييره ، والطبيعى فى هذه الحالة أن يأتى رئيس أركانـــه ، لكنه لم يكن محل ثقة ، وعند بحث من يحل محله ، لم يستطيعوا تكليـــف ضابط من خارج الجبهة ، أو سحب ضابط مشارك فى الهجوم الرئيسى . كانت بور سعيد تعتبر اتجاها ثانويا ، وكانوا يستطيعون الاعتماد على من يحل محلى ، فقد كان رئيس أركانى كفوأ ، ومتفاهما معى ، وكان علـــى أن أواجه الحرب فى مكان جديد ، يجب دراســـته بســـرعة . حـــاولت اكتشاف الموقع ، والأفراد ، والاستعدادات ، وكل الدلائل حولى تشـــير إلى أن طبول الحرب قد راحت تســـخن سطحها اســـتعدادا لانطـــلاق

شرارة البدء . راعتني الفوضى . كل التحركات تكشف أننا نعد لهجوم ، والمفروض أنه سرى ، والأيام الباقية لا تعطى الفرصة للتصحيح : لواء مفكك الأفراد ، القائد السابق فى المستشفى ، رئيس الأركان ليس محل ثقة . فى اليوم الأول من أكتوبر وصل إلى اللواء اثنان من الضباط ، قادمان من قيادة الأركان ، وبالتالى معلوماتهما عن اللواء صفر . فى اليوم الخامس من أكتوبر وصل قائد جديد لكتيبة دبابات اللواء . **هكذا دخلت الحرب .... !!**

عبرت لواءات المشاة فى اليوم الأول ، بما فيها لوائى السابق فى بورسعيد . وبدأ اللواء يتفكك من اللحظة الأولى للعبور ، فقد طلب كل لواء عبر ممن وراءه كتيبة دبابات ، أو سرية ، وفقا لاحتياجاته ، وسط قعقعة الحرب ، وهديرها . واجهنا فى كل دقيقة مهمة جديدة ، حاولت الاحتفاظ بهدوئى ، لكى تكون القرارات عملية ، ولم يكن هذا ممكنا دائما . فقد كانت الطلبات تأتى وفقا لتصورات محتاجيها ، وليس وفقا لإمكانيات التنفيذ .

انسالت القوات على المعابر ، تدفقت بقوة اندياح ماء طال أسره، وتحركنا إلى الغرب ، لنحل محل قواتنا التى عبرت إلى سيناء. واستمر اللواء يمد اللواءات الأخرى بالعناصر التى تحتاجها ، حتى جاءنا أمر ليلة الثالث عشر من أكتوبر بتطوير الهجوم . أخيرا يتحقق الحلم ، ولن يقف على عتبتك ، يدفع ثمن الهزيمة . تقطرت أعمارنا فى لحظة ، كنا جميعا على استعداد أن نهبها لرمالك . عبرنا القناة بصعوبة بسبب عطل

الفرقة لأحصل على أوامر المهمة التى سننفذها، قال :

ـــ سندخل المعركة فى السادسة صباحا ، وسيكون دوركـــم فى المرحلة الثانية ، بعد أن تنجح المرحلة الأولى بإذن الله .

ـــ بعد ثلاث ساعات يا افندم .

ـــ نعم .

مقابلة لن أنساها مدى الحياة . لم تكن المعلومات عـــن العـــدو كافية، ولا المهمة واضحة . سألت عن النقط المحتمل أن تواجهنا، والنقط على جانبينا أثناء الهجوم ، واحتياطى العدو الذى يمكن أن يقابلنا أثنـــاء التنفيذ ، فلم أتلق إجابة . عدت أستفسر عمن سيحمى أجنـــاب اللـــواء حين يدخل المعركة ، ومن الذى سيقوم بتعليم الطرق التى سيتحرك عليها اللواء حتى يصل إلى مكان المعركة ، وما هى الوحدات التى ستقوم بمعاونة اللواء أثناء تنفيذ المهمة ، فلم أصل لنتيجة . لا معلومـــات . وعـــدت حائرا بين المهمة الواجب تنفيذها ، وبين المعوقـــات الـــتى ســـتواجهنا . استقبلنى صخب الجنود ، رأيتهم يقفزون من الســـيارات المدرعـــة ، يقبلون الأرض ، يكبشون الرمل مثل جواهر ثمينة ، ويحشون بها جيوبهم ، تأملتهم ، وأنا أتمزع بين رغبتى فى تحقيق نصر كاسح فى المهمة التى ستبدأ بعد قليل ، والإمكانيات التى فى يدى . تسللت مشاعرهم إلى أعصـــابى تروضها ، وتزيح عنى همومى رويدا ، رويدا ، حتى ســـرت عدوى حبهم للأرض ورغبتهم فى التضحية بحياهم ، وغلفـــت الصحـــراء الممتـــدة ،

وغمرت معها كل كيانى ، وشعرت أمام حماسهم أن الــــروح المعنويـــة ستعوض المشاكل التى لاحظتها فى الخطة . تذكرت ســـــاعتها الضـــابط الإسرائيلى الذى شاركنى السكن فى بناء واحد فى منطقة العوجة الدولية، فور تخرجى ، وكانت خطواته فى الممر تمنعنى من النوم ، وتذكرنى فى كل لحظة بأن وجود أحدنا ينفى وجود الآخر . قلت لنفسى : جاء الوقـــت الذى يجب أن نحقق فيه وجودنا على أرضنا ، وإلى الأبد .

بدأت الفرقة الهجوم فى تمام السادسة صباحا ، ولم تنجح المرحلـــة الأولى ، فلم يدخل اللواء المعركة ، وأتيحت لنا الفرصة لإعادة التنظيـــــم استعدادا للجولة القادمة .

أثناء الليل دخل العدو بكتيبة دبابات فى رأس الكوبرى حتى وصل إلى موقع كتيبة دبابات اللواء التى استعارتها منا الفرقة ثانى أيام الحرب ، واشتبك معها . قاتلت الكتيبة ببسالة ، واستشهد عدد مـــن أفرادهـــا ، لكنها أجبرت الدبابات الإســـرائيلية على الانسحاب . وجـــاءنى أمـــر بحماية منطقة المعابر حتى تظل خطوط المواصـــلات مفتوحة . اندفعنـــا فوق نيران من الحماس ، ضاعفت قواتنا البشرية والآلية ، سعيد بالمـــارد الذى انبعث داخل كل فرد منا بهستريا الحب للأرض التى اشتقنا كثـــيرا لتحريرها ، وأوقفنا حياتنا لاستعادتها ، سنوات من التدريـــب والعمـــل الشاق . وتمكنا بالفعل من تأمين رؤوس الكبارى ، واستقرار الوضـــع ، واستمتعنا للحظات بالنجاح . وأخذنا مهمة استعادة منطقة كان العـــدو قد احتلها من الفرق التى دخلنا فى منطقتها ، وبدأنا نجهز للهجوم ، لكن

العدو فاجأنا بهجوم شـــامل بالطيران والمدفعية ، ثم اشتبك معنا باللواءات المدرعة . حميت المعركة إلى أقصاها ، وكل طرف مصمم علـــى تنفيـــذ خطته : إســـرائيل التي اختالت كثيرا بنصرها فى ١٩٦٧ ، بعـــد أيـــام عشرة من انتصارات مصرية كبيرة تحاول تعويض ما خسرته ، ونحن نصد الهجمات بقوة مرارة ســنين الهزيمة ، بالأمل الذى صحا ذات يـــوم فى يوليو ليدفعنا إلى قمة العالم ، ثم انتحر تحت وطأة النكســـــة . كنـــت أعرف أن كل روح مصرية فى هذا القتال تدافع عن تاريخ طويـــل مـــن الحضـــارة ضد الهمجية ، والاغتصاب . وتذكرت فى هذه اللحظة ضابطا شابا فى الواحدة والعشرين من عمره يتحدى وزمـــلاؤه هجمـــات دول ثلاث ، وما زال يحمل ســـلاحه رغم مرور كل هذه الأعوام ، ويمتلـــئ قلبه بمرارة الثأر الذى لم يأخذه . الفرق كبير الآن بينى وبينه ، وأحمـــــد الله أن القائد ينشغل بأمور كثيرة تشغله عن ذاته ، بالإضافـــة إلى رصـــد العدو لموقع القيادة ، وتركيز الضرب عليه ، فالحرب حرب حـــتى مـــع النصر.

لم نستطع أن نأخذ الموقع ، أو نطور موقفنا إلى الهجوم ، وظـــل العدو يهجم ، ونحن نصده ، إلى أن سببنا له خســـائر كبـــيرة اضطرتـــه للانســـحاب .

طلبنى قائد الفرقة ، واجتمعنا مع رئيس أركان الجيـــش ، وقـــادة الفرق الأخرى للتخطيط لهجوم شامل مضاد . توالت الاقتراحات تحـــدد فوق الخريطة إمكانيات تحركاتنا ، وإمكانيات العدو وفقـــا للظـــروف

الجديدة المتغيرة . انقضى الوقت الثمين ، ونحن نفكر معا ، ونعيد تصحيح الأفكار ، ثم أخبرنا قائد فرقة "رأس الكوبرى" أن العدو اخترق مواقعــه، وتوجه بالكلام لى ، طالبا أن يستعير لوائى لهجوم مضـــاد ، لاستعادة المنطقة التى أخذها العدو . لم يكن الطلب منطقيـا ، فكيـف أقـــوم بالهجوم بدون كتيبة دبابات اللواء ؟!

أخبرته أن كل ما أستطيعه بإمكانياتى هذه ، هــو اتخــاذ موقــع أستطيع الصد فيه ، وليس الهجوم . تجادلنا كثيرا ، ثم تحول النقـــاش إلى تحديد أى الخطوط التى أصـــد منها . ووفقا للمعلومات الـــتى كـــانت عنده، كان رأيى أننى لا أســتطيع أن أتزحزح أنملة عن الخط الحـــالى ، الذى أقف عليه ، والعقل يقول أن أبقى مكانى انتظارا لوصول العــدو . لكنه اشتكى من ضياع مسافة كبيرة من "رأس الكوبرى" ، وأصر علــى تعويضها بأى ثمن . وضاع صوتى وسط حماس لا عقـــلانى ــ لأنــه لا يستند على إمكانيات ــ لاسترداد الأرض ، فلم نصل إلى حل . قلت :

ــ أعطونى أوامر محددة ، وسأنفذها على الفور .

أمرونى بالتحرك باللواء حوالى أربعة كيلومترات شمال الخط المغذى الرئيسى . أعطيت من مكانى أمرا للواء بالحركة ، وحين وصلنا ، لم أجد أية قوات ، على عكس المعومات التى أمدنى بها القائد . ورغم توجســـى من صحة تقادير قادتى للمهمة التى أمرت بها ، فقد أحزننى بشدة عـــدم وجود قوات للعدو فى المنطقة التى تحركنا إليها ــ رغم أن هـــذا جنبنـــا اشتباكا مع قوات ثابتة فى مكانها ، بدون كتيبة دبابات اللواء ، التى تلعب

الدور الأول فى أى هجوم ـــ ذلك أن أصعب الأشياء علـــى قـــائد فى الحرب أن يكتشف عدم دقة المعلومات التى يتحرك على أســـاسها . معنى هذا أن تقع الفرق فى حالة خطرة من التخبط لا تؤدى إلا إلى الفشل .

ثبت على هذا الخط ليومين ، ثم ذهبت إلى قائد الفرقة ، وكـــان الرئيس يحدثه تليفونيا ، وأمره بأن يأخذ قرية الجلاء اليوم ، ثم أغلق الخط.

بدون دفاع جوى !!

بدون إسكات لمدفعية العدو !!

حركة تحت نيران طيران ومدفعية العدو ، كيف ؟!

اتصل القائد برئاسة الأركان ، فقيل له : جهز نفسك للـــهجوم . وبعدها بساعات ألغى الهجوم ، فطلبنى القائد وأعطانى أمر الانســـحاب مساء التاسع عشر من أكتوبر . حالة من الفوضى أكبر من قدرتى علـــى تنظيمها . فى النهاية ، أنا جزء صغير فى حركة كبيرة ، لا ســـيطرة لى إلا على ما تحت يدى . لكننى أيضا مسئول عن كل ما يجـــرى ، فقـــد كنت وما زلت من المخططين ، والمدربين للجنود والضبـــاط ، وأيضـــا المنفذين!! علمت الناس التكتيك لمدة خمس عشرة سنة : أين شطارتك يا بطل ؟! انسحاب فى الظلام : ليس مستحيلا . هو ممكن ببعض الأخطاء. كان المفروض أن يصلنى أمر الانسحاب قبل الظلام ، حتى يرى الجنـــود الأماكن التى سينسحبون إليها ، وينظموا حركتهم ليصلوا بأمان ، لكن ما باليد حيلة ، علينا تنظيم العودة إلى الخط الثانى قبل الفجـــر . أعطيـــت التعليمات ، ورتبنا حركتنا بخمسين بالمائة من الدقة ، بســـبب ظـــروف

المهمة ؛ لكن هكذا هي الحرب .

رفع رأسه عن الأوراق ، مسح عينيه ، كأنه يزيل غشاوة أصبحت ملك يده . أمسك ورقة وقلما ، وراح يرسم خريطة الأحداث ، قناة السويس ، بحيرة التمساح ، أحد عشر كيلومترا ، ثم البحيرة المرة الكبرى، رسم علامة كبيرة محددا موقع اللواء بعد العبور ، قال : "هنا على الضفة الشرقية للقناة شمال طوسون، ويمتد شرقا حوالى سبعة كيلومترات. إذا نظرنا يمينا على الضفة الغربية ، فثمة نصب تذكارى قديم من الحرب العالمية . جنوب جبل مريم على الضفة الشرقية ، توجد قبة الشيخ حنيدق . هذا هو الخط الذى وقفنا عليه فى النهاية ، لم يكن أمر الانسحاب هو الكلمة الأخيرة فى الحرب ، التف العدو حولنا بين جزيرة التمساح والبحيرة المرة الكبرى ــ الثغرة ــ واحتل بعض التباب التى صنعناها ، وأصبح من السهل عليه أن يضربنا من الخلف . جاءت التعليمات بسحب الخط الأمامى ، فانسحبت إلى الخط الثانى ، ووصلت طائرات العدو فى السابعة صباحا .

نظر فى الأوراق ، كانت كلماته طبق الأصل من مدونة الأحداث التى تذكرها دفعة واحدة . واصل القراءة .

هاجمت الطائرات والمدفعية الخط الذى انتقلنا إليه . استمر القصف ثلاث ساعات متوالية ، ثم بدأ الهجوم فى العاشرة . تصدينا له بالمدفعية، والأسلحة المضادة للدبابات ، فتوقف . كانت الحرب فى عام ١٩٧٣ حرب دبابات ، ولا شئ آخر ، رغم أن العدو اعتمد على إلقاء أطنان

من المتفجرات بالقنابل قبل أن يبدأ هجومه ؛ لكن الصحـــراء ، وطــول معاشرتنا لها ، علمتنا كيف نحتمى فى رحمها العريض ، وكيــف نصبــح جزءا من كائناتها. بعد طــول عناء على بابها ، فتحت لنا قلبها ، وعلمتنا الصبر فامتزجنا فى نسيجها . كرر العدو الضرب ثلاث ساعات متتاليـــة بالطيران والمدفعية ، ثم هجم بقواته البرية فى الواحدة ، وفشل الهجوم . لم يستطع واحد منا إدراك من أين تأتى القوة الداخلية فى هـــذه اللحظـــة . راعنا جميعا حجم اكتشافنا لها ، ولم نعرف إن كانت غريزة البقـــاء ، أم حب الوطن ؟ أم التحامنا جميعا ، بقوة أكبر تســـيرنا كوحدة ؟ أم هـــو دفع ذاتى خلقه الله ولم نكتشـــفه إلا لحظة الخطر ؟ لا يشـــــعر الفـــرد بذاته فى هذه اللحظة ، بل بوهج الروح حين تنجلى بطــول الانتظـــار ، والإعداد ، والبعد عن الأهل والأحبة ، بقسوة الطبيعة ، الـــــتى تصــب غضبها مرة، وتســـامحنا مرة ، وتصفو أخرى ؛ بطول التعامل مع الرمال، واعتياد الجنود عليها ، كما يعتاد الفلاحون الأرض السوداء ، بترابها الذى يهب البذرة الحياة . نســـى كل منا خصوصيته ، وأصبح الكل يخصـــه شئ واحد، أن نصد الهجوم ، وليحدث ما يحدث لأى منا بعد ذلك ، لا يهم. المتبقى منا على قيد الحياة يكمل المسيرة .

تكرر الضرب بنفس النظام ، وعادت الدبابات ، وكتائب المشاة للهجوم فى الرابعة والنصف ، للمرة الثالثة . اســـتجمعنا قوانـــا دون أن نحصر الخسائر ، أو الشهداء ، أو ندرك حتى حجمها الحقيقى . وبدافـــع الرغبة فى الحياة ، استنفرنا قوانا ، وصددنا الهجوم ، فـــتراجع العـــدو ، وتوقف ، لكنه لم يتركنا نرتاح . راح يضـــربنا ضرب إزعاج . طلبـــت

من وحدة المهندسين زرع ألغام فى الأرض ، أمام الحد الأمامى للواء ليلا، وبدأنا نحصر خسائرنا الكبيرة من الشهداء .

تذكرت جمال عبد الناصر وهو يقول لنا فى اجتماعه بنا ، إحدى المرات أثناء حرب الاستنزاف : علموا جنودكم كيف يموتون ! شعرت ساعتها ، أننا تعلمنا فى انتظارنا الطويل للحرب أن نحب أنفسنا ، ليس كأفراد ، ولكن كجزء من طين الأرض ، ورمالها ، وأن نعرف قيمة الهبة العظيمة التى أعطتنا مصر : الحياة كمصريين ، نحمل فى عروقنا دماء ملايين الشهداء ، على مدار تاريخها .

مكاسب وخسائر ، معنوية ومادية ، هكذا الحرب . وهى لم تنته بعد ، بغض النظر عما حققناه فى الحرب حتى الآن ، فيجب أن نحافظ عليه ، وأن نزيد من مكاسبنا ، مهما كان الثمن . تمت مهمة التلغيم بنجاح . ومع شروق الشمس ، بدأ العدو يضربنا بطيرانه ، وبمدفعيته مرة أخرى . كان من الواضح أنهم رصدوا قيادة اللواء ، وركزوا الضرب عليها ، حتى أن السيارة المدرعة التى أركبها ، رسمت بالقنابل من جميع النواحى ، فأدركت للمحة خاطفة أن العمر على وشك أن ينتهى ، ثم انشغلت بمواجهة الهجوم الذى بدأ فى الرابعة عصرا . انفجرت الألغام لحظة مرور بعض الدبابات فوقها . تناثرت أجزاؤها ، وتحولت إلى خردة فى ثوان ، وتعطلت دبابات أخرى فتوقفت . خيوط من الدخان الرصاصى ، تكاثفت فوق نقاط التفجير . زوابع من الغبار، وسط كعكة الجنازير التى نجت من المصيدة ، وحملت الدبابات إلى الاشتباك

مع رجال كتيبتنا الأولى . قاوموا ، رغم أن عددهم كان قليــلا ، حــتى اخترقتهم ، وأخذت طريقها إلى قيادة اللواء . قلت لزمــلائى : لا مفر يا رجال ، جاء وقت الدفاع عن أنفسنا ، احملوا الأسلحة الخفيفة .

استعددنا بكل ما تملكه أيدينا فى هذه اللحظة ، ولم تكن الأسلحة الموجودة كافية بأى حال . اقتربت الدبابات ، المسافة بيننا ألف مــتر لا غير ، هديرها يدوى ، تكأكئ ، وتسرع ، كقطار نســوا أن يشحمــوا أجزاءه . قطعنا عهدا صامتا على أنفســنا أن ندمر منهم كل ما نستطيع، حتى آخر رمق . قطعــت مائتى متر باعتزاز وثقة الملك . ملك الصحراء، أو وحشــها ، لا يهم . توقعنا أن تبدأ الضرب ، ثمانمائة متر تفصل بيننا، الثوانى هى أعمارنا الباقية . سرحت أنفاسنا إلى الداخل تملأ كل خليــة بالحياة التى تنقضى الآن ، عيوننا رصاص يريد أن ينطلق ليعــوض قلـة الذخيرة . احتل ســمير نصف عقلى ، وعرض النصف الآخر شريــط حياتى كله ، تنحى بعدها الشــريط ، وترك إدراكى كلـــه لســمير ، أصابتنى غصة ، ســرعان ما تخلصت منها ، وأنا أردد : سيتربى ، مثــل أبناء آلاف الشهداء . نزل أفراد القوة التى تهاجمنا من الدبابات رافعين راية الاستســلام . لم نفهم ، استوعبنا ما يجرى غــير مصدقــين، انفجرنــا مســرعين بالركض ، والفرح لأسرهم ، ثلاثة عشــر جنديــا وصــف ضابط، بأسلحتهم .. انتهى الهجوم إلى هذا الشكل الهزلى ..

أمرت بإحضارهم إلى مقرى لاستجوابهم . رأيت أمامى مجموعـــة من الشباب تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين . سألت أحدهم :

ـــ لماذا تضحى بحياتك من أجل لا شئ ؟

أجاب عدد منهم معا : لأن هذه أرضنا !

اندفع بعض جنودى يريدون قتلهم . أمرتهم بالسكون ، وأنا أعرف أن السيطرة عليهم فى هذه المواقف صعبة ، وسط إحساسهم بصلف الأعداء . خاف الأسرى بالفعل ، وتوقعوا أن نقتلهم ، كما فعلوا مع أسرانا فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . لم يعرفوا أن كل ما تبقى معى هو عشرون فردا ، وأننى سأواجه مشكلة فى حراستهم . قلت :

ـــ كيف كان أمر الهجوم علينا ؟

قالوا : جاءتنا أوامر باحتلال الموقع ، أشاروا لنا إلى حيث بقعة مشتعلة ، بعد قذف الطيران ، وقالوا لا يوجد أحد هناك . مجرد نقطة دكت ، وقتل أفرادها . فوجئنا بالمقاومة ، ولم نكن على استعداد لها .

أمرت بانصرافهم ، وانشغلت بمواجهة الطائرات والمدفعية الإسرائيلية ، التى عادت إلى دك الموقع من جديد . أصيب الأسرى الإسرائيليون بالذعر ، وقالوا إنهم هالكون لا محالة . وفوجئت بالجنود المصريين وهم يحاولون تهدئتهم ، حتى كفت إسرائيل عن الضرب ، وفشل هجومها ، وعادت الحالة إلى الهدوء ، حتى وقف إطلاق النار فى السادسة من مساء الثانى والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ .

توقف عن القراءة .

أفادنى تعلم العبرية فى بداية حياتى العسكرية . أذكر هذه الفترة

جيدا ، وأذكر الآن أننى لم أكتب هذه المذكرات فى حينها ، بل كتبتها فى وقت آخر بعد انتهاء الحرب ، أثناء فترة عملى فى أكاديمية ناصر عام ١٩٧٥ أو ربما ١٩٧٦ ، اعتمادا على نقاط صغيرة كنت أدونها ، لكن أين هى ؟ وأين صافى ؟ وأين أمى وأبى؟ وعائلتى وسط الحرب ؟ ولماذا لم أذكر لحظة إدراكى للموت إلا سمير ؟ آه .. كم اشتقت إليك يا سمير.. ماذا فعلت بك الدنيا، وكيف احتملت البعد عنى هكذا ؟! وكيف احتملت أنا .. هه ، ماذا كتبت أيضا عن الحرب ؟ عن الحرب مع الأعداء والحرب مع النفس ؟!

استفدنا من وقف إطلاق النار فى إعادة بناء اللواء . عادت الكتائب والسرايا التى ألحقت باللواءات الأخرى ، فى فترة العبور ، ووصلتنا بعض الأسلحة القليلة ، تعويضا عما فقدناه . ثم طلب منا سحب اللواء إلى الغرب ، لتثبيت العدو فى منطقة الثغرة . سلمنا الموقع إلى الفرقة التى تدافع فى الشرق ، ورحلنا إلى مكاننا الجديد . لم تكن مهمتنا الجديدة سهلة ، كان علينا أن ندافع عن منطقة تبلغ مساحتها ثلاثة وثلاثين كيلومترا، بخمس دبابات لا غير ــ يحتاج اللواء إلى واحد وثلاثين دبابة ــ وأن نوقف العدو ، بأى شكل ، فإذا اخترقنا ، تتعامل معه القوة التى تلينا فى الموقع ، وتشتبك معه وتمنعه .

تسرب الوقت ، وأنا أتأمل المكان وأدرسه ، وأضع له الخطط . كانت السلطة للشمس ، فوق الأرض المنبسطة القاسية بنعومة ، التى لا تكشف عن عالمها الغامض ، رغم سحر الوضوح السطحى للغافلين .

تحتاج الصحراء للندية ، ولا تراوغ إلا المحتاج. هذا هو قانونها . تستدرجه إلى قلبها ، ثم تبدأ معه رقصة السراب، أو طقس الموت . انقلب الهدوء فجأة إلى هدير وزمجرة، أقرب إلى فحيح البحر الغاضب ، وانهمرت السيول ، دفعة واحدة، وحفرت المياه أنفاقا سرعان ما ذابت فى جسد الأم ، وتركت مكانا رخوا ، لكائنات ظهرت فجأة كأنها عاشت هنا منذ ألف ألف عام .

لسعت السيجارة التى احترقت حتى الفلتر يده ، دون أن يدخن منها مرة ، فوضعها فى المطفأة .

كأن التى كتبت هذه الكلمات ، أمى وديدة ، وليس محمود الضابط المخضرم . أعرف أننى أحب أمى ، لكننى ما عرفت قط أننى أشبهها ، وأستعير منطقها فى الحياة . وكأنى كنت فى حاجة إلى خوض كل هذه التجارب ، والعراك مع الدنيا، لأصل لنفس الفلسفة التى تعيش بها أمى ، بالفطرة ، دون تعليم ، ودون حركة أبعد من دوارى أبيها وزوجها .

أشعل سيجارة تركها تنفث احتراقها ، وعاد يقرأ :

أرسلت دوريات لرصد العدو فى الثغرة . أعترف أننى فوجئت بالنتيجة ، أتى الجنود المصريون بالأسلحة والعلم الإسرائيلى . لم يكن ينقصهم إلا أن يأتوا بالجنود الإسرائيليين أيضا، طالبونى بذلك ، فرفضت بشدة . قلت لهم قانوننا الآن المراوغة والسرية ، لا نريد أن يتنبه الباقون ، ونحن على غير استعداد للدخول فى المعركة . أوقفت حماس جنودى

بصعوبة . ازداد إصرارهم واستعادوا الثقة بالنفس ، وارتفعت روحهم المعنوية إلى السماء . والأهم أن العدو فقد الحالة الكبيرة التي اكتسبها باحتلال الثغرة ، وعدت لبناء اللواء بطريقتي ، حتى سبتمبر ، إذ نقلت إلى أكاديمية ناصر .

ترنحت المنتهى بين رحى الفرحة بالنصر ، والحزن على رحيل أغلى الأبناء. خرجت الزغاريد من كل دار اطمأنت على ابنها ، ولو برسالة قصيرة . وظهر مع الوقت فى القرية جنود حصلوا على أجازات خاطفة ، أضاءوا بزيهم الأصفر المنتهى ، مثل نجوم تلمع ، تخطف الأفئدة ، وكأن القرية ما كان لها شباب قبلهم. تعلقت بهم الأبصار بفخر ، وخوف على الزهور اليانعة ، لبة القلب ، من أن يغدر بها الأعداء .

حرثت وديدة أرض الحوش مثل أسد مأسور ، تسأل عن الغائب من أبناء الفلاحين ، والمهاجرين ، والأقارب ، فى المنتهى، والهور ، والمدن التى تعرف فيها أية عائلة لها ابن فى الحرب. لم تكن تعرف الفرق بين أن يكون الجندى فى شرق القناة، أو الدفرسوار، أو فى السويس، "كلها بلادنا" كانت تقول .. وتسأل كل من يدخل الدار عن الأخبار.

قال عبد الله ضاحكاً : أنا دخلت معهم مدارس ، ولعبت مع أخوانهم ، ولا أعرف كل من كان فى الحرب يا أمى .

قالت : مشاغلك كثيرة يا عبد الله .

احتل الغائب سماء المنتهى . غيمة حزينة لا تمطر ، كلما تحركت أدمت القلب . أصبح هو البطل الذى تسأل عنه أحجار الدور التى نما فى ظلها ، والشوارع التى حبا فوقها ، والأرض التى رواها . باتت المنتهى لياليها ، تنتظر الغائب علها تعرف عنه أى شئ .

ثم توالى إعلان أسماء الشهداء ، وارتاح الغائب بالعودة أو بالموت. خرجت القرية تودع من كل شارع شهيدا ، وتستحلفه أن يوصل سلامها للأبناء الراحلين قبله . ولم يكن خروج الشهداء اليوم مثل خروجهم فى ذلك اليوم القريب ـــ البعيد ، فى ١٩٦٧. شهيد النصر ليس هو شهيد الهزيمة .

قلقلت الحرب مواجع ذكرى استشهاد عبد الحميد ، فعاد يدب فى أرض الدوار ، رضيعا هادئا ، مريحا ، ثم صبيا مشاكسا ، لا يمر يوم دون أن يصيبه شئ. كان مثل مغناطيس يجذب الحوادث إليه . جريحا دائما، ووديدة تصرخ فيه :

ـــ إنت " متقترح " على عمرك .

تتذكر نزقه ، ثم تتذكر حنانه . تذكروا جميعا يوم دخل عليهم ملفوف الرأس والركبة، مدهون الجسم بلون أحمر كأنه دخل معركة مع ثور ، وأخبرهم الخفير أنه ربط "سلبة" [1] عجل فى وسطه ، ففر منه، وجره وراءه ، وسحله على الطريق . وتذكروا يوم اختبأ فى "الدست" [2]

---

[1]) السلبة : الحبل الذى يربط العجل .

[2]) الدست : قزان كبير.

تحت سرير مترو فى المقعد ونام، وخرج الخفراء يبحثون عنه فى الغيطان بالفوانيس ، بعد أن أعياهم البحث فى كل أرجاء القرية .

ثم تذكروا حنانه . تقول وديدة : كان أحن أولادى ، ثم تغرق فى ذاتها .. وتقول ليلى :

ــ لم أر فى حياتى رجلا أكثر منه شهامة ورقة . أشتاق إليه ، وأشعر به حولى فى كل مكان .

ويصمت الجميع .

تعاملت وديدة مع الموقف طوال الحرب باطمئنان على ابنيها محمود وعاطف ، لم يفهمه غير طه الذى لم يستطع التحكم فى دموعه أبداً بعد رحيل عبد الحميد ، وكثيراً ما رآه الأطفال يبكى وحيداً فى الشكمة ، فينقلونْ الخبر إلى جدهم .

قالت له وديدة ذات يوم :

ــ كنت أعرف فى داخلى أن عبد الحميد منذور يا حبة عينى للموت من يومه . لم يكن ابن دنيا ، لكن لا محمود ، ولا عاطف ، صدقنى يا طه .

دبت العافية فى روح وديدة وجسمها مع الفجر ، فطارت مثل نحلة لا تهدأ، استعداداً لوصول العائلة كلها . وصل محمود قادماً من الجبهة للمرة الأولى فى الصباح الباكر وبصحبته زوجته صافى وابنه سمير، ووصل

عاطف من معسكره على مشارف القاهرة ، وجاء رشدى أخو طه ، وابنته لبنى خطيبة عاطف .

هاص الحوش ، جلس الجميع على المصاطب ، ووديدة تدور بين الكوانين والأفران ، وخادماتها يعملن بهمة وفرح .

دخلت ليلى أرملة عبد الحميد إلى وسط الحوش تسبقها زيطة علاء، وفى يده نقود معدنية كثيرة وضعها فى حجر جدته ، وارتمى فى حضنها قائلاً :

ــ نينا ، عرفتِ إن بابا شهيد ؟

بوغتت وديدة التى تحتضنه ، فلم تستطع أن تمنع الرجفة التى هزت جسدها بشدة من أن تصل إلى حفيدها ، ووقعت العملات المعدنية ، وتدحرجت إلى الأرض . احتضنته ، فتعلق برقبتها ، وهى تقوم لتستقبل ليلى والدموع تطفر من عينيها ، والسؤال يحوم فى سماء الدار :

ــ حمداً لله على السلامة ، غيبة طالت يا ليلى :

قالت ليلى ، وهى تومئ برأسها لوديدة أن تمرر الموضوع :

ــ أوحشتينا يا نينا .. والله ما نقدر نبعد عنك ساعة ، لكن المدارس فى عز الشغل.

تعالت الضحكات تحاول إخفاء ما قاله علاء ، لكنه لم يبرح مكانه ، وقال لجدته :

ــ نينا ، عملنا حفلة فى المدرسة لأولاد الشهداء ، كل ولد (باباه)

شهيد وقف فى الحوش ، وكل المدرسة صفقت له ، وغنينا كلنا أناشيد عن مصر . تعرفى، بابا كان مسافر ، راح الحرب ، واستشهد هناك. شوفى ، لبسنا شارة ، وكان صاحبى شريف نفسه ياخدها منى ، لكن أنا قلت له لازم أبعتها لنينا .

لم تحتمل وديدة أكثر من هذا ، وغرقت فى دموعها ، والمشهد حولها كله لا يجسُر إلا على دموع صامتة .

قالت ، وهى تفرق بأصابعها المرتجفة خصلات الشعر فوق جبهته:

ـ أنت كبرت ، وشعرك طويل يحتاج مقص .

سألها : صحيح النعجة ولدت ؟

قالت : فى زريبة الغنم خرفان صغيرة ، وسمير ابن عمك محمود هناك ، طيران !!

تركها راكضاً ، مقلداً حركة الطائرة ، يزن فووو حتى اختفى .

قالت ليلى : حقك علىَّ يا نينا ، أنا انتهزت فرصة الاحتفال بالشهداء فى المدرسة ، وناديت عليه فى الطابور ، أحسن ما نقول له أبوك مسافر ، قلت وسط العيال تمر المسألة ، ومرت والحمد لله .

قالت وديدة : ليلى يابنتى : أنا راضية بنصيبى والحمد لله . عمرى راح ، وربنا عوضنى بعلاء ، والدور والباقى عليك أنت ، مشوارك طويل، وربنا يقدرك وتشوفى علاء أحسن من أبيه .

دخل طه إلى الحرملك مفرود الجسم ، بطيئاً مثل جمل ، فوقف الجميع لتحيته . رأى وديدة تقبل رأس ليلى التى انحنت تقبل كفها .

قال مازحاً :

ـــ وصلوا أحبابك يا ستى ، لا لزوم لى الآن .

هلت عصارى المنتهى البديعة صيفاً وشتاءً ، والتفت نساء العائلة حول الشاى فوق السباط . قالت ليلى :

ـــ جيراننا ناس طيبين ، عندهم بنت خرجت من التعليم ، وقاعدة فى البيت ـــ كانت تلميذة عندى فى المدرسة ـــ وأهلها يشرفوا ، قلت يشوفها إسماعيل .

قالت وديدة : يدى على كتفك ، أنا تعبت ، نفسى يبقى له بيت ويتلَم ، ومراته تملأ الدار ، اتكلى على الله وحددى يوم نزورهم .

مالت قمر على أذن أمها :

ـــ سارح وراء بنت من البلد .

قالت وديدة : عيب اختشى ، كان لعب عيال ، وراح لحاله .

أشاحت بنورة بوجهها إلى اتجاه آخر :

ـــ المهم تكون بنت حلال ، حلوة ؟

ـــ قمر .. ليلة تمامه .

نظرت وديدة إلى الطابق الثانى حيث كان يسكن عبد الحكيم ،

وتذكرت أن الشقة معدة الآن لاستقبال العروس التى تـــأخر اختيارهـــا بسبب الحرب ، وآن الأوان الآن . قالت :

ـــ خير إن شاء الله ، والله وحشتنا كوثر .. على الله تلحق الفرح.

سكنت الريح ، ورحلت عن القرية مخلفةً هدوءاً ، وصمتاً، ولسعة برد محببة احتملها متولى كلاف العمدة ، رغم تقدمه فى العمـــر . شعـــر بنشاط يدب فى قدميه، فأقام ظهره بصعوبة ، واستنشق عبيراً حلواً رطباً . أراد اللحاق بصلاة طويلة قبل آذان الفجر، " لو أن الصحة تساعدنى مــا انقطعت الليل عـــن العبادة فى العشرة الأواخر من رمضان ."

القرية نصف غافية ، والمسحراتى لم يطرق صحوها بعد . مصابيح بعيدة تخايله ، أصوات محاشر ، وغناء خافت فى دار "أبو كحيلة" التى تعد لكعك العيد. لاحظ انعكاس صورة القمر المشطورة على صفحة النيـــل، فتطلع إلى السماء ، وبعث آهة راحة رغم إعياء السنين الطوال . استهلك أيامه فى عمل دائب ، لا ينقطع فى الدوار ، لم يكن الكلاف الوحيـــــد ، لكن الزرائب كلها تقع تحت مسئوليته ، تخصص فى جَـــدْل الأحبـــال ، وخرط الأوتاد ، بالإضافة إلى علف المواشى ، وحلبها . طويـــل القامـــة بشكل لافت للنظر ، إذ لا يضارعه فى الطول غير حنا ، وأولاده . تقوس ظهره من طول انحنائه ، يفتل التيل ، وهو يمسك أحد طرفيه فى فمـــه ، والطرف الآخر بين أصابع قدمه اليمنى ، حتى أن إصبعه الكبير انفرج عن

باقى الأصابع بشكل دائم ، و لم يعد يستطيع ضمه إليـــــها فى الأوقـــات العادية أبداً ؛ لكنه حين يهم بوضع الحبل فى هذه الفتحة تنغلق أصابعـــــه عليه فوراً . كثيراً ما ظن أنها ماتت أو تكلست ، إذ يفقد كل إحساســـه بها ، خاصةً فى الليالى الباردة ، وتفاجئه كتيبة من النمـــــل . تســـرى فى أطرافه، رغم خشونتها الشديدة ، فيفقد السيطرة عليها . لكن الصبـــاح يأتى بالعمل ، والقوة على إنجازه . لا يعرف من الدنيا غير هذا المكـــــان الذى ولد فى طرف منه ، وعاش فيه طوال حياته ، يراوغه أمل دائـــم أن ينهى كل التيل ، ويحوله إلى أحبال تصل إلى عنان الســـماء . يتحســـس بعينيه المجدول من التيل ، ولوف السعف ، بعشق وتقدير حقيقى لصاحب اليدين اللتين جدلتاه. وتهفو نفسه للأنواع التى لم يرها ، ويحتفظ بوصلات متنوعة، طلبها من أصحابها الذين يمرون فى النهر فوق المراكب، حـــاملين الفول من الصعيد، يعلقها فوق حائط الزريبة مثل كنز ثمين ، يتملى مـــن رؤيته وصحبته. يتعجب أبناؤه ــ الذين رفضوا العمل فى صنعته ــ مـــن الفوارق الدقيقة التى يراها ، ويصعب أن يلاحظها غيره، ومن حديثه عنها كأن الدنيا هى دنيا الأحبال والأوتاد .

انتبه لصوت أزيز باب انفتح بجواره ، ورأى بيومـــى المســـحراتى يحكم الكوفية الصوف حول رقبته ، ويسعل بصوت أجـــش ، فتبـــادلا التحية :

ــ مبكر اليوم على غير العادة ، والا ناوى تقابل ليلة القدر؟

ضحك متولى زامّاً شفتيه :

ــ ليلة القدر .. ياه ، فات يجرى وما شبعنا منه ، الأيام الحلوة .. كل سنة وانت طيب .

ــ عمرنا كله ما شبعنا منه ، ومحظوظ من تنفتح له طاقة.

ــ ليتها تأتى ، لكن كيف ؟ هي لأصحابها ، وليست لنا يـــاعم بيومى ، طول العمر أصلى العشاء متأخراً فى رمضان ، وأقرأ القرآن حتى آذان الفجر ، لكن ما صادفتها أبداً .

ــ أرزاق .. وكل ونصيبه .

انحنى بيومى مع الزقاق ، ودق فوق الطبلة ، وسمعه متولى ينادى :

اصحى يا نايم ، وحــد الدايم ، رمضـــان كــريم ،

يابت يا خضرا ، ياواد يا مســعد ، يافطـــوووم ،

يا راويـــة، يا قدرية ، اعملى مهلبـية للعـــــــيال.

استيقظت القرية فى كسل ، وردت على صيحاته بأنوار صغـــيرة تلألأت من وراء النوافذ ، سرعان ما استجاب الأطفال ، وسرحوا وراءه رغم البرد ..

أنصت متولى للصوت الذى يدغدغ حواسه ، رغم بحته التى زادت فى السنوات الأخيرة . توافقت خطواته مع الإيقاع الذى راح يخفت كلما ابتعد . تأمل السماء ، وهو يعيد فى ذهنه كلمات بيومى ، وقال :

ــ يا رب !!

ارتجف جسمه الخالى من الشحم واللحم إلا ما يستر الهيكل الجاف.

ماذا فى سماء الليلة ؟ صفاء ، ونجوم تلمع فوق العادة ، ما كل هذه الزينة !! سبحان الله ، سمعت أن السماء كانت تتزين لميلاد الأنبياء ، لكن زمن الأنبياء انتهى ، وهذا الفرح منصوب فيها ، هل هو للصالحين من العباد ؟ ماذا فى الليلة؟ وحشة يا رمضان حتى قبل أن ترحل ؟ أحس دبيباً فى دمى ، وخشوعاً كأن روحى تريد الإفلات من جسمى ، ما كل هذه الطمأنينة ، خيمة من أمان سابل علينا ، ليت السنة كلها تكون على هذا الحال، لا أحد يخالف الله، والجن والشياطين مسلسلة ، وصيام الشتاء سهل، طلع النهار ، خلص النهار ، والنفر منا لا يحس بالتعب لا فى صبح، ولا فى ظهر ، والروح تهفهف كأنها ما شقيت وما عرفت ألم الجسم الفانى .

تسلل إلى نفسه سؤال ضحك طويلاً بسببه دون أن تظهر أسنانه :

ـــ ماذا تطلب يا متولى إذا ظهرت لك الطاقة ؟

أجاب بسرعة : الستر !

توقف قليلاً ، وعاد يجادل نفسه :

ـــ ماذا سأطلب ؟ وماذا يحتاج مثلى الآن ؟ والعمر كاد أن ينتهى، والعيال كبرت، عمل من عمل ، وتعلم من تعلم ، وأمهم راضية والحمد لله، لا طلبات لى الآن، كان زمان أيام الشقاء ، كنت طلبت أن يتعلم واحد منهم ، تغير الحال. كل أولاد ابنتى فى المدارس ، وعيال

البلد بحالها ، ماذا أطلب الآن ؟

تصاعدت حمحمات صغيرة ، التحمت معاً ، كأنها حزمة من ضوء، نفخت فى جسده الواهن حرارة، وتهدج صوته، والدموع تهرب من عينيه ، وتضرعت كفاه إلى الله :

ـــ الستر يا رب !!

غشيت بصره ومضات سريعة ، أجبرت عينيه على الانغلاق ، لكن رموشه عادت ترف ، وهو يحدق فى المدى البعيد، يبحث عن الطارق. كان نور يسرع كأنه قادم نحو بؤبؤ عينيه، مرق فى سواد الليل، وتوهج فى لحة ، مفسحاً الطريق لطاقة كأنها مصباح ، والمصباح فى زجاجة، تعلقت مثل ثريا كبيرة أشعت فى الفضاء الواسع ضوءاً ربانيّاً، أنار السماء كلها ، صرخ :

ـــ يا رب العالمين ، أنا لا أحلم ، هذه طاقة القدر .

تسارعت دقات قلبه ، وهو يحشد ذهنه .. ماذا يطلب ، والسماء مفتوحة له :

ـــ الستر ، الستر يا رب !!

شفتاه ضارعتان لا تقويان على نطق الكلمات ، تصاعدت داخله همهمة خافتة ، لم يعرف إن كانت مسموعة ، أو محسوسة فحسب ، ثم انتابته شجاعة حفزته على النطق :

ـــ يا رب ، املأ لى المخزن بالأحبال ، والأوتاد !!

اختفى النور كما ظهر ، تاركاً مساحةً من التناغم بين الكائنات التي خشعت له .. وتركه وحيداً تائهاً ، غريباً ، كأنه لا أهل له غير هذا الذي عرف الآن ، وما عرفه في سنوات عمره الطويل . بحث عنه قدر ما تستطيع عيناه المتعبتان ، فلم يجد شيئاً . انهمرت الدموع مفسحةً لها طريقاً في أخاديد وجهه الغائرة حتى امتلأت ، وفاضت على البشرة الخشنة المتغضنة . ما زالت يداه ضارعتين تتوسلان ، وجسده يهتز من فرط الرهبة، وعقله راحل وراء النور في الأعالي حيث سدرة المنتهى ، ووجه الله .

ـــ يا رب ، أطعتك وجاهدت نفسي ، ما فعلت كبيرةً ، ولا حملت حقداً لأحد ، وأنت الوهاب، غمرتني بفيضك الكريم، قبس من نورك ، النور هنا في قلبي منذ ولدت . أكرمتني ، وأظهرته لي دون غيري.

ارتعشت قدماه ، و لم يحتمل جسمه هذه الرجفة ، و لم يشعر بهما وهما تسحبانه إلى الأرض في وسط الطريق ، كفاه ما زالتا ضارعتين ، عيناه لا تريان إلا النور ، صخب في قلبه ، منع عنه كل الضجة التي تصاعدت حوله ، تطوح يميناً ويساراً ، وهو راكع على ركبتيه مناجياً :

ـــ يا الله .. يا الله ..

اندفع ساجداً ، معفّراً رأسه في التراب ، وصوته المتهدج يئن :

ـــ أنا عبدك الضعيف . أكرمتني بنورك ..

انتبه للأصوات التي ظنها بعيدةً حين حملته الأيادي من فوق

الأرض، اكتشف ملامح الوجوه بصعوبة ، منصــور ، الفحــام ، أبــو كحيلة، وصابر ، وسعفان ، بكى فى صدر فرج أبو شعيشع قائلاً:

ـــ الطاقة ، الطاقة يا حاج فرج ، رأيتها .. هل ظهرت لكم ؟

غمغموا مبهوتين :

ـــ طاقة القدر يا متولى ، طاقة القدر يا ولد ؟ كبيرة يا متولى ؟

ـــ نعم ، ليتكم تروها ، اسألوا بيومى المسحراتى ، والعيــــال فى الشارع .

قال الفحام : شارع والا غيره ، الطاقة تظهر فى أى مكان.

حدق فى عيونهم مبهوراً ، وخرج صوته قادماً من بعيد :

ـــ النور .. يا الله .. النور فى السماء ، لا فى قلبى ، نزل وفتـــح قلبى .

قال أبو كحيلة مربتاً على كتفه : يا صلاة النبى ، والله نلتها يا أبو قلب طيب ، ماذا طلبت ؟

أنصت للسؤال كأنه لا يتوقعه ، كأنه ما طلب ، وأجاب ذاهلاً :

ـــ طار عقلى ، لم أصدق أن يتحقق حلم العمر فجأة ، وأنا بينى وبين القبر خطوة .

دفع عم خليل الرجال نحو الجامع قائلاً :

ـــ نكمل الكلام فى الداخل ، والكل متوضئ .

ركض مدحت بن منصور ـــ الذى جـــاء إلى الصلاة فى صحبـــة أبيه ـــ إلى بيوت القرية كلها ، حتى وصل إلى المســـحراتى الذى هلل ، ونقل الخبر إلى الباقين وهو يوقظهم مرتجلاً غناءه ، و لم يتوقف عن هـــذا الغناء بعد ذلك طوال حياته .

استعاد الرجال الكلمات التى سمعوها من متولى ، وسألوه نفـــس الأسـئلة ، وهم يخلعون النعال بجوار باب الجامع . لم يصـــبروا حـــتى يجلسوا فوق الحصير ، ويتحلقوا حوله . لم يساور أحدهم أدنى شـــك فى صحة كلماته، صدقوها على الفور، غمرتهم مشاعر محبة جميلـــة، وهـــم يلتحمون معاً ، ليجلـــس بقربه أكبر عدد من المصلين الذيـــن وصلـــوا متواترين، مسرعين ، على غير العادة بعد أن شاع الخبر .

ـــ ماذا طلبت ؟

نظر إلى صاحب السؤال ، ثم التفت إلى أبى كحيلة صديق العمر ، وقال :

ـــ ليس كثيراً على الله أن يحقق أملى . سألته أحبالاً وأوتاداً حتى السقف .

أطرق أبو كحيلة ثم قال : هذا من قلبـــك الأبيـــض ، ونيتـــك السليمة!

سألى سامى أبو مندور من بعيد ، بصوت عالٍ ساخر :

ـــ طلباتك كانت للعمدة ؟ وعيالك ياكلوا بعضهم ؟

تطلع نحوه بدهشة مردداً :

ـــ لحضرة العمدة ؟ طلباتى كانت لراحتى ، شئ يشيل الحِمل عن كتفى ، ويملأ الدنيا ، ويكفى البهائم. أنا كبرت ، والحِمل ثقيـــــل ، ولا ينتهى .

ضحك سامى أبو مندور حتى أثار سخط الجميع من حوله، فلكزه منصور فى جانبه ، وطلب منه أن يكف ، لكنه رفض :

ـــ إذا كان عند العمدة أحبال وأوتاد تكفى بلد بحالها ، تقعد أنت بجواره ؟ ها تطفح الكوتة، هاتطفح الكوتة ، حتى لو تحققت طلبـــاتك ، أين مكسبك أنت؟ والطاقة ظهرت لك !!

قال فرج أبو شعيشع : كسب صلاة النبى .. كسب النور!

رد متولى : رب العالمين اصطفانى .. اصطفانى ..

صعد المؤذن إلى المئذنة ينادى لصلاة الفجر . بعد قليــــــل دخـــل الشيخ طه المصيلحى متوكئاً على عصاه ، قاموا وراءه فى صفوف متراصة دون أن يفتح أحدهم الموضوع ، وأقاموا الصلاة حتى انتهوا ، نادى طـــه على متولى الذى جاء مسرعاً إليه وقال له :

ـــ أنت تستاهل كل الخير ، وربنا يكرمنا جميعاً !!

وأردف ضاحكاً :

ـــ طيب كنت اطلب الحج .. ما حدث قد حدث ، وربنا يجعل أيامنا كلها أعياد ..

قام ، والرجال معه ، كاد الشبان أن يسألوا العمدة الدخول إلى المخزن لمعرفة إن كانت المعجزة قد حدثت أم لا .. وحين شعر طه بقلقلتهم خلفه ، التفت نحوهم وقال :

ـ كل شئ له أوان ، فى الصباح رباح .

لم تنم القرية باقى الليل . سهروا يستعيدون القصة ، حتى حل موعد الحلابة، ودخل متولى إلى الزريبة قاطعاً الصفوف التى تجمعت بباب الدوار الخلفى الذى يفضى إلى المخازن والإسطبلات. رجال ، ونساء، وأطفال ، أرادوا المشاركة ، منعهم الخفر من الدخول ، وهم يتحرقون شوقاً أن يسبقوا متولى، أو على الأقل يصحبونه ، وهو يفتح الباب .

شد متولى سقاطة الباب ، وسمع صوته المعتاد زىىى زاااا ثم سقط مغشياً عليه ، حين رأى أكوام الأحبال ، والأوتاد ، مرصوصة فى ركن المخزن، متساوية، ناعمة ، خُرطت بيد ما رأى مهارتها من قبل . وأفاق على صوت زغاريد النساء التى جلجلت فى سماء المنتهى . ولم يفهم حتى مات بعد سنوات عديدة ، وبعد أن اجتاحت تربية الدواجن البيضاء أرض المنتهى ، لماذا غضب أولاده من أمنيته ، وماذا كانوا يريدون له أن يفعل ؟

لم تقطع المنتهى أبداً فى أى زمن حدثت هذه الحكاية ؟ وهل هى لمتولى كلاف طه ، أم لأبيه حسن كلاف الحاج عبد القادر . وقيل أن

العمدة عاش سنوات طويلة يزرع التيل على "بتون" [1] حدود القطن، ثم يعطيه لمن يحتاجه بعد أن اكتفى بما رزق الله كلافه ، ولم يكن مستساغاً فى هذا الزمن بيع التيل ، أو الاتجار فيه .

الغريب أن أطفال دوار المصيلحى كانوا يسألون طه عمدة المنتهى السابق فى شيخوخته عن صحة هذا الحادث ، فكان يطلق ضحكةً طويلةً، ولا يجيب !!

---

[1]) البتون: الحد الفاصل فى الأرض بين الجيران .

الشمس غابت فى عز الظهر .

ـــ يا لطيف .. يا لطيف !!

صاح الأطفال الذين لم يعودوا حفاة ، ووراءهم كلاب الناحيـــة تنبح . طرقوا قعور الصفائح ، ودقوا الطبول الصغيرة ، ارتفعت حناجرهم بضحكات صافية ، وجاوروا النهر ، ينادونها ، كمــا ينــادون القمــر المخنوق بالسحب ليفكوا أسره . لم يكن شتاءً، أو ربيعاً ، ذلك الـــذى أغرى مصباح الدنيا المتوهج أن يطفئ نيرانه، ويصيـــب سمـــاء المنتـــهى بالعتمة، بل غيمة كبيرة ، جاءت فى وضح النهار ، ووقفـــت تســتحم بالأشعة ، وتحترق. ازداد صياح الأطفال:

ـــ يا لطيف ، يا لطيف ..

الغيمة جاثمة فى المدى ، تحفر أنفاقاً فى الشمس ، وتنثر بقعاً سوداء فى السماء. وقف الناس فى الشرفات ، صرّت أسنانهم واصطكت ، تسلل إلى عظامهم نقر أشبه بنخر البرد، وتلطعت فوق جلودهم لزوجـــة مـــا عهدوها أبداً. قالت وديدة الغارقة فى صفاء شيخوختها :

ـــ الدنيا كتمة ، فى الفضاء خنقة ، ما عهدناها حتى يوم سكرت

الحيوانات، يوم حادث أبو مندور ، كتمة تقبض القلب ، وتعصره ، يـــا فتاح يا عليم .

سكنهم ملل ووحشة المستنقعات ، ورطوبة أبيب ومسرى الـــتى تطقطق الأبواب ، لكن حوائط الدور ما تندَّت . زار المنتهى كائن مـــن غبار أصفر ناعم، تلطع فوق النباتات الخضراء ، حتى كساها ، واعتلــــى الأثاث وحواف النوافذ . طالت أيامه ، حتى امتزجت بعناصر الســـهل ، وما نجا منها النهر الذى هدأ لطول ما كسروا أياديه بأطنان من الخرسانة، وسجنوا حريته ، فاختنقت أوردته ، وســـكنتها الطحـــالب الزرقـــاء . خرجت الثعالب من جحورها ، وأطلت زواحف الليل ، وشوهدت أفاع تتنسم عبير الصباح دون خوف. علا فحيحها ، بلا اعتذار ، وتحركـــت تتلوى، حتى نفذت من تحت عتبات الدور برعونة، فخيل لأهل المنتـــهى أنها جُنت ، لكن وديدة قالت :

ـــ لم أر فى حياتى فجوراً أكثر من هذا .. !

اعتصم الناس بالبيوت ، شهوراً استهلكوها فى أحاديث فارغـــة ، وأمل لم يدفعوا ثمنه فى أن تنزاح عنهم الغُمة . سدوا شبابيكهم بأقمشـــة مبللة، تمتص التراب ، وانشغلت النســـاء طوال نهارهن بإزاحة ما عبر منه إلى ممرات البيت، وسكن شرايينه ، دون جدوى ، حتى وصل إلى العيون، فالتهبت، وانتفخت ، وســـالت الأنوف ، وتجرحت حوافها . تكـــاثف ضباب باهت، فما عادوا يتعرفون على بعضهم إلا من خلال الصوت، أو اللمـــس. تخبطوا ، وهم يتنقلون من حجرة إلى حجرة . زقزق فى كـــوة الصدر حنين إلى شمس وهاجة ، مصقولة بذخائر الوضــــوح. أصـــاخوا

الســـمع لأصوات ارتطام طيور بالنوافذ ، لكنهم ما تحركوا، قالوا ضلت الطيور طريقها فى الظلام. استحلفهم الصغار أن يفتحوا لها طاقـــةً حـــتى تدخل، ويلهوا بها، أو يســـمحوا لهم بالخروج لاصطيادها، لكن الآبـــاء رفضوا خـــوفاً أن يبتلعهم المدى الأصفر. زادت الأصوات حتى تخلقـــت استغاثة، خيل إليهم أنها بشرية . مسحوا فى الزجاج دوائر أطلوا منـــها ، كشفوا قناديل صغيرة من النور، كأنها قادمة من بطارية ضعيفة . شبه لهم أنهم يعرفون هذه الوجوه التى تنقر الزجاج بحدة، وهـــذه العيـــون الـــتى تحـــدق ، فتخلع من القلب شرايينه . تذكروا ببطء أين رأوا هذه الملامح التى وشمت فى الفؤاد صورة لعصافير خضراء ، زارتهم مـــرةً، وطالبتـــهم بالثأر مرةً ، وبالصحو مرةً ، وبتطهير الأرض مـــرةً ومـــرةً . بكـــت العصافير التى اســـود لونها ، وجف جسمها، وشـــاخت من هول مـــا رأت عبر الأزمان والأسفار . (اغرورقت) بدموع من دم ، رشحت فوق الطرقات ، قطرةً قطرة ، تعفنت لحظة خروجها من الأجساد التى تموت .

بحثت الأمهات فى عيون العصافير عن أولادهن ، حتى وجدت كل أم فتاها. وفتشت وديدة عن عبد الحكيم أخى زوجها ، وعبد الحميد ابنها . هالها أن تكون كل العيون هى عيونهما ، كلما تعمقت فى النظر إليها ، ما عرفت من منهم الذى يبادلها النظر فى هذه اللحظة . عيون تنبض بروح أحدهما ، ثم تعـــود وتنبض بروح الآخر .

يا الله !!

سمعت بكاء أم مندور على شهيدها ، ونداء هاشم على أمه الـــتى

حلت من زمن . أرادت أن تطولهم ، وأن يتســـــلقوا كتفيــها كمـــا انتادت كل الطيور . مدت يدها ، وسط أيادى الفلاحين الثكلى : أرامل الشهداء وأمهاتهم ، أبنائهم وأبناء عمومتهم .. كل البيوت .

سألوهم غير مصدقين ، والخوف يلجم ألسنتهم ، يرســـم قوســـاً الطرقات ، والطرقات بياض الماضى ، والنسيان يـــستراح مـــن تجـــاويف السنوات ، وكهوفها :

ـــ لماذا تغيرتم هكذا ؟

شرقت العصافير ، وهى تشهق بآخر أنفاس الحياة ، وتسقط محترقاً ريشها الناعم :

ـــ ليتكم ما سألتم . كانت اللآلئ الحارقة تعمى العيون أيام كان عبد الحكيم يحارب الإنجليز ، احتلت الآن قلوبكم ، وختمتها بـــالصمت فنسيتمونا .. وقبلتم ما لا يقبله كائن . فى الجـــو رائحـــة غـــدر ... ألا تبصرون ؟ هفت نفوسنا للمســـة، رغم الجحود والظلم ، وتخثر الحزن فى أيام الفواجع ، تقدموا ، ساعدونا على العودة .

همَّ الناس بفتح الأبواب ، دون خوف من الغبار ، للأبناء الذيـــن رحلوا فى حروب كثيرة ، لم يـــهتموا أن يحصوهـــا . وقعـــت ملايـــين العصافير، التى كانت خضراء يوماً ، تجوب الفضاء ، جففها النســـيان ، تمزقت أمام العيون مرات ، ومرات . والأهل لا يستطيعون الاقتراب خوفاً أن تتفتت الأجساد الهشة ، رغم النظرة التى رشقت الأفئدة بلهيب مـــن الذكرى ، أيقظت فى عقولهم صوراً لأيام حلوة ، لم يستطيعوا طمســـها.

قرر الفلاحون ـــ الذين تأكدوا أن العصافير الخضـــراء فانية لا محالة ـــ أن يستضيـــفوا مـــوتاهم ، وأن يهبوهم نعيم الاستقرار. رأوا الأجســـاد تتبخر، وهى تنفث رائحة عظام متفحمة ، وباروداً . حملتها الريح حـــتى غابت فى الأفق البعيد ، وما عاد هناك أثر للحريق .

نسى الناس إصفرار الهواء وترابه . خرجوا يتحدثون غير متيقنـــين إن كان قد حدث فعلاً ، أم إنه وهم من تفسخات العزلة؟ شغلتـــهم ـــ بعد أيام ـــ عنجهية قوافل عابرة للصحارى ، والمحيطات ، جـــاءت إلى السوق ببضائع لامعة ، تبرق بألوان فوسفورية ، وألعاب نارية ، تزيـــن الليل الطويل . واكتشفوا أن فى البلدة نوافذ ألومينيوم ، وحمامـــات مـــن السيراميك الإسبانى ، وأوعيـــة طعـــام ، وزجاجـــات مـــن البللـــور ، والكريستال ، لم يتعاملوا معها أبداً ، رغم أنهم يشاهدونها " تتلعبط " كل يوم على الشاشـــة الفضية. شغلهم البريق ، حتى أنهم ما عادوا يختنقـــون برائحة التراب الأصـــفر، فرحوا معها ، ولم يلاحظوا أن الطيور ، كـــل الطيـــور، ما عادت تحط فى قريتهم .

بعد سنوات طويلة ما عرفوا كيف يحصونها ، تنبه واحـــد إلى أن صـــور الشهداء ما عادت معلقةً فوق حوائط الدور. فلما سأل ، قالوا له أن غريباً مـــرَّ بالقرية ، بثياب فاخرة ، وسيارة فارهة ، وغليون ينفـــث لهباً أزرق ، أخبرهم ـــ وسط السرادق الكبير الذى أقـــاموه فى الجـــرن القديم ـــ أنه جاء ليعيد طلاء البراويز بماء الذهب ، وأنه منـــدوب مـــن جـــهات عليا أمرته بأن يخلد الأبطال إلى الأبد . لم تنم القرية ليلتـــها ،

فتشوا صناديق العرس الخشبية المطعمة بالعاج والصدف ، والصناديق المشغولة بالنحاس ، والصناديق التي وقعت مفصلاتها ، وفي الكودية[1]، في حوائط الدور الواطئة . أخرجوا صوراً قديمةً باهتةً لجنود ما تجاوزوا السابعة عشرة بكثير، شعورهم مجعدة ، خدودهم غائرة ، في عيونهم شرر من رغبة في الحياة، ما تبددت بفعل السنين، بعضها معبق برائحة المسك والعنبر ، وأخرى لها رائحة الورد والياسمين ، وأغلبها تفوح منه رائحة الحلبة . تفاخروا وحكوا قصص البطولة ، وتباروا في تعداد ما قدموه من شباب.

مرت سنوات ، وما عادت الصور إلى خزائنها ، ولفائفها في القيعان المظلمة .

اعترض صوت آخر على القصة ، قال :

ـــ لا .. هي موجودة أمامكم ، لكنكم لا تنظرونها . لقد أعادها الرجل بأُطُر مذهبة ، عمت البصر بأشعتها الحارقة ، فلم يعد واحد يستطيع أن يشاهدها، أو أن يقترب منها ، فنسيتموها!!

[1]) الكودية : دولاب صغير في الحائط .

أنهيت الدراسة ، وعينت رئيساً لشعبة عمليات الجيش الثـــالث ، وهى فترة من أفضل فترات حياتى .. علاقة طيبة بالضبــاط ، وبرئيــس الجيش الثالث الذى أعطانى فرصةً للانطلاق . كان أكثر ما يشغلـــنى فى هذه الفترة أن خططنا تقليدية . شغفت بإعادة النظر فيهــا، وتغييرهــــا وفقاً لتصوراتى . وكنت أعرض رأيى، وأتوقع الرفض أكثر من القبـــول، لكن ما حدث أن رأيى قُبِل بنســـبة ثمانين بالمائة . وذهب الســـادات إلى إسرائيل فى مبادرته الشهيرة ، وانقلب الجيـــش إلى مناقشـــات حـــادة . فجرت الزيارة وتوابعها كل ما عرفناه ودرسناه عن العلاقة بإســـرائيل . أبديت امتعاضى منها ، وناقشت وزملائى أبعادها ، وشرحت مساوئها ، حتى عاد رئيس الجيش الثالث من الحج ، ففتحنا معه الحوار، ولاحظـــت أنه يبدى قبولاً لها. كنت أعرف أن الفرق كبير بين الشعور ، والتعـــامل بحكم المنصب . وبدأنا الاستعداد لزيارة أنور السادات فى يونيـــو ١٩٧٨ للاجتماع بالضباط . طلب القائد من مساعده ومن رئيس الأركان ومنى تجهيز مسودة للكلمة التى سيلقيها أمام الرئيس .. كتب مســاعده كلمة وافية ، وكتب رئيس الأركان نصف كلمـــة ، ولم أســـتطع الكتابـــة .

استدعانى إلى مكتبه، وسألنى :

ـــ لماذا لم تكتب ؟

ـــ لم أستطع .

ضحك ، ووقف فاتحاً ذراعيه للزميلين الواقفين فى الغرفة :

ـــ سنخرج نحن الثلاثة ، ونترك لك مكتبى .

لم أستطع الرفض . أمسكت بالقلم ، وأنا أفكر فى التناقض بين ما أريده ويريده الضباط ، وبين الممكن . فى النهاية ، كتبت صفحةً ونصفاً قلت فيها باختصار أن الجيش يرحب بالقائد الأعلى، وأننا نفهم الزيـــارة على أنها تأكيد لمهمتنا فى استعادة الأرض التى سلبتها إسرائيل فى يونيـــو، وتأمين الملاحة فى قناة السويس بعد إعادة افتتاحها. وسلمت الورقـــة إلى القائد ، وانتظرت تعليقه . شعرت من ملامحه بإعجابه بها ، لكنه سألنى :

ـــ أليست جافة ؟ الحقيقة أنها جافة جداً ..

مد يده نحوى بالورقة :

ـــ خذها ، خففها ، استعن بما كتبه مساعدى .

أمسكت بالورقة ، ثم أعدتها إليه معتذراً :

ـــ آسف يا افندم ، كتبت ما أستطيع ..

مرت الزيارة ، واستمرت انتقاداتى للمبادرة بكل صراحـــة مـــع زملائى ، ولاحظت أن الضباط الذين يؤيدوننى يصمتـــون حـــين يبـــدأ

النقاش، أما من يجادل فكان على الأقل لديه الاستعداد لقبولها.

نُقلت لقيادة فرقة فى الجيش الثانى . عموماً أنا أميل لعمل القيـادة أكثر من رئاسة العمليات . ذهبت وأنا أسأل نفسى : ما هو هدفك ؟ وبعد تفكير لم يطل قررت أن تكون الفرقة جاهزةً لتنفيذ المهام التى تكلف بها فى الحرب ، بكفاءة وشرف ، لأن النصر أو الهزيمة أكبر من مسئولية فرقة ، وهذا ما أبلغته لزملائى الضباط .

فوجئت بنقل استعراض أكتوبر العسكرى إلى أرض الجيش الثانى بدلاً من طريق النصر فى القاهرة ، فور توقيع اتفاقية كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨ . وطلبَ منى الحضور مع ضباط الفرقة فى الاستعراض . شعرت بثقل المهمة ، واستكثرت على نفسى الاشتراك فى استعراض هذه هى روحه العامة . كما أننى لا أحب الاستعراضات ، ولى معها تاريخ بالرفض منذ وجودى فى مدرسة المشاة بعد التخرج .

فتح درج المكتب ، وأخرج سلسلة مفاتيح من الذهب الخالص ، وعلباً قطيفة تحوى أزراراً من الذهب والأحجار الكريمة، وبعض المشابك الذهبية لأربطة العنق، وسلسلةً محفور فوق دلايتها اسمه ، وعلى وجهها الثانى آية الكرسى ، وغليون وساعة ثمينة ، يحدد الماس فيها بدء النهار ومنتصفه ، وعدداً من أشهر ماركات النظارات . قام إلى الدولاب الصغير المتروى فى ركن الغرفة وفتحه، ومرر أصابعه فوق القمصان الحريرية والقطنية الفاخرة ، وهز رأسه قائلاً بصوت عال :

ـــ لا يحب الاستعراض ؟ ما كل هذا ؟ وكيف يحرص شخص

واحد على كل هذه الأناقة والرفاهية ، ويعيش خشونة الحياة بهذه الطريقة التي أقرؤها ؟ يا الله، من أنا ؟ من أنا ؟

ـــ تقول أن الصحراء علمتك الصبر ، أين هذا الصبر ؟

حاول أن تتذكر ما حدث فى استعراض ١٩٥٥ . وكما حدث وصالحت المتناقضات السابقة ، ستصالح هذه .

جلس فوق كرسى "فوتى" أمام المكتب . وأطفأ الأنوار ، إلا ضوءاً خافتاً..

عينت ضمن قوة الاستعراض ، فذهبت إلى قائد الجناح وقلت له :

ـــ أنا جديد فى المدرسة والجناح ، ولا أميل إلى الاستعراض، فأرجو إعفائى منه !!

رد بغضب : "باظ" الجيش ، هل أصبح العمل على الكيف؟ نفذ الأمر !!

تأزمت العلاقة معه . وفى أحد الأيام ، وصلنا متأخرين إلى الكلية، فسألنى عن السبب ، فأخبرته أن السيارة تأخرت . لكن ردى لم يعجبه ، فأرسل خطاباً سرياً يسألنى رسمياً عن أسباب التأخير . انتابتنى حالة شقاوة ، بروق من السخرية داعبت عروقى، فأجبت بأن دفتر البوابة يشير إلى الثامنة إلا خمس دقائق ، ونوبة الضباط تبدأ فى الثامنة إلا عشر، ولا أعرف كيف أكون موجوداً قبل هذا الموعد فى مكانين ؟ حولنى إلى مجلس تحقيق انتهى إلى لا شئ .

ابتسم ، وقام فأشعل الضوء ، وسأل : ماذا أنا فاعل فى هذا الاستعراض بعد ثلاث وعشرين سنة ، وماذا كتبت ؟

مرض ألزمنى الفراش أسبوعاً كاملاً ، وسألت نفسى إن كان المرض الذى جاء فى وقته هو مرض عضوى بالفعل ؟ أم أن جسمى رفض الاشتراك والزحزحة عما أجبرت الظروف والواجبات عقلى على قبوله؟

لم أناقش الأمر كثيراً ، وحمدت الله على حدوثه ، لكنه ذكرنى بأحداث مرضى فى عام ١٩٧٢ ، والشهور الأربعة التى قضيتها فى مستشفى المعادى ، أعانى من آلام لا يعرفها الأطباء . عاد الإحباط يعتصرنى، فأقاوم ، وتصمد الروح ، لكن إلى متى ؟!

أمسك الدفتر ، ودق فوق خشب المكتب مرات وهو يتلوى ، كم مرة يا جسدى رفضت الانصياع لى؟ ربيتك ودربتك بدأب ، وصبر : فروسية وتدريبات لياقة عنيفة ، و"اسكواش راكت" ، وصيد ورماية . ماحاجة الضابط لأكثر مما فعلت ؟ هل ضغطت عليك بإرادتى حتى وقعت ؟ أم أن الحادث لم يكن صدفة؟

عدت إلى العمل . لم تخل الأحداث من مضايقات ، حتى لو كانت بعيدةً عنى ، لابد أن يمتد تأثيرها . كنت أشبه كائناً ماصاً ، أعصابه مستعدة فى كل لحظة للالتقاط عن بعد ، ويكفى أن يأتى إلينا بيان بتقييد الدفاع الجوى، بسبب زيارة رئيس وزراء إسرائيل ، حتى ينقلب مزاجى .

تبنت صافى زوجتى الدعاية للمبادرة . ناقشتها طويلاً بهدوء، دون جدوى . شعرت أنها تتلذذ بإيلامى أكثر مما تتحمس للسلام المزعوم ، وتسعد لمجرد الاختلاف معى فى الرأى . ثار قديم بينها وبين عملى فى الجيش. تعجبت لتمسكها الشديد بعودتى إلى القاهرة ، بل والتلويح بالتقاعد ، رغم أنها لا تحتمل وجودى فى العطلات القصيرة التى أعود فيها، وتتشاجر معى لأتفه الأسباب. رتبت أجازتى حتى ألحق بعيد ميلاد سمير، لكننى تعطلت عن الخروج فى الصباح المبكر لأشغال طارئة ؛ فقد كُلفت بتعيين حرس شرف فصيلة لتأدية التحية لرئيس الجمهورية أثناء مرور مركبه من بورسعيد ، وعبوره القناة . عينت قوةً من ثلاثين جنديًا وأعطيتهم التعليمات . فى الواقع لم أشرف عليها بنفسى وانتظرت الخبر بالتليفون .

مر الرئيس أمام القطاع ، وأُديت له التحية .

ركبت السيارة إلى القاهرة فور انتهاء المهمة . قطعت الطريق بسرعة مكنتنى من الوصول بصعوبة إلى البيت فى وقت مناسب . انشغلت طوال سفرى بالتفكير فى تربية ابنى الوحيد الذى أخاف عليه من تدليل صافى . جاء بعد سنوات من الحرمان، والعناية الإلهية وحدها كفيلة بإنقاذه من اهتمامها المفرط . هو طفل ذو معدن نقى على أية حال ، غداً ينمو ويفلت ..

أشاعت الأنوار الملونة التى اعتلت الفيلا الصغيرة الفرح فى نفسى ، وتوقعت رد فعل سمير لوصولى بعد انتظار . ناديته من وسط " زيطة " الأصحاب فجاء مهرولاً إلى حضنى . علقت صافى على تأخرى

بقسَم أن تذبح خروفاً يوم خروجي من الجيش ، فلم أعلق ، وانشغلت بتحية الضيوف ، وإطلاق أكبر ضجة ممكنة لإعلان بلوغ سمير العاشرة ، ثم وقعت فى مصيدة رسمتها صافى لمناقشة الأوضاع على الجبهة وظروف السلام وإمكانياته . التف الكبار فى حلقة تاركين للصغار الاستمتاع بالحياة . حاولت الإفلات دون جدوى ، استهلكنى الشرح ، وتكاثفت الكلمات فى سحابة قاتمة عبرت سماء الحفل ، مفرداتها التعب، وعدد الشهداء، وقدرة أمريكا وضعفنا ، وابتعاد الروس ، وحلم السلام . قلت حاسماً الموقف :

ــ نعم سيتوقفون عن الحرب معنا مؤقتاً ، وسيأخذون أراضى الدول العربية المحيطة قطعةً قطعةً ، مرةً بسبب الإطلال على البحر ، ومرةً بسبب المياه العذبة والأنهار ، ثم يعودون إلينا بعد أن يكونوا قد زرعوا الفتنة لتصبح مصر أرضاً صالحةً للسقوط .

فاجأنى اندفاع صافى وصراخها :

ــ تعبنا . نريد الحياة فى هدوء مثل خلق الله . دفعنا الثمن طوال العمر . ابق بيننا الآن ، اختر مكاناً فى القاهرة ، ويكفى ما عشته فى الجبهة سنوات الحرب.

قلت بهدوء ، محاولاً امتصاص الغضب :

ــ مكانى هناك ، والحرب قادمة . إذا لم أدفع ثمنها اليوم أو غداً؛ فسيدفع ابنى ثمنها . ومن يعرف كيف ستكون ظروفه ؟ بل إننى أكاد أستبصر ظروفه منذ الآن .

انتهى الحفل بوجوم بدا أبدياً ، انطبع على وجه صافى ، فالتزمت الصمت طوال أجازتى . عدت إلى عملى ، وانشـــغلت به، حتى جاءت اللحظة التى صبغت حياتى ببصمة أبدية لا مفر منها. لم يكن هذا اليـــوم ينبئ بأى شئ ، تكرار لأيام كثيرة مشحونة بالعمل ، والتدريب . الماء فى القناة منساب بهدوء وميوعة الأشياء المصنوعة التى لا لون لها ، رغم أنهـــا ربيبة الآلام ، والفجيعة . تختزن على ضفتيها عرق الدم الممتـــد عـــبر الزمان من الوادى إلى الصحراء مجاهراً بالرغبة فى الحيـــاة . اســـتيقاظ عادى فى الصباح الباكر ، وإجراءات نمطية حـــتى العصـــر ، اتصـــل بى مندوب العمليات ، وأبلغنى بإشارة :

اليوم ٢٨ مايو ١٩٧٩ .

تُعين قوة لتأدية التحية لعدد ثلاث ناقلات جنود إسرائيلية تعبر قناة السويس من الجنوب إلى الشمال .

انتفضت ، فز الغضب من كيانى فلم أعلق . لا أعرف إن كنـــت قد استرجعت حياتى العسكرية كلها ، أم تجمدت الحياة العســـكرية فى الكلمات . قلت بهدوء :

نأسف لعدم تنفيذ هذا الأمر

أدرت ظهرى للموقف كأنه ما كان إلى أن يتـــم اســـتدعائى إلى تحقيق رسمى. لكن ذلك لم يحدث ، وانشغلت بالعمل متعلقاً بالأفق البعيد الذى أمتلكه ، ولا يمتلكنى ، بالتحديق فى وجه المستقبل بثقة .

قابلت رئيس أركان الجيش بعد يومين مصادفةً ، وسألته

ـــ ما هي حكاية الإشارة التي أرسلتموها لي ؟

قال مازحاً :

ـــ ماذا أفعل لك ؟ إذا كان الرئيس السادات في جزيرة الفرســان قد أدى لهم التحية مرتدياً ملابس البحرية!

لم أعلق .

سرت الإشارة والرد عليها مع إيماءات الصحراء ، وعبرت وديانها وسفوحها ، وجبالها الصغيرة شمالا ، وعادت إلى الســرايا في الجنــوب ، وتسربت مع الحنين إلى الرجال ، ولم أدر كيف تضخمت حين عادت لي فلم أتعرف عليها .

.. ..

.. ..

.. ..

قال الفلاحون حول طبالي العشاء إن محمود المصيلحي جاءه أمــر عسكري بأن يحمي سفن إسرائيل التي تمر ـــ للمرة الأولى ـــ في القناة ، فوقف مثل أسد جسور أمام رؤسائه ، وقال لهم نحن هنا للدفاع عن مصر ضد الأعداء ، وليس لحماية الأعداء. وسألت كحيلة ابنها عبـــد المنعــم المتطوع في الجيش .

ـــ سيناء : فيها كم عدو ياعبده ؟

فلم يستطع الشاب الذى لم يستكمل ربع قرن من الزمان أن يكمل طعامه، وترك صحن "المقصوصة" [1] التى صنعتها أمه خصيصاً لعودته ، وقام خارجاً من الدار وسط ذهول أخوته المتحلقين حوله ، فرحين بعودته من الجبهة .

وقالت كحيلة ، تعليقاً على فساد اللمة التى تحلم بها كل شهر ، وقشعريرة تسرى فى بدنها ، دون أن تستطيع إبعاد النظرة الغريبة التى تسمرت فى حدقة ابنها، والتى علقت بوجهها وملابسها طويلاً ، بل أقلقتها فى منامها أيضاً :

ـــ والله ما أنا فاهمة حاجة ؟ الناس فرحانة وتحكى وابنى غاضب . كان لازم ياربى سيرة محمود وغير محمود ؟ فى فرحهم زعلانين وحزنهم زعلانين ؟!

قال ابنها حنفى :

ـــ هل صحيح يا أمى أنت أرضعتيه ؟

قالت : لا . أمى ونسوان البلد بحالها ، أصله ياعين أمه كان يرضع كل يوم من واحدة .

.. ..

.. ..

.. ..

---

[1]) المقصوصة : معجنات تشبه المكرونة .

قلب محمود الأوراق المكتوبة بين يديه . لم يجد فى الدفتر غير أوراق قليلة العدد ، باقية من مذكراته .

كم أشعر بحاجة إلى طعام شهى ، ودفء أمى ، التى تتسرب إلى المكان مثل نسمة صيف هادئة ، وتعده بنفسها ، كأنها ما فارقتنى طوال رحلة الحياة ثانيةً واحدةً ، فى الخيمة ، والمعسكر ، وغرفة مكتبى فى القاهرة، وعاشت الحرب معى أيضاً. أريد أن أقبل يدها ، وأقول لها أنها استردتنى، حتى هذه الأوراق ، لم أعد فى حاجة إليها الآن ، فأنا أعرفها جميعاً ، ويجب أن أعطى لنفسى فرصةً حقيقيةً لاتخاذ قرارات إعادة الانخراط فى الحياة ، ويكفى ما ضاع .

تك .. تك .. تك ... دخلت وديدة ، مرتاحة القسمات، كعهدها دائماً، خفيضة الصوت باسمة . دمعت عيناه ، ووقف هاشاً لها ، وانحنى يقبل كفها ، وهى تقول :

ـــ جئت أسألك إن كنت تقبل الانضمام إلينا فى العشاء ، العائلة كلها موجودة .

قال ، وما زالت رأسه مدفونةً فى صدرها ، محنيةً لتتلقى قبلتها :

ـــ أأمرينى .

كأن الذى بنى الدوار كان يعرف أنه لا يبنى بيتاً فحسب ، لكنه يبنى شيئاً أشبه بمرسى للقوارب ، يعمل حوله عمال دائمون وآخرون مؤقتون ، وتأتيه بواخر تفرغ شحنتها وترحل ، وقد يتبقى فى الميناء نفر ، أو اثنان يستهويهما المكان أياماً أو شهوراً، ويمتد البقاء ببعضهم حتى يصعب عليه الرحيل . تراهم فى شرفات الدوار : مطلقات وأرامل ، عاطلون بالوراثة فقدوا ثرواقم، يحطون كلما ضاق بهم الحال، يطلقون أبصارهم إلى المدى، يبحثون عن أيام هاربة، ناسين أنهم هم الذين فروا منها إلى السكون . والدوار يزدحم أياماً ، ويعانى الملل والفراغ أياماً أخرى كثيرة . وقد حدث أن توالى وصول أفراد من العائلة فى أسبوع واحد كأنهم على موعد للعودة ، وبدا الدوار كأنه استعاد زمن الضجيج الماضى. دبت فيه العافية ، ونشط الحرملك مثل خلية نحل فى موسم جمع الرحيق ، واشتعلت أفرانه وكوانينه طوال اليوم، وعادت وديدة تدب فى كل مكان فى نفس اللحظة، اكتسبت قوتها من تدفق العائلة ، واحتياجاتها للخدمة.

جاءت بيللا ابنة حيدر بعد أن أنهت دراستها ، وفتحت الجناح

الذى عاشت فيه مع أبيها ، وزوجته كريمان وابنهما حكم، قبل إصرار كريمان على التروح إلى القاهرة حيث توفى حيدر . راحت ترممه بدأب النملة التى لا تكل، رغم اعتلال صحتها بسبب وراثتها لمرض فى القلب من أمها التى رحلت يوم ولادتها. بعثت فى أرجاء الدوار ذكرى عطرة لإقبال الشفافة ، التى كسبت حب العائلة كلها ، رغم الزمن القصير الذى عاشته بينهم .

وجاءت نعيمة ، التى تلاعب بها دوار أبيها ، كما يتلاعب طفل بعصفور صغير مربوط من قدمه ، يطلقه للطيران ، ثم يجذب الخيط ، ويعيده إلى كفه . عادت إلى المكان الذى حطت فيه ورحلت مرات ثلاث، قبل أن تقرر العودة النهائية إليه . إذ تزوجت نعيمة فى الثالثة عشرة، وكانت جميلةً هذا الجمال الشركسى المصرى الذى يلفت نظر الرجال الذين يحملون ملامح تعتمد على سمار البشرة والشعر المجعد ، فاختارت من بين خطابها عطية سيد أحمد ابن صديق والدها الحميم . وما كادت تبتعد خطوات بالتختروان عن دوار أبيها حتى اخترقت صدر العريس رصاصة ، وقلبت الفرح ، الذى تحدثت المنتهى بذخه ، إلى غم أرخت به القرية أيامها . عادت عذراء إلى دوار أبيها ، وعاشت تلوم نفسها على أنها جلبت النحس ، حين فكت " التحويطة " التى قدمها لها الشيخ، ليلة زفافها . ثم تزوجت بعد سنتين ، من إبراهيم مسعود عمدة قرية الهور ، أرمل أربعينى ، وله ثمانية من الأولاد ، أعجبتها شطارة ابنته الكبرى وديدة فزوجتها لأخيها طه المصيلحى . كان حمل نعيمة عزيزاً ، فلم تنجب غير حلمى، بعد سنوات طويلة من زواجها ، ومات

عنها زوجها ، وطفلها لم يبلغ العاشرة . ولم يمر وقت طويل حتى نشبت المعارك بينها وبين أبناء زوجها على الميراث ، ونصيب حلمى، فحملته ، وعـــادت إلى الدوار ، للمرة الثانية ، مقـــررةً أن تبقى فيه إلى الأبــــد. لكن حلمى سرعان ما احتاج إلى الرحيل للمدرسة الثانوية ، فرحلت معه إلى القاهرة ، ثم الإســـكندرية ليلتحق بجامعتها . فلما تزوج حلمى مـــن نهى ابنة عمها عاشت معهما فى نقار متصل، حتى قررت العودة النهائيـــة إلى بيت أبيها بعد ما يقرب من ربع قرن من رحيلها الثانى . تغيرت نعيمة كثيراً . لم تعد تلك الشابة التى وصفتها المنتهى ليلة زفافها بأنهـــا مـــترد بتمامه، وتساءلت أين كان يخفيها العمدة، إذ بدا ضياء وجهها ســـاعتها وكأنه ما شاف الشمس أبداً . جاءت تتكئ على عصا نُحِتَ طرفها على شكل رأس أسد ، مرتعشة الكف ، محنية الظـــهر ، تتحـــرك بصعوبـــة بســـبب أوجاع الروماتيزم . خفت صوتها الآمر مستبقياً أنة الكبريـــاء ، وعكست عيناها نظرات صارمةً مشمئزةً من عدم دقة من يعيشون حولها. لها هيئة أرستقراطية ، سمينة بغير إفراط ، تعقد شعرها الأبيض ملتوياً تحت شبكة رقيقة من الخيوط بدلاً من الضفائر السوداء الطويلة ، التى كـــانت تضيف إليها أيام العز"الصفا"، وهو أسلاك من الذهب الخالص . لهـــا ـــ رغم وهن عافيتها ـــ ذهن صاف رائق ، وسمع حاد ساعد وديدة ـــ التى احتفظت برشاقتها وديناميكيتها ، وعانت من ضعف الســـــــــمع ـــ على إقامة علاقة من التكافل، فباتا أشـــبه بشخص واحد يتكـــئ علـــى أبعاضه . احتملتها وديدة طوال حياتها ، ورعتها فى كبر سنها ، رغم أن نعيمة لم تنس ، للحظة واحدة ، السلطتين اللتين تتمتع بهمـــا تجاهـــها :

سلطة زوجة الأب ، وسلطة أخت الزوج . ولم يتناقض هذا فى نظرها مع حبها الشديد لها، خاصةً أنها لم تكلّ بها أبداً ، حتى أن نعيمة فضلت أن تعود لتنهى حياتها فى المكان الذى ولدت فيه. وشهد العصر جلوسها فوق مقعد عال، أمام الحصير المفروش فوق أرض السباط لجلسة العائلة تستمع إليهم، وتعلق من وقت لآخر. تبدو مثل تمثال يهتز ، منحوت من تاريخ طويل لطبقة لم يبق منها سوى أطلال، تنتظر هبة ريح.

توالى وصول العائلة. عادت كوثر من السعودية ، بعد أن نقل زوجها محمد سليم أعماله الرئيسية تدريجياً إلى مصر ، مستبقياً فرعاً لشركته هناك. وشهدت المنتهى حالة شراء محموم للأرض الزراعية التى تعانى من الكساد . ولم يفهم المزارعون ـــ الذين أسرعوا بالتخلص من الأرض أمام إغراء السعر المعروض ـــ سبب اهتمامه باقتنائها وهو ليس بفلاح ، لكن كان من الواضح للمقربين أن محمد سليم ، الذى أشرف بنفسه قبل سنوات على تمويل مؤسسة كبيرة تضم حضانةً ومدرسةً ومسجداً ومستشفى فى كل من الهور والمنتهى ، إنما يرتب لإقامة مشروع ما فى كل من القريتين ، لم يفصح عنه بعد ، وأن تحت يده أموالاً كثيرةً لا يعرف أحد مقدارها ، يتصرف فيها بكل راحة واطمئنان.

نسى الناس خروج كوثر وزوجها إثر محاكمات ١٩٥٤ ، بعد أن انتظمت زيارتها للمنتهى فى السنوات الأخيرة، حاملةً للعائلة والأصدقاء هدايا ثمينة ، من بينها طرح للشعر و"إيشاربات" حريرية ، مقنعةً النساء بالحجاب ، بالترغيب تارةً ، والترهيب تارةً ، حتى أن وديدة التى لم تخلع الغطاء من فوق شعرها أبداً ، بعد أن تزوجت بسنوات قليلة،

لم تفهم سر شغفها هذا ، ولا عصبيتها الشديدة التى تواجه بها رغبة إحدى الفتيات بالبقاء سافرة كما هى . وكانت تتذكر كوثر قبل الزواج مرتديةً آخر صيحة فى خطوط الموضة . فساتين بدون أكمام ، وأحياناً بدون كتف ، عارية الظهر فى حفلات السهرة . واحتدت عليها ذات يوم ، حين لاحظت أن ابنة خالتها ــ التى جاءت تطلب منها مساعدة زوجها فى الحصول على عمل فى السعودية ــ خرجت غاضبةً لأنها اشترطت أن تساعدها بعد أن ترتدى الحجاب . كانت واقعةً سمعت بها العائلة كلها ، إذ لم تتصور كوثر أن تناقشها أمها بهذه الحدة، واعتبرتها معركة تحدٍ ، فازت بها فى النهاية أمام رغبة الرجل فى السفر ، وخضوع الزوجة لشروط كوثر. وتحدثت العائلة بشئ من التكتم ، دار همساً، أن ابنها هشام لا يصافح النساء، وأنه يتروى وزاءها حين يدخل إلى الحرملك حيث جدته ، وخالاته ، وبناتهن ، وأنه يظل واقفاً محنى الظهر مطأطئ الرأس، لا يرفعها أبداً، وترمش جفونه بعصبية شديدة غير مبررة ، على عكس أخيه وليد ، الذى اكتسب حب العائلة على الفور ، لدماثته ، ومرحه ، ومرونته الشديدة .

عادت بنورة من باريس بعد زيارة سريعة لزوجها نبيل إبراهيم الذى خرج بعد أحداث سبتمبر مع بعض الصحفيين . قالت لهم ساهمةً ذات مرة :

ــ هل تصدقون أن زوجى ، بعد كل هذا العمر ، كأنه ما نزحزح خطوةً عما كان يفكر فيه قبل ثورة يوليو : "الثورة غداً" .

ينتظر رد فعل الناس ، وفهمهم . لديه أمل غريب فى تغيير كل شىء . أخفيت عنه كل ما أسمعه حولى ، حتى لا ييأس . أحد الثوار الذين كانوا يحاربون الإنجليز ويعيش منفيًا هناك، قال لى باطمئنان غريب : نحن نقاوم ما يفعله السادات، وسيحملنا الناس على الأعناق عندما نعود، ويلاقوننا بالورد حين يكتشفون حجم الخديعة . لم أستطع الرد عليه ، من منا الواهم ، أنا أم هم الذين مازالوا يحلمون ؟ بعضهم عاش سنوات من السجن فى كل العهود، وسنوات من الهروب داخل البلاد ، وسنوات قادمةً من النفى والتشرذم فى الغربة . لم أنم ليلتها ، وبعد أن خرج ضيوف نبيل سألته : هل يعقل أنكم بتياراتكم المختلفة فى المنفى منتظرون تغييراً سريعاً ؟

قال بهدوء :

ـ لا ، فتحوا القمقم للمارد الذى سيدمر المعبد على من فيه ، الحياة يا بنورة لا تسير على قدم واحدة، لابد من يمين ويسار.

تناقشوا كثيراً دون أن يصلوا إلى شىء ، وأصبحت العادة أن يعملوا وأن يتكلموا !

ذات مساء طرح عبد الله بعد العشاء كلاماً جديداً ، قال :

ـ شحّت الكتاكيت من السوق ، أحد مكاتب التصدير والاستيراد عرض علينا كتكوتاً إسرائيلياً ، أتصدقون ؟

قالت نعيمة : يا نهار أسود !

قال محمود : ياما فى الجراب يا حاوى .

قال فريد شوكت : مستحيل طبعاً .

هاصت الجلسة ، وعلت أصوات رافضة حتى شق الضجيج صوت إسماعيل قائلاً :

ـــ رأس المال بلا وطن !!

قال عبد الله غاضباً : على رقبتى ، والله أحرق المزارع أحسن .

قال إسماعيل : تتحدث بعواطفك ، لو لم تجد غيره ، أو وجدتــــه أرخص سعراً ، فستشتريه ، لأنك لن تنافس منتجاً يربى بتكاليف أقل .

صمت الجميع .

قال محمود : الموضوع كبير جداً ، انتبهوا !

قالوا بالإجماع : لن نتعامل مع بضاعة إسرائيلية ، مـــــهما كــــان الثمن.

ارتبك محمود أمام الغزو الذى حل بالدوار . لم يعرف إن كــــان ضجيجاً مؤقتاً ، أم أن زمن الضجيج الماضى قد عـــاد . لكنــــه أجــل التفكير فى إجابة السؤال الذى طــرح نفسه على ذهنه فجأة عن صلاحية المكان للبقاء فيه ، تاركاً للأيام المقبلة الرد عليه . احتفظ بمســافة مـــن الصمت الودود بينه وبينهم ، وانزوى معظم الأوقات بين غرفة المكتـــب والحقول . عاد إلى ممارسة هوايته القديمة فى التجديف ، لكنــــه لم يعــد للصيد ، بل يصحب القارب فى رحلة طويلة نهرية يقلـــب فيـــها أيامــه وأفكاره على مهل، ثم يعود إلى أوراقه يسألها أن تفصح عما بها. أقلقتــــه

عودة عمته نعيمة أم حلمى التى أحبها بشدة طوال العمر ، وسأل نفسه "هل يعقل أن تختلف نُهى مع عمتى ، فتدفعها للبعد عن ابنها الوحيد فى هذه السن ؟ لا يوجد سبب واحد فى العالم يبرر هذه الفعلة ، حتى لو كانت عمتى أمنا الغولة . كيف تتركها ــ وهى تقترب من الثمانين ــ للإهمال والغربة ، وهى لا تملك من الدنيا غير حلمى ؟ نُهى ؟!"

أضاءت صورة فى رأسه وبرقت ، وسمع صوته صبيّاً يصرخ من بين خشبات الدرابزين : "هادئ . ابن أمه" ، لم يجد صعوبة فى استعادة الواقعة. يومها، دخل إلى الحرملك بثياب مبللة ، شعره الأسود الفاحم ملتصق بجبينه وأنفه الطويل، راكضاً نحو الدرج . صاحت وديدة عليه :

ــ أين كنت طوال اليوم بلا طعام ؟

ــ تجلسون هنا والبلد هائجة ، وفيها غريق ؟

ركض هارباً إلى " المقعد " (١) فى الدور الأول ليغير ثيابه قبل أن يراه طه . سمع جدته تقول لأمه :

ــ شوفى ، حلمى عاقل . ربنا يهديه .

وهو يرد عليها مستنكراً : عاقل ؟ ابن أمه !

استجمع فى رئتيه هواءً كثيراً ، حزيناً : "هل عانت نُهى بين رحى أم متسلطة ، وزوج متخاذل لم يوازن بينهما ؟ لماذا لم أسألها عن أحوالها طوال العمر؟ ولماذا لم أقبل مساعدة حلمى حين حاول أن يقترب منى بعد

---

[1]) المقعد : غرفة علوية فى بيوت الفلاحين .

الحادث ؟ كان أعز أصدقاء طفولتى وصباى ، ماذا حدث لعلاقتى به ؟

واضح أن الحروب شغلتنى مدى الحياة ، فلم أحتفظ بأية علاقة سليمة . أم أن هناك أسباباً أخرى ما زلت أجهلها ؟! لماذا أجهد عقلى بهذا الشكل ؟ ألا يكفى ما أصبحت أعرفه وأتذكره؟!"

دخلت أمينة ، مربيته فى الطفولة ، وراعيته طوال العمر ، بثياب نظيفة تضعها فى دولابه . قالت :

ـــ العواف .

قال : أهلاً أم سالم ؟ ألم يصلك شىء من سالم حتى الآن ؟

قالت : من يوم ما وصل جواب مع حسنين أبو كحيلة من شهرين ، وأنا لا أعرف إن كان حيّاً والا.. ؟؟

قال : لا تخافى .. هو فى مكان بعيد عن الحرب .. ربنا يطمئنك عليه .

كان يكذب ، وكانت تعرف ذلك .

قالت : الله يطمئنك ، ويطمئنى عليك انت يا بنى .

خرجت تغمغم "يقطع الفراخ وسنينها" ، وأمسك هو بالأوراق ، وعاد يقرأ .

استغرق الصراع العربي الإسرائيلي كل حياتي . لم يخل يوم من اعتباره الحقيقة الوحيدة . لم أستطع أن أتسامح مع الواقع المفروض إجبارياً ، ولم يتغير رأيي بتغير الظروف . استغرقني العمل العادي في الفرقة، ولم تنقطع المناقشات ، وتعددت المحاضرات ، واللقاءات بين الضباط والقادة . جاء إلينا مدير أكاديمية ناصر للحديث عن المعاهدة ، وعرض أفكاراً استفزتني ، فانتظرت أن يهدأ الحوار، وطلبت الكلمة . قلت :

ـــ خلال ثلاثين عاماً من دراستنا للصراع العربي الإسرائيلي. كنا قد وصلنا إلى نتيجة هي أن الاستعمار الإستيطاني لا ينتهي إلا بالقضاء على أحد الطرفين، هل حدث شيء يجعلنا نغير هذا الاستنتاج ؟

انتشر في القاعة صمت قلق ، شعرت به وأنا أعود إلى مكاني ، ونخزات توتر مكتومة ، وهمهمة خافتة ، والمحاضر يبدأ الإجابة . قال باختصار منتقياً كلماته بصعوبة وصلتنا جميعا :

لابد أن نكون حذرين ، رأيي أن يكون السلام مسلحاً .

التقط الخيط قائد الجيش ، وطلب الكلمة ، قال :

تأتى بعض الظروف يرى فيها الطرفان تجميد الصراع لفترة. لكن لا بد أن نعرف أن الصراع لا ينتهى بهذا الشكل .

توالت المحاضرات التى دُعيت فيها للحديث ، رغم أن معارضتى للمعاهدة أصبحت معروفةً على نطاق الجيش كله . فى يوليو ١٩٧٩ طلب منى مخاطبة مجموعة من القادة حول الدفاع عن الساحل عند المحور الواصل بين القنطرة والعريش . بدأت كلمتى بفقرة كنت قد قرأتها على لسان مناحم بيجن : "المشكلة بيننا وبين العرب ليست هذه القضية أو تلك، إنما المشكلة أن وجود أحدنا ينفى وجود الآخر" . واسترسلت بالتأكيد على هذا المعنى ، والموافقة عليه ، وصولاً إلى أن السلام ليس نهائياً .

وتكررت المحاضرات وسط انشغالاتى المتعددة ، حتى جاء يوم ، مثله مثل أيام الخطر ، بدا طبيعياً لا يبشر بما يحمل خلف ظهره . تسربت الساعات باطمئنان حتى تكتمل لعبة الخطر بالمفاجأة . كان العام على وشك الانتهاء . نزلت إلى القاهرة لأعرض نفسى على طبيب عظام ماهر . كنت قد وقعت ، والتوت قدمى اليسرى ، ووضعها الطبيب فى جبيرة استمرت دون تحسن . ذهبت إلى مستشفى المعادى ، وعدت فى حالة لا تختلف كثيراً ، ضائقاً بالجبيرة التى تعوق حركتى ، وأنا لا أطيق الحبس . أفكر فى تعليمات الطبيب بالتزام الراحة. لكن من أين تأتى الراحة وسط كل هذه الالتزامات؟ انشغلت بأمورى الخاصة حتى غلبنى النوم ، صحوت على دقات الجرس . انتبهت إلى أن الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، وصافى تهرول فزعةً لتعرف من الطارق. قلت لها :

ـــ انتظرى ، سأفتح أنا الباب .

وجدت شاباً يرتدى ملابس مدنية :

ـــ سيادتك العميد محمود المصيلحى ؟

ـــ نعم .

ـــ اللواء مدير المخابرات بالنيابة يريد سيادتك حالاً !!

ـــ الآن ؟

ـــ نعم .

ـــ دقائق لأرتدى ملابسى .

فهمت . ذهبت معه بعد أن طمأنت صافى وسمير اللذيـــن طـــار صوابهما . راجعت موقفى فى الطريق، شهور ســـبعة مرت ، منذ رفضى تأدية التحية للناقلات الإسرائيلية . جاء وقت الحساب. لم أشعر بلحظـــة ندم واحدة . فعلت ما أملاه ضميرى . تذكرت استدعاء مديـــر الكليـــة الحربية لى فى بداية عملى كمدرس، وسؤالى عن الحـــوار الـــذى دار فى سيارة الضباط أثناء عودتنا إلى بيوتنا ، والانتقادات التى وجهها زميلنا إلى تصرفات جمال عبد الناصر ، ثم استبعاده من الجيش بعـــد ذلـــك . درس للجميع ، بأن يبتعد العسكرى عن السياسة . وهل من تورط أكبر مـــن تورط العسكرى فى السياسة ؟ إن سذاجة الفكرة بأنه مجرد أداة لابـــد أن توصل إلى ما أعانى منه الآن .

حققوا معى فى غرفة ملغمة بضباط فى مواقع حساسة . فاجـــأونى

بالتهم والأسئلة دفعةً واحدةً :

ــ أنت متهم بالتعامل مع دول أجنبية / عربية / وردت معلومات عن اشتراكك فى حركة مضادة للحكم / هل تتصل بأفراد من دولة أخرى ؟/ ما رأيك فى السلام ؟/ هل تكلمت مع أحد فى تغيير الأوضاع فى مصر ؟/

أدركت من الوهلة الأولى أنهم لم يستطيعوا حبك التهم الملفقة . رحت أجيب عن الأسئلة ، التى استدارت فجأةً إلى تفاصيل رأيى فى عملية السلام . لم يكن عندى ما أخفيه ، وما أرى أن لا حق لى فيه . قلت ما كنت أقوله مئات المرات ، لجميع الزملاء فى الجيش ، بل وما كنت ألقيه علناً فى المحاضرات .

انتهى التحقيق بمنعى من العودة إلى الفرقة ، وبقيت فترةً بلا عمل. ارتاحت قدمى الملتوية ، وفك الطبيب الجبيرة ، واستطعت أخيراً المشى عليها بصورة طبيعية . ولم تكف صافى عن البكاء ليلاً ونهاراً ؛ جاء التحقيق معى ليفجر كل متاعبها فى وجهى ، اتهمتنى بجلب المتاعب للبيت، الذى لم يهدأ أبداً منذ بنائه . استدعيت كثيراً سقراط وصبره على امرأته . وتحول التحقيق إلى المدعى العسكرى العام ، وهناك سألونى خمسة أسئلة كل إجابتها :

لا

عدت إلى عملى ، ورقيت إلى رتبة لواء بعد عشرة أيام لا غير .

توقف عن القراءة ، وقام يمشى حول المكتب مثل أسد مأسور ،

يضرب بباطن يده اليمنى أصابعه المضمومة فى كفه الأيسر .

عشرة أيام .. ما هذا التناقض ؟ هل يعقل هذا ؟ أعـــرف هـــذه الوقائع ، وأعرف ما بعدها ، راجعتها فى عقلى الليلة الماضية ، قبل النوم ، لكنى لم أتذكر أن الفارق بين التحقيق والترقية إلى رتبة لواء، هى عشـــرة أيام . ماذا كتبت ساعتها ؟ وكيف كان تعليقى؟

أمسك بالورق .

تخبطت بين الرجاء واليأس ، ماذا يحدث لى ؟ ما هذا التنـــاقض ؟ قلبت الأمر، ووصلت إلى نتيجة وحيدة ، لم أر غيرها: احتارت المخابرات معى . لم يكن لديها ما يدينى ، وكان التصرف غير المحســـوب سيثير الكثير من الضباط الذين كانوا يعتبروننى مثلاً أعلى لهم . لا بد أن جهةً ما أعلى هى التى كلفـــت المخابرات بهذه المهمـــة . ثم صـدرت حركـــة الترقيات ، وكان الوزير ورئيس الأركان مسافرين، ولم يعترض رئيـــس الجيش الثالث على ترقيتى ، فقد كان يقدرنى بشدة ، بعد أن عملنا معـــاً لمدة طويلة .

ردد بصوت عال : لا بأس .. لا بأس ..

عبر السطور الباقية التى تشرح نقله بعد الترقية إلى هيئة تدريـــب القوات المسلحة ، ثم عاد يقرأ .

رُشحت للسفر ضمن وفد رسمى لحضور مناورة فى ألمانيا . حـــين وصلنى خبر الترشيح ، احترت أكثر فى الموقف الذى يـــزداد تناقضـــاً ، وقضـــيت ليلة غريبة، ساهراً ، حتى رأيت نجمة الصبـــح . تطلعـــت إلى

المستقبل أستشرف الآتى . أستنطق الواقع المتناقض ، علـه يومئ لى بملامح المستقبل . غيوم عابرة فى الفضاء الممسوس بزرقة خادعة . الأمان سراب غادر ، لا يقود مثلى إلى تصديقه ، النار قانون صافى وحصانها الذى تعتلى. العمر تدفق بخيبة لم تخجل من المجاهرة. ونجاح فى أوقات أخرى ، مثل الفضيحة كاشف . فجور وفضيلة ، شاطئان متوازيان ، يعلنان وجود كل منهما الدامغ :

اقطع الصحراء لتصل إلى حبيبتك . آيتك ألا تكلم أحداً أياماً ثلاثة، إن نطقت تحولت إلى حجر .

مشيت فى معبدك ، ونزفت العمر تحت قدميك . أحببتك ، وكفرت بك ، ولعنتك مئات المرات . أنتِ ، أنتِ ، يا حبيبتى ، يا نصف الثمرة المحرمة ، يا تقية، يا فاجرة ، أقبل .. أَقْبَلُ أن أُقَبِّلَ عتباتك ، وأن أتوقع مزيداً من الدفع ، لأنك لست أنتِ ، أنتِ من يتغنج ، ويركع ، ويغوينا ليمرغنا فى الوحل ، أنتِ لى .

لم تخدعنى الحفاوة فى مكان ، أو التلويح بالعصا فى مكان آخر . استشعرت أنى على قائمة المستهدفين ، أو المتهمين ، لا يهم. تكرر جرس الليل ، نفس السيناريو : مطلوب لمقابلة مدير المخابرات ، لكنه فى هذه المرة كان أكثر إثارة. السلم ملغم بجنود شاهرى السلاح ، حراس البيت فزعون من استدعائهم بأورطة عساكر فى الفجر ، أبواب الشقق الأربع مفتوحة على مصاريعها ، تنتظر الحدث . الفيلا مطوقة من جميع الجهات ، سيارات كاملة العدة والعتاد ، رابضة أمام البوابة ، تطن وسط صمت الليل . نزلت ، ووقعت عيناى على المشهد كاملاً .

سألت الضابط المكلف بحدة :

ـــ ما هذا الهباب ؟

لم يرد . ركبت إحدى السيارات ، ومضى الموكب ، تتقدمنا سيارة مسلحة ، وتتعقبنا أخرى ، حتى وصلنا إلى نفس المكان السابق . لم أطق الانتظار ، فبادرتهم بالسؤال :

ـــ ما هى الحكاية هذه المرة ؟

قال المحقق : قبض على اثنين من الفلسطينيين فى مطار القاهرة ، وعند تفتيشهما وجدنا معهما ورقةً ، مكتوب عليها اسمك . أردنا أن نسأل حضرتك عنهما .

قلت غاضباً : ولماذا لم تسألونى تليفونياً ، بدلاً من إحضارى بهذا الشكل ؟

قدم لى ورقةً بها اسمان ، وسأل : هل تعرفهما ؟

أجبت : لا !

قال : تفضّل ، انتهى السؤال !!

قلت : لا .. أريد أن أعرف القصة الحقيقية ، هذا كلام لا يدخل الدماغ .

لم يجب .

عدت إلى المنزل قرفاناً ، ثم وصلتنى الإجابة بعد أيام قليلة .

صدرت النشرة العسكرية ، وأُحلت إلى التقاعد .

والباقي معروف : حادث قيد ضد مجهول ألقى بي في المستشفى سنة ، وطلبت صافى الطلاق حتى قبل أن أفيق من العملية ، واتهمتني بأنني جلبت لها المشاكل والمتاعب ، ويكفيها ما تحملته حتى الآن ، وغادرَتْ البيت وحياتى إلى الأبد .

سقطت آخر الخيوط التى تغلف الشرنقة . انفجرت المرارة، مكونةً سحباً قاتمة .. هشها .

لست الرجل الذى يهزمه صراع يعرف أبعاده ، لن أكون رماداً لقلب احترق . فالصراع القادم أكبر كثيراً من أن تخسر بلادى أى ساعد يمتلك الوعى بها . وخيوط الشرنقة داخل كل منا لا تتحلل ، ولا تضيع ، ولا يمكن إلغاؤها ، لكن يمكن أن نتعامل معها ، بقدر ما نفهم أنفسنا ، بقدر ما نحاول ..

لوث السكون صوت إطلاق رصاص ، أفزع ليل كائنات القريــة التى لم تعد تعتاد الهدوء ليلاً . لم يعد يهتم أى من أهلها بصيد ثعلــب أو طائر ، فماذا حدث ؟ كانت نهاية صيف . رطوبة خانقة ، وحرارة تذيب أسفلت الطرقات ، سحب صغيرة بيضاء عبرت القرية متمهلةً ، محافظــة على شكلها المحدد ، لا تتلاعب بهـــا الأطيــاف ، فتشكلــها إلى آلاف الصور. صحت القرية على خبر غريب :

وقف بيع اللحوم لمدة شهر .

سرى الخبر بين مصدق ومكذب . لم ينتظـــروا هبــوط الليــل ليتشاوروا فى البورصة ، توقفوا جماعات على الطرق ، وفى العنـــابر، وفى الأسواق .

باختصار ، سيزداد الطلب على الفراخ ، إنتاجــــهم الأول الآن . حسبوا أعمار الكتاكيت فى المزارع ، وحددوا سعداء الحظ الذين ستصل أعمار كتاكيتهم إلى خمسة وأربعين يوماً مع سريان القرار . توجسوا قليلاً من تدخل الحكـــومة فى تحديد سعر البيع ، ولم يجدوا من يدلهـــم علـــى إجابة الأسئلة .

فى المساء قلبوا الأمر فى البورصة ، وسألوا عن الهدف منه : هـــل

هو تخفيض سعر المواشى ؟ أو كيلو اللحم عند الجزار ؟ ولماذا لا تستورد الوزارة لحوما أكثر ؟ أو تربي عجولا من أنواع جيـــدة ؟ لم يفــهموا ، فأطلقوا النكات تسخر من الأمر برمته .

فى اليوم الأول لتنفيذ القرار ، ارتفع سعر كيلو الدجاج من مائـــة قرش للكيلو داخل المزرعة إلى مائة وثلاثين قرشا ، وباعت بعض المزارع جـــزءا من إنتاجها ، ثم أوقفت البيع طمعا فى ربح أكبر . فى اليوم الثانى، تقاطرت ســيارات التجار على القرية ، لكن المزارع أغلقت أبوابهـــا .

نزل التجار إلى البورصة ليلا ، يحاولون الوصول إلى اتفاق على السعر مع المربين . طالت المناقشات دون جدوى ، واقترح أحد المربين تقسيم إنتاج مزارع القرية إلى حصص تغطى الشهر كله ، فغضـــب التجـــار الذيـــن يريدون الحصول على الإنتاج قبل غيرهم ، وقبل أن تستهلك الطيور من السوق ، فيزداد سعرها .

ـــ تعالوا غدا ، ويفرجها الله . لن "نخلل الفـــــراخ فى الزلـــع" ، ستباع.. ستباع . قال إسماعيل .

هكذا السوق ، يوم لك ويوم عليك .

فى الليلة التالية ، رأى أحد التجار ، أثناء بحثه فى القرى ، مزرعـــة أضاءت مصابيحها الخارجية ، إعلانا عن فتح البيـــع . ذهـــب إليـــها ، وســـأل عن السعر ، قال صاحبها : مائة وخمسون قرشا للكيلو ، ولـــن أبيع . انطلق التاجر إلى الشرطة ، وشرح لضابط القسم الموقف ، فـــأمر بخروج قوة من المركز ، ومفتش التموين . وصلوا بعـــد ســـاعة إلى أول

مزرعـة على الطريق ، وحملوا ما بها من دجـاج فى سـيارة كبـيرة ، وأعطوا لصاحبها إيصالا بالوزن ، وانصرفوا إلى باقى المزارع . لكن أحد الفلاحين كان بالقرب من المشهد، فركض إلى القرية، وأخبر المربـين فى البورصة بما يحدث . هب المربون إلى مزارعهم ، وبحثوا عن السـلاح . أخذوا ما طالته أياديهم من فؤوس ، وشوم ، أو حتى مناجل . وصلـت القوة إلى إحدى مزارع إسماعيل ، المزرعة الوحيدة على الطريق، بين محطة القطار والقرية. طرق مفتش التموين والضابط بابها ، لم يجدا غير عـامل أخبرهم أنه لا يستطيع البيع لأن أعمار الكتاكيت لم تصل لسن كـاف، وأن صاحب المزرعة غير موجود ، ولا يستطيع وحده اتخاذ مثـل هـذا القرار . وأضاف : خمسة أيام يا سعادة البك، حتى يثقل وزن الفرخـة ، وإلا خسرت المزرعة خسارة شديدة . أطلق الضابط صفارة أحضـرت القوة ، حاول العامل منعهم :

ــ أرواح ضعيفة تموت بسرعة .

ضربوه ، وفتح العساكر الأبواب ، ركضوا فوق الدجاج الـذى تجمع فوق بعضه خائفاً فى ركن ، ولم يغثه صياحه ، ولم يمنـع مصـيره المحتوم ، فماتت أعداد غفيرة منه . ركض العامل وهو يئـن مـن آثـار الضرب إلى الطريق العام ، أوقف سيارةً عابرة ، أقلتـه إلى إسمـاعيل فى الدوار ، وأخبره بما حدث . هب إسماعيل غاضباً إلى السـلاحليك ، ومن ورائه كل الرجال الموجودين فى البورصة . فتحه، وأخرج بنـادق وشـوماً وزعها على رجاله ، وأمر بعـض الفلاحـين بالاعتصام فى

المزارع، وطلب من الآخرين الوقوف صفاً واحداً على الطريق ، لمنع دخول القوة القرية ، قائلاً أنه ليس لها طريق آخر . لم يعترض واحد، ولم يتردد آخر . نفذوا على الفور، أمسك أحد الخفراء البندقية، وحرك الزناد، فخرج الرصاص الذى أفزع الناس ، وأوصل الخبر إلى جحور القرية وقنانيها ..

ركضت لبنى ــ العائدة وزوجها عاطف وابنتها منذ أيام قليلة من العراق ــ قادمة من غرفة اللبن نحو الحوش تستفسر :

ــ ما هذا يا نينا ؟

قامت وديدة فزعةً من فوق المصطبة :

ــ الشر برة وبعيد ، اذهبى يا صبحية ، واعرفى لنا الخبر .

علت الأصوات على الطريق ، وأفسحت للذهول مكاناً على الوجوه . تخبط الحمام فى كل حائط وصل إليه ، ونقنقت الطيور ، وهربت إلى ركن عكس اتجاه الضوضاء، وترنح الجميع، كلما صعدت إلى السماء رصاصة .

قالت لبنى : سأصعد إلى المشربية لأفهم . الأصوات تأتى من عند الجسر .

طوت الدرجات معاً حتى وصلت إلى شرفة الطابق الأول ، وهى تتحدث إلى نفسها ، وإلى وديدة فى آن معاً .

ــ هل يتعارك تاجران فى البورصة ؟ ولماذا يستخدمون الرصاص ؟

هل يقتلون حصاناً ؟ وهل تقتل الخيل فى الليل ؟ أيكون الصـــوت مـــن السلاحليك ! لكنه مغلق منذ زمن بعيد .

فتحت ضلف المشربية ، دفعةً واحدةً .. تتـــابعت الطلقـــات فى الهواء، فكادت توقف الحياة فى شرايينـــها . رأت أبـــواب الســـلاحليك الأربعة مفتوحةً معاً لأول مرة منذ الحادث الكبير، قبل أن يتنازل عمـــها الشيخ طه عن العمدية . تذكرت زوجها عاطف ، أين هو ؟ سمعت صوتاً مدغدغاً من أثر النوم ، والانزعاج. التفتت إليه ، كان عبد الله خارجاً من المقعد بجلباب النوم :

ـــ ماذا حدث يا لبنى ؟

ـــ لا أدرى .. السلاحليك مفتوح ، وإسماعيل واقـــف وســط الفلاحين ، والدنيا مقلوبة .

نظر إلى الشارع ، والنهر ، والبورصة ، وصرخ :

ـــ يا خبر أسود ، اعطينى القفطان الله يسترك يـــا ابنـــتى . أيـــن محمود؟ وعاطف ؟ أين الرجال ؟ ومن أخذ المفتاح ؟ ولماذا ؟

ساعدته على ارتداء ملابسه بسرعة . ركض ، وهو يعدل طرف الجلباب ، وينثر العباءة على كتفه . نزل يكلم نفسه ، ظهر علـــى عتبـــة الدرج عند باب الحوش، رأى أمه تنوح :

ـــ الحقنا يا عبد الله ، ربنا يسترها يا اولادى دنيا وآخرة .

.. ..

.. ..

خارج الأسوار مواقد الغاز المتوهجة تفح بصوت واضح وسط الضجيج . النهر فى أقصى عنفوانه الجديد ، يعكس ألوان الزيتون الرمادية المشربة بالأخضر، ويعكس تلؤلؤ جمرات ثلاث الماء لا يجرفها . فى الحقول بؤر ذهبية متباعدة، تتلألأ، يساقط منها الضوء ويبرق فى الظلمة مثل خيال مآتة يخيف الجنيات . القرية حزمة من الألوان الفوسفورية تجتمع فتخدش الأبيض الناصع. ملايين من قطع الماس الصغيرة تظهر فى لحظة ، مع انعطاف الطريق ، ثم تختفى خجلةً وراء شجرة، ثم تظهر صينية من وهج يتراقص فوقها بشر مسكوب من بوتقة رصاص سُكّوا فى قالب واحد ، اندلق فوقهم لون أشهب . خليط مصنوع من ظلال ونور. حتى الطيور التى اعتادت أن تأوى إلى أعشاشها مع غروب الشمس ، وتحتل الجميزة الكبيرة ، وشجرة السنط ، والصفصاف حول البورصة ، لم يعد يزعجها الضوء الذى لم يعرفه أسلافها . لكنها هذه الليلة استشعرت بالغريزة أن شيئاً ما يحدث هنا ، فتقلقلت ، وشق الفضاء صوت صراخها وعراكها ، وولولات استغاثة ضعافها من مزاحمة غير متوقعة ، ورفرفة لم تبعدها كثيراً عن الأغصان ، وأصوات صحو تشبه تلك التى يبعثها الفجر ، ثم أعقبها سكون استمر بعض الوقت حتى عاد أحد الطيور المتململة من النبوءة إلى وخزات التحرش غير المفهومة له .

ثقل الهواء برائحة الجموح . ارتسمت فوق وجوههم سخرية مريرة واحتقار لكل ما تمثله لهم قوة البوليس القادمة ، التى لم تعد فى

نظرهم رمزاً للعدل كما كانو يحلمون يومـــاً ، بعـد أن جربـوا أن يقايضوها ليغيروا الإجراءات، وأن يدفعوا لها إتاوات لكى تقضـى لهـم مصالحهم الشرعية . فى عيونهم شرر من لهب ، متهكم ، ليـس شـرر الدفاع عن الحق وحده ، أو رغبة الثائر فى الموت النبيل فداءً لوطن ، لكنه خليط من الدفاع عن المصالح ، واستعراض القوة ، وتثبيت نوع جديد من التعامل ، ونكاية فى قوة القانون التى تكيل بعشرة مكاييل .

عمال يوميون ، أصحاب مزارع ، ومؤسسات كبيرة ، أصحاب أراضٍ ، بيطريون ، نجارون وعمال بناء ، تجار أعلاف ، وتجار مخلفـات دواجـن ، مزارعون صـغار ، مزارعهم تعلو أسطح المنازل . صيادلة ، وأصحاب محلات بيع مركزات غذائية ، سـائقون ، وتجار أنابيب غاز . مئات الفلاحات ، واقفات فوق الدور وأمام أبوابها ؛ كأنهن قطـع مـن فضة ، نثرها واهب فى عـرس، لا تراهن الحشود ، لكن تشعر بتلألئهن. أطفال خاصموا النوم ، ورضع يقطعون الضجيج بحشرجة مـواء . روح إنسانية واحدة ، افتقدت الدفء ، وحل محله تآزر التجاوب فى المصاب . تآزر سـوف يختفى فى اللحظة التالية . ولا يبالون . تبدلـت المشـاعر كثيراً منذ خرجوا جماعةً يواجهون تعنت الهجانة ، أيام الشيـخ طـه ، ويحصدون القمح رغم أنف السلطة . لم يعودوا يتوقفون كثيراً أمام هـذا الحس الإنسانى الشفيف ، الذى كان يجمعهم . ظهرت عليهم أعـراض الإصابة بمرض الكسب السريع الذى غزا المنطقة تلها مع النفط . امتلأت

نفوس الفلاحين بغل ، وحقد ما عرفوه مدى الحياة . فهل كانوا فى حاجة إلى الحقد ليصلوا إلى الرحمة؟ إلى الحب الذى رضعوه من أثداء الأمهات، وعاشوا يقاومون به كل أنواع القهر؟ هل كان الحقد والاستفزاز من قوة أكبر هو نهر التطهر ؟ البوتقة التى تعيدهم إلى الأصول الأولى ؟ لم يحللوا مشاعرهم التى تدفعهم نحو بعضهم . اكتشفوا فجأةً حجم ما يجمعهم ، وحجم ما يواجهون . كان لديهم هذا الشعور الذى لا يمتلك دليلاً واحداً على أن فى الأمر لعبةً كبيرة ، وأنها تتم لصالح قوة ما ، لا يعرفون لماذا ؟ هل هى صفقة دواجن كبيرة سيتم استيرادها ؟ وإغراق السوق بها بسعر عال ؟ هل هى صفقة أرانب؟ أو ديوك رومية؟ قال واحد فشرقوا جميعاً بالضحك .

شيء ما يتعلق باللحم . من الذى يقوم به ؟ لابد أنه من الكبار جداً ، الذين يملكون إملاء هذا الشرط على السادات ، إلا إذا كان هو شخصياً متورطاً فيه. لا يمتلكون الدليل ، لكنهم يمتلكون اليقين به . لم يكونوا حفاةً ، يرتدون خرقاً ومزقاً ، كذلك العام فى ١٩٤٩ بعد المدنة . ولم يفح من عرقهم عطر نبات الحلبة التى كانوا يعجنون بها خبزهم، ليزيدوا من القيمة الغذائية لرغيفهم المقلحف . بل ارتدوا جلابيب بيضاء من قطن مخلوط بنفايات النفط ، وارتدى بعضهم الجينز ، وارتدت النساء فوق جلابيبهن السوداء الجورجيت الملطعة بالقطيفة الحمراء "إيشاربات" ملونةً بالزهور . تغيرت النفوس كثيراً . ظهرت على

الشباب جدية جافة، وحصافة التجار ، وفقدوا مرارة الاندفاع ، أمام زحف الجليد الذى يتطلبه التعامل مع المال . لكن ما حدث اليوم أذاب بعض هذا الجليد ، فالأمر هنا متصل بالقوت . ارتجفت قبضاتهم فوق العصى ، والبنادق التى لم يشرعوها بعد. زرعوها أمامهم ، ووقفوا بعرض الطريق فى انتظار وصول سيارة البوليس ، متسلحين بحتمية وحيدة، أن يمنعوهم بأى ثمن من الاستيلاء على الدواجن بهذا الشكل . مجازفة لم تأت دون تفكير . بل جاءت نتيجة تفكير واقتناع ، وإجماع .

قال إسماعيل : أطفئوا مصابيح القرية كلها . بيوتها ومزارعها .

سرى الخبر سريان الشائعة ، وعادت المنتهى تشبه لياليها ، قبل دخول الكهرباء .

وصلت القوة . ترجل الضابط من العربة ، وكان قد أدرك رغم الإظلام حجم الجموع الواقفة ، والمأزق الذى وقع فيه بالمقارنة بما معه من عدد أفراد. بدا فى هيئته العسكرية ولباسه الأبيض الزاهى ، مثل ديك رومى شديد الثقة برقصته، وطقطقات انفجاره قبل أن يهاجم . قفز اثنان من الجنود ليفسحوا له الطريق للمرور وسط الفلاحين . أشار لهم بيده ليتوقفوا ، وواصل المسير ، مقلصاً عضلات وجهه اللامبالية ، ومن خلفه مفتش التموين . تخلخلت الجماعة فأولدت ثقباً فى الكتلة ، مرا منها بهدوء . تفتحت بوابات من البشر مع كل خطوة من خطواتهما ، ثم انغلقت خلفهما ، شعرا بأنفاس الناس الملتهبة التى أصبحت مرئيةً لشدة كثافتها ، تلسع بشرة وجهيهما ، وتتلطع بلزوجة فى السماء كدخان

دهنى . أبواب العربات الخلفية مفتوحة . ترجل العسكر ، ووقفوا حولها دون أن يتحركوا عنها خوفا من الجموع التى تصدت لهم ، وأغلقت الطريق . أمسكوا بالسلاح المعلق فوق أكتافهم بثبات دون أن يرفعوه كأنهم منومون ، رغم أن قلوبهم التى لم تر ، ولمرة واحدة مثل هذا الحشد الغاضب ، ولا سمعت مثل هذا الهدير ، غاصت وسط الأحشاء، باعثة فيها تلك الترددات الفزعة التى تزن كدبور هائج فى ساعة قيظ . طلبوا من الله سرا أن يهدى المقدم عوض الله عبد الشافى ، وألا يعطى أمرا بالاشتباك مع هؤلاء .

أسلمت موجات البشر الضابط إلى إسماعيل الجالس فى صدر البورصة ، وبجواره عدد من كبار الملاك. استفزه هدوؤهم . لا تكافؤ فى النزال الآن ، حتى وهو يمثل أعلى سلطة فى الدولة . لم يكن أرعن ، أو قليل الخبرة . كتم غيظه من حالة البرود الظاهرة أمامه ، واستعراض القوة الذى لم يعد خافيا . سأل عن عبد الله المصيلحى ، قام إسماعيل وسط الرجال مشيرا إلى الدوار ، وتقدموه على غير العادة بالترحيب بالضيف ، مهما كان شأنه . تحرك الرجال من خلفهم ، حتى ذاب وسطهم ، وأسلمته الجموع إلى بوابة الدوار ، وإلى الفيلا الصغيرة التى شهدت تحقيقات البوليس يوم حادث أبى مندور ، حين خرجت القرية على القوة، وهرستها، وكاد الضابط أن يحتضر تحت اندفاع الفلاحين . كان عبد الله قد رضخ لطلب محمود قبل دقائق ، ودخل إلى الفيلا ليجرى اتصالات بوزارات : الداخلية، والزراعة ، والتموين ، وبالمحافظ ، وكل ما

تصل إليه يده لوقف هذا الترف . تذكرا معا أباهما ، والحادث الذى أوقفه عن العمدية، انحاز إلى أهالى قريته. لم يكن عبد الله صغيرا ، ولا محمـــود كذلك ، كانا واعيين بكل النتائج ، ورأيا الهجانة ، وهى تتبختر فى أروقة القرية ، ودفعا مع الأهالى الثمن كاملا . شعر عبد الله بالفخر من ســيرة أبيه العطرة ، وتمنى وجوده معه الآن ، والناس تتقدم نحوه طالبة الحـــل . وتذكر محمود ليلة أن طار القرش فى الهواء ليحدد من من الأطفال سيتكلم مع العفريت سح سح ، وكيف وقعت القرعة على حسنين الفحام، ونزل إلى الرجل الذى يعتلى الجمل ، وتحدث إليه ، وكيف أعطاهم إدريس ــ الذى عرفوا اسمه بعد ذلك ــ السيجارة ، ليتبادلوا وضعها فى فم الجمل. وكيف كسروا الصمت بين القرية والهجانة دون أن يعوا . لم يعلمـــهم أحد حكمة عدم الاطمئنان لسلطة أبداً ، حتى لو تبسمت فى وجوهـــهم إلى حين ، بل خبرة اكتسبوها بالتأمل ، وورثوها من تاريخ طويل ظالم .

وصل الضابط والمفتش بصحبة إسماعيل والناس :

ــ أريد عبد الله المصيلحى .

ــ نعم ، خير إن شاء الله .

ــ مطلوب تسليم كل ما لديكم من دواجن فى المزارع حالاً .

أجاب عبد الله بلهجة متهكمة ، ابتسم لها الضابط :

ــ كل ما لدينا ؟ لا يوجد قانون يجبرنى على تحديد وقت البيع .

ــ قانون التموين ، والامتناع عن البيع فى وقت حاجة الســوق ،

والمضاربة فى السوق السوداء .

ـــ لا توجد عند المربى سوق سوداء ، ولا مضاربة .

ـــ الامتناع يوقعكم تحت طائلة قانون الطوارئ .

ـــ طوارئ من ؟
تعالت الهمهمات بين الفلاحين .. طوارئ ؟

قال محمود المصيلحى : ليس هذا هو الأسلوب الذى يحل المشكلة.

قال الضابط : وما هو الأسلوب ؟ أسلوب الجشع ؟

قال عبد الله : ليس جشعاً ، بل دفاع عن مصالح أهدرتموها. انظر إلى البيوت والغيطان من حولك . لجأ الفلاحون إلى المزارع ، مسلحين، حتى بالعصا . هل ستدخل معركةً من هذا النوع ؟

ـــ لا تجبرونى على أخذ الدجاج بالقوة .

ـــ تحصل عليه إذا تركت المربى يزن دجاجه بنفسه ، ويحمله عماله إلى الميزان ، ثم إلى السيارة ، وإذا دفعتم ثمنه . أهلكتم المزارع التى دخلتموها ، وسرقتم أصحابها ، لأنكم لا تعرفون التعامل مع الموازين ، وأعطيتم الناس إيصالات بدلاً من النقود ، وسيعانى المربى من الركض وراء خزائن الدولة ودواوينها ، وهو فى حاجة إلى مال سائل لكى يشترى كتاكيت للدورة الجديدة ، وأعلافاً لمزارعه الأخرى إن كان يمتلك غيرها ، ويوم الحكومة بسنة .

تعالت صيحات الناس مؤيدةً لكلمات عبد الله الذى أردف:

ـــ ثم إن الحكاية كلها لا تدخل رأس بعوضة ، والأيام بيننا، إن لم يكن الموضوع كله لصالح أحد المستوردين .

استفز الضابط ، وقال بغضب : عامل عمـــدة ســيادتك ؟ والا معترض على سياسة الدولة ؟!

قام عبد الله واقفاً ، احمرت بشرته بالغضب ، وقال :

ـــ ما رأيك ؟ أنت فى بيتى ، ولولا ذلك ..

قطع الصالة إلى الباب ، ووقف مشيراً إلى الناس :

ـــ تفضل ، البلدة أمامكَ ، لا تريد مشورتى ، افعل ما تشـــاء ، وتحمل النتائج .

همَّ بالخروج من الباب ، فتعالت صيحات الناس ، ومنعوه مـــن الخروج . ووقف محمود يهدئ الجموع حتى عاد بأخيه إلى المجلس ، وقال للضابط :

ـــ أنا اللواء أركان حرب محمود المصيلحى . أنت لا تتعامل مـــع مجرمين ، اعرف حدودك ، حتى لا تقع فى مشاكل أنت فى غنى عنها . فى القرية أربعة ملايين كتكوت ، أعلى إنتاج فى مصر كلها ، ولن تمر الأمور ببساطة، إذا لم تتعامل معها بحكمة !!

نظر إلى عبد الله موجهاً الكلام إليه : ما هو الحل العملى الآن يـــا باشمهندس؟

أجاب الضابط قبل أن يرد عبد الله :

ـــ أريد إخلاء المزارع فوراً ، وإصدار أوامر للفلاحين بالتعاون معنا !!

شمر عبد الله كم جلبابه الواسع ، وعدل من تهدل القفطان، وقال:

ـــ ليس هذا بحل . إذا أردته ، قم به بنفسك . أما ما أراه فاسمعه: غداً تجتمع لجنة فى وزارة التموين لتحديد السعر ، وهذا ما سمعته من مسئول كبير فى الوزارة تليفونياً الآن . لماذا لا ننتظر حتى نعرف الأسعار؟ وعندئذ تستطيع أن تتدخل إذا باع أحدهم بسعر أكبر ، ويكون فى هذه الحالة لديك الحق فى التصرف مع من يخالف .

تردد الضابط قليلاً ، ونظر إلى مفتش التموين الصامت بجواره ، فلمح على وجهه ملامح رضاء .

تعالت الأصوات تطالب بالتعويضات عن خسائر المزارع التى دخلها العسكر ، وعبد الله وإسماعيل وعاطف يعدوهم بالحل . رحل البوليس ، ولم يغادر الفلاحون المزارع . ناموا حولها حتى جاء الصباح بخبر تحديد أسعار البيع بمائة وعشرة قروش للكيلو ، فحصلت القرية على شئ من الراحة بعد التعب .

فجر الحادث فى البورصة أسئلةً كثيرةً لم تخطر لهم على بال من قبل، عن حلقات الإنتاج ، المربى الصغير ، والتاجر والوسيط والدولة . ولأول مرة فى تاريخ المنتهى ، رغم التعليم الذى دخل إلى كل البيوت،

طرح عبد الله للنقاش العام مع الفلاحين معلومات عـــن الاحتكـــار ، و "التروستات" [1] الكبيرة ، والشركات متعددة الجنسيات .

قال منصور ، الذى أذهله حجم المعلومات التى سمعها :

ـــ حيلك يا أبو هانى ، مالنا وما لهـــم ؟ شركـــات ، وفلـــوس بالملايين ، وحرب دول ، على فرختين يربيـــهم منصـــور ؟ يـــا ســـنة "سوخة"!!

قال أبو صابرة الذى بلغ الثمانين ، وخرج مع القرية يتشـــاور فى مشاكلها : دار الزمان دورته ، وكأنك تحكى حكايةً عشناها قبل الثورة، وعاشها أجدادنا : مرابٍ يهودى ، وصـــاحب شـــركة إنجلـــيزى ، وحكومة الله أعلم بها معْ من ؟ لكن الحمد لله ما زالت المصانع ملكنـــا . مصيبة أن يجئ يوم ، ويهل علينا الأغـــراب من تانى !!

---

[1]) التروستات : مجموعة الشركات التى تخضع لإدارة واحدة وتنتج منتجات متعددة ولها فروع فى دول كثيرة .

حين ارتدى محمود ثيابه فجر ذلك اليوم ، لم تعرف وديدة أنه سيقطع عتبة التغيير الذى كانت تنتظره. لم يقل لها ، وهو يقبل يدها قبل الخروج ، إلى أين ؟ ولم تبد له أية إشارة للأسئلة التى كانت تمور داخلها، وهى تحسب الأيام الباقية على موعد استلام معاشه الشهرى ، الموعد الوحيد الذى كان يرحل فيه مبكراً إلى القاهرة ، ويعود آخر النهار ، بعد زيارته الوحيدة لابنه سمير .

شهور مضت منذ اتضح للجميع أنه عاد إلى حالته العادية ، باستثناء رغبة فى العزلة ، عزوها إلى الاحتياج للراحة ، بعد طول عناء وتعب . أخفت وديدة عنه أسئلتها ، أغلقت نوافذ القلق كعادتها ، وانتظرت ما سيبوح به ، وتمنت أن يكون الأوان قد آن لخروجه من عزلته.

قطع الطريق إلى المستشفى صامتاً ، تتضارب فى رأسه صور حياته كلها . كشفت الستارة المخملية الخضراء التى عبرها عن ممر طويل رخامى الأرضية ، ثلجى البشرة والملامح ، خافتة أضواؤه . تسرب فى الرواق مثل نسمة سريعة لا صوت لها ، يغالب اندفاعه، معلق البصر

بلوحة الأرقام، فوق النوافذ المبطنة بالقماش الأبيض ، حتى وصل إلى الدائرة التى تحمل العدد ثمانية . وقف أمام الحجرة ذاهلاً ،حتى انقشعت الستارة التى تغلقها بيد ممرضة مدربة ، وظهرت نهى مستسلمةً لملائكتها، كما لم تستسلم لفكرة أو رغبة. اختفت حمرة خديها ، واحتل الأصفر ساحة بهائها ، وحيدةً فى حجرة ضيقة ، معلقةً بخراطيم كثيرة إلى شاشات سوداء، تتعرج فوقها خطوط بيضاء ، ترتفع فى أسهم رفيعة حادة ، لم يعرف معناها . تأملها ، لم تختلف كثيراً عن الصبية الحلوة والمهرة الجامحة التى أحبها، يحيط بها شعرها الأسود الطويل. صرخ دون صوت يهيب بها أن تنزع هذه الخراطيم ، التى تربطها بالأجهزة ، وأن تفتح عينيها ، وأن تنطلق إليه . لم يهتز إدراكه لعمق حبهما ، ولم يُقَوِّم مشاعره ، احتفظ بها فى شرنقة داخل بئره ، تكيف مع ما وصلا إليه ، تجنب أن ينكأ الجرح ، اكتفى بما يصله فى لحظات تقاطعهما العابرة ، التى منحتها لهما الصدفة، كى يطمئن على نضج مشاعرهما المكتومة ، تحت ركام العلاقات الجديدة التى اختاراها .

تعالى ، حطمى هذا الحاجز الشفيف القاسى بيننا ، اخرجى عن صمتك وعزلتك ، اقذفى بقميص الموت من النافذة ، واهربى إلى الحياة.. معى !!

لن أقبل بعد اليوم ابتعادنا .. إذا رحلت سأحطم المعبد الذى بنيته بإصرار حجراً حجراً كى أختفى وراءه ، يا لحماقتى ، اكتفيت خلال كل هذه السنوات ـــ منذ اقتحامك بيتى فى الثالثة صباحاً ـــ بمجرد وجودك عن بعد، اكتفيت بالاطمئنان الذى تبثه مشاعرنا المتنامية الهادئة ، دبيب

خافت حل محل النيران السابقة . كيف وصلنا إلى هذا ؟ كيف روضنا عذابنا ، واعتليناه ، أفيقي لى. أقسم إن قاومت لأحطم كل الحواجز بيننا، وأبدد السنوات التى فصلتنا بضربة سيف واحدة .. نهى ، أتوسل إليك، أفيقى .. سامحينى . يا إلهى كيف عذبتك ، وعذبت نفسى ، ولماذا ؟

لماذا ارتضيت الاستمرار فيما وقع من خطأ ؟ كيف سمحت للهامش أن يحتل حياتى ؟ لماذا لم أعد إليك لأستغفرك وأطلب عفوك ؟ لماذا رضيت ببيت خاو إلا من هدوء الملل ووهم الاستمرار ، واختبأت وراء أكذوبة الضمير الذى ألح فى كل وقت تمردت فيه : ما ذنب زوجتى؟ الآن ما ذنبها ؟ وأنا لغيرها ، وما أعطيتها من نفسى غير السطح؟ ألم تكن تستحق ما هو أكثر ؟ ـ لا تستعذب هذا ، صاف لم تستطع الوصول إليك ـ نهى .. كان مستحيلاً أن أمتد عبر أحد غيرك ، أو أبذر يقين وجودى واستمرارى فى تربة لا أعرفها ، ليست لى ، وإن عشت فيها بمساعدات الصوبة. من أجلى يا نهى ، من أجلى انهضى .. قاومى..

تجمدت الكلمات بين شفتيه فى الممر البارد ، وهو يتابع رمشيها يرفرفان ، وعينيها تتطلعان إلى سماء الحجرة التى لا تصله أصواتها . أنتظر أن تستدير نحو النافذة لتراه ، صرخت رغبته بعنف مانعاً شفتيه أن تتحركا .. التفتت ناحيته، وتعلقت نظراتها بالزجاج المفتوحة ستائره ، أدركت وجوده ، فاضت دموعها ، واقتلعت فى طريقها قدرته على الصمود والتماسك . بكاها وهو يتمتم لها أحبك . رفعت يدها ناحيته دون أن تطوله . لفها بخار الحرمان الطويل ، خاف أن تتسرب من بين

يديه ، وأن تحملها هذه الغلالة إلى عالم غير عالمه . كانت أشبه بجنين معتصم بكيس ميلاده ، يحاول الخلاص، ترتعش تحت وطأة آلام تسرى إليه فتمزعه. قال هامساً بصوت مرتجف .. رباه ، كم أنت يائسة !! قاومى ..

عزفت شفتاه لحناً متدفقاً للحب ، ما سمعته نهى رنيناً ، بل إدراكاً خدر شرايينها ، ودقات الساعة تنهى الدقائق المسموح بها للزيارة بجرس صغير نبهه لضرورة ابتعاده . خرج يتعثر فى أيامه التى لم يسامحها: لا يهم خطأ من ؟! يكفى أننى أدرك الآن أنها لى وحدى ، ولم تكن أبداً لغيرى.. أبداً .

عاد إليها كل يوم لدقائق ، ثم تبتلعه الأروقة بعدها . انتظرته ، تدفق مع الأكسجين الذى يبثه جهاز خشن إلى رئتيها أمل أن تكون له.. عبرت الساحة بين غرفة الخطر وغرفة النقاهة منتعشةً بالحياة أكثر من أى وقت كانت تمرح فيه بين الحقول ، أو فوق رمال الشاطئ ، يبللها رذاذ اليقين فى غد حقيقى . أرسلت له نبضات شغفها أن تعال . وحين اندفع إليها فى غرفة صغيرة هادئة الألوان، ناعمة الصوت ، ادخر الكلمات، وعالج بالصمت ما أفسدته سنوات الغربة عنه . وحين همّت أن تبدد هدوء المعرفة اليقينية ـــ بأن إنساناً ما ولو فى آخر أطراف الأرض يحبها ـــ حين همّت ، أسكتها بشفتيه ، ولم يكن فى انتظار موافقتها .

اختارا كوخاً صغيراً على شاطئ البحر ، منعزلاً كصخرة فى جرف . جلست فوق مقعد خشبى يكشف المدى أمامها . لف ذراعه

حول كتفها تاركاً الهواء يشبع رئتيه ، "هل يكون للـــهواء مثـــل هـــذا الاستمتاع كل لحظة دون أن نكتشفه ؟" تركها تسقط رأسها فى صدره، ثم احتواها مفسحاً للسكون الذى كشف ارتجافـــهما معـــاً الســـاحة . ساعات طويلة من الالتصاق الآمن، كانا فى حاجة إلى هدوئها، قبـــل أن يصدقا أنهما بالفعل الآن معاً .. وشوش الفيروزى المفضض ، المنعكس من السطح الرجراج ، بلهفة أن اطمئنا !! غرقا يطهران روحيهما مـــن آلام الحرمان الطويلة التى أدركا قسوتها حين هزهما المـــرض ، وأعلنـــهما أن الوقت ليس لهما ، وأن المتاح قليل .. قليل ..

احتل عزف الكمان المنبعث من الراديو المساحة الوحيـــدة مـــن العقل، المنتبهة لمحيطهما . لم يكن أى منهما فى حاجة إلى النظر إلى الآخر، أو إلى الداخل . استمتعا بهذا الإحســـاس الناعم الذى يهدهدهما برفـــق فوق أجنحة موجاته . رفعت رأســـها مواجهـــة الاتســـاع الكـــونى . واستقرت.

دخلا الكوخ ، وهو ممسك بكتفها ، مرتاحاً تلك الراحة التى تأتى من معرفة طويلة عميقة بالآخر . تمددا فوق الســـرير أمام البحر ، عزفـــا بأصابعهما فوق أوتار الجســـد الذى تفككت أعصابـــه، ثم عضلاتـــه . أزاحا ستائره بســـرعة ، وخاطبا الأعماق ، مسا كل خلية ليتأكدا أنهـــا هى هى وليست غيرها. قطعا طريق اليقين متسلحين بهذا الشعور الـــذى ينبع من إدراكنا أننا منسلخان من نواة واحدة انشطرت ، فصرنا مخلوقين. تخلصا من كل ما دثرهما به زمن الفراق من ملابس ، وأمكنـــة ، أزمنـــة ومعتقدات ، ضغوط وأفكار ، وحتى معرفة بعالم بدا بعيداً ، ســـرمدياً ،

كأن لا وجود له. فالوجود أن تكون له ، وأن يكون .. لها . عاريـــان عرفا أنهما اغتصبا كل هذه السنوات ، لكنهما طردا بحسم كـــل فكـــرة حاولت اختراق لحظة انبعاثهما الجديد .

"رباه كيف تختصر الحياة فى لحظة التصاق ؟!"

حرضها صوت داخلى قادم من بئر أحراشها :

"قولى له ، أخبريه ."

نحن نشعر معاً ، لست فى حاجة إلى الكلام أو الحركة ، تكفيـــنى نبضات تحرش جسده التى تحتشد ، وتعلو ، وتضئ دروب جسدى كـــى أعرفها معه ، تكورت أصابعها ، واعتصـــمت بباطن يدها ، ربت عليها وضمها بقوة ، .. رباه أخشى رغبتى فى أن ترقص يدى علـــى حلبـــة جســـدك !! انفرجت أناملها على استحياء ووقار الفنان الماهر حين يهم بالعزف، تمردت ـــ لم أعد بمسيطرة عليها .. لماذا أأسرها ؟ ذقت مـــرارة السجن وكنت السجان . لماذا لا أتركها تطير، تمتص الرحيق مثل فراشة، تعرف أنها ستموت بعد دقائق .. الكل والمنتهى . انكفأت تمنـــع مطـــر الحزن من إغراق عينيها .. ابعدى هذه الأفكار . أنا له .. للمرة الأولى . حرة .. مـــزعت الأكفان عن ذاتها . شـــعر بها تزداد التصاقاً به .. انفتح لها أكثر وأكثر ، حركت رأسها ، لمست بشرة وجهها الخط الفاصل بين رقبته وصدره ، عبرت حاجز الأمواج ، وألقت بنفسها إلى المياه التى تفور طالبةً الانعتاق، تلونت فى ثوب ألف امرأة وامرأة، تجـــرب أن توصـــل أحاسيس أنسجتها التى ترفرف إليه . تمرغت شفتاه فوق روحـــها الـــتى

تخلقت جسداً .. فردت أجنحتها، كشفت عن رغبة ما استحت منها .

امتلأ بشعور أن لجسدها عطر شوارع عتيقة ، حـــارات وأزقـــة مفعمة بالحنين، "تجتاحنى أنهار من يقين أنى أكتمل .. دخلتك مصليــــاً ، متطهراً ، مولوداً ، تركت على عتبتك يأسى . دهمنى صبـــاح البحـــر فى قبلتك" .

راح يقطف بلورة شوق عمره سبعة آلاف سنة ، وانبعث ســـيداً للنحل . لأول مرة لم تستســـلم ، وتترك للقافلة أن تحـــرث دربهـــا ، ثم تتركها للخواء ، ونباح الرياح فى الفراغ ، بعد كل لقاء مـــع حلمـــى . تشبثت برغبتها الأبدية فى المشاركة .. تجمعت تحته شرراً مـــن نيـــازك وشهب لا تذوى ، همت بالطيران ، تلقفتها موجة ســـاخنة .. التقيـــا ، غمرتها رائحة جســـده التى ما عرفتها قط، رغم أنها أدركتها ذات مـــرة بالحس ، حفرت فى جلدها أخاديد وسراديب ، وعششت مثـــل عطـــر قديم، يبث نفثاته كلما تحركت، وتعلمت أن تســـتدعيها بعد ذلك مدى الحياة . جلجلت ضحكة الهواء الحر فوق لجة الموج ، فحفزتهـــا علـــى الانفراط .. ترددت، غاصت ، تغرق رغم السعادة الصاعقة . ارتعشـــت مخنوقةً بما يفور داخلها . قال لها :

ـــ انفجرى

انفرطت ناعمة كعسل الظهر الأبيض ، عطـــر الغرفـــة شـــذى انعتاقهما معاً ، وأسكرهما المطر .

هلّ مساء بلا عتمة . قالت : ما كنت أبداً إلا لك . قطرت لـــك

أنوثتى خمراً و لم أذق حـــلاوتها ، أخفيتها لنرتشفها معاً ، احتفظـــت فى رئتى بعطر قلتم لأنفاسك يوم أن قبلتنى تحت صفصافتنا ، صبغت شرايينى للأبد رائحتك وسرت همساً إلى سراديبى. آســـرتك داخلـــى ، وكنـــت أخشى أن يراك الآخرون. لم تزرنى نسمة إلا وكنت قوام هوائـــها ، ولم أعرف ابتسامةً دون أن يمرق وجهك أمامى طيفاً يهطل بالبنفسج مجنحـــاً بأيامنا .. توقفت ساعتى عند آخر عناق لنا، وما عاد الوقت وقـــتى، ولا العالم عالمى، ومع هذا انتظرتك ، وسكنت غيـــابك ، وعرفـــت أنـــك ستدوس الفراق يوماً ، ولم أكن واهمة .. فإذا ما مرق نصل يأس يذبـــح أيامى ، صرخت بك أن تعال .. وأنا أهيب بكل الكائنات كـــى تـــأتى مشتعلاً، توقف بقبلاتك الأبدية زحف الخريف .. وحين كنـــت أراك وســـط ركام العائلة والناس، لم يخدعنى هدوءك، ولا مزقنى ســـكونك، قرأت المختبئ تحت جلدك ، واستقبلت إشعاع الرغبة المتقافز فى خلاياك، وحدثتك وسط عشرات البشر دون صوت ، ووصلتنى كلماتك حفيفاً لم أعتده معـــك ، لكنى دربت نفســـى عليه ، وتعلمت أن أتلقى المتـــاح طالما لم نمد أيدينا لنغيره .

نمت الأغلال فوق معصمىَّ ، وتوحشت الأدغال ، واستولت على جســـدى ، ساحةً وراء ساحة ، حتى وصلت إلى عنقى ، فـــاختنقت ، وسقطت . لا أريد حياة مكفنةً برايات الموت..

أما تفاصيل هذا الاختناق فهى قصة طويلة ، بدأت مع محـــاولاتى لترويض نفسى على تقبل الأمر الواقع. قصة لم يكن حلمى وحده هـــو ســـبب المأساة فيها، ولم تكن علاقته الغريبة بأمه التى اســـتهنت بهـــا فى

البداية هى السبب الأساسى ، ولا إلقاء عمق اللوم المستمر علـــى عـــدم إنجابي لصبي يحمل اسم حلمى . لكنى أعترف الآن ، بعد هـــذا العمـــر ، وتلك التجارب القاسية ، أننى استهنت بنهى ذاتها . خلت نفسى قـــادرةً على الحياة ضد رغباتها، بثقة لا أعرف الآن من أين استقيتها. ثقـــة أدت لهذه النتيجة التى وصلنا إليها. لن أغير مما مضى أى شئ ، ولن أســـتهلك أجمل أيام العمر فى اجترار الآلام، فالعمر أمامنا نحكى فيه، ونسترشـــد بما حدث ليساعدنا على بناء حياة عريضة .

فأنا الآن أملك لحظتى ، وربما المستقبل .

احتواها .. اخضر الصمت ، وتندى الضوء كاشفاً أن الكلمـــات كانت له ، وأن رنين الصدى كان مطرقةً لآلامهما معاً، فلم يعرفا مـــن الذى تكلم ، ومن تلقى. امتزج الصوتان فى صوت واحد سرى فى الغرفة التى زارها رذاذ البحر ..

القاهرة فى مايو ١٩٩٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٦٠١ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977-01-5500-4



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٢٥ قرشاً